محمد سليمان عبد المالك

حياة جديدة

رواية

لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا

لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

او زيارة موقعنا sa7eralkutub.com

إهداء

إلى الأستاذ حمدي مصطفى رحمه الله.

القسم الأول

ميلاد فريد

1

«نحن نُعطيك «حياة جديدة» بسعر مُغرٍ.

الاختيار لك وحدك.

أوقف شيخوختك..

واستمتع مرة أخرى بحرية الشباب..

وبالسعادة الأبدية».

***

أوراق الخريف جافة، وصفراء.

أراها عبر نافذة مكتبي بصعوبة، ليس لأنني أنظر من الطابق العشرين، ولكن لأن بصري قد ضعف بشدة بعد أن حطّمت حاجز التسعين عامًا منذ أشهُر قليلة.

أوراق الخريف تكسو جذوع الأشجار الجافة، وتتناثر عبر طرقات المدينة.

أجد هالة، السكرتيرة الشابة، واقفةً أمامي فجأة، لا بد أنها قد طرقت الباب، لكنّ سمعي لم يعد بالقوة الكافية، حتى مع جهاز التقوية المتدلي إلى صدري النحيل.

أنظر إليها، رقيقة الملامح، عذبة المُحيا. لو أنني تزوجت

في سن طبيعية لكانت لي حفيدة في مثل سنها.

لو!

تضع أمامي الملف، وتتحدث عن البريد، وعن الأوراق المتأخرة، وعن سير العمل. أسمعها ولا أسمعها. أنظر إلى النشرات الدعائية المتناثرة على مكتبي واعدة بحياة جديدة، وأعجز عن مد يدي للتوقيع على الأوراق.

الخريف ريح وذبول وموت.

ـ فيما بعد.

هتاف شوقي الصارم الذي يفزع هالة فتلملم أوراقها بسرعة:

ـ أليس لديك نظر؟! من الواضح أن عمّي متعب الآن.

«شوقي أبو اليزيد»، ابن أخي الضخم بشاربه الكث ونظراته النارية. لم يكن أخي، رحمه الله، بهذه الضخامة، ولم يملك هذه الملامح المرعبة، لكن شوقي ورثها عن عائلة أمه، زوجة أخي رحمها الله أيضًا.

ـ آسفة يا أستاذ شوقي!

وتلوذ هالة بالفرار، فيما يكشر شوقي أنيابه عن بسمة أعرفها:

- رائع! تعوّدي أن تستمعي إلى أوامري جيدًا يا فتاة.

بسمة ذئب مفترس ينتظر الإيقاع بالفريسة:

- إنها مسألة وقت، مسألة وقت ليس إلا!

وتبرق عيناه وهو ينظر إليّ، وقد جاهدت لمد يدي حتى أخفي النشرات الدعائية أسفل كومة من الأوراق البيضاء.

منذ مدة وشوقي يجاهر بأطماعه علنًا دون أن يخشى لومة لائم. إنه وريثي الوحيد، وريث الأموال الطائلة التي أفنيت عمري أجمعها وأضعها قرشًا إلى جوار قرش، لتتضخم ثروتي وتتضخم وتتضخم، حتى حطمت حاجز المليارات منذ بضع سنوات.

ينظر شوقي إليّ، ويمنّي نفسه بنهايتي القريبة، فموتي الحتمي هو بداية تحقيق أحلامه الذهبية التي طال انتظاره لها.

شوقي الذي فشل في الحصول على مؤهل جامعي، وأضاع ميراثه المتواضع من أبيه وأمه على اللهو والعبث والمجون، يعلق أحلامه الآن بالأموال التي في جُعبتي، والتي ستكفي لرعاية طموحاته حتى نهاية عمره، وربما أكثر.

هكذا يعلن على الملأ بكل صفاقة.

وأنا لا حول لي ولا قوة، أحمل على كاهلي سنين من التعب والشقاء، سنين من نسيان النفس والانغماس في الصفقات والأرقام والعمل المتواصل، لأكتشف بعد تسعة أعشار قرن أن الثروة قد سرقت مني عمري، تاركة إياي للوحدة والعجز وقلة الحيلة.

تسعون عامًا مرت أمام عيني كلمح البصر، لم أذق فيها طعم الراحة، ولم أعرف في يوم واحد منها معنى المتعة، راحتي ومتعتي كانتا ـ فقط ـ في العمل، العمل المتواصل دون كلل أو شكوى، ودون التفكير في الحصول على استراحة قصيرة بين الأشواط المتعاقبة، لمجرد التقاط الأنفاس.

تسعون عامًا، أجلس بعدها على مقعد فوق عجلات تتحرك بالكهرباء، وأتناول أطنانًا من الأدوية اليومية، أدوية ارتفاع الضغط، أدوية السكر، أدوية حصوات المرارة، أدوية الكلى، أدوية تصلب الشرايين، أدوية التهاب المفاصل، أدوية تقوية الأعصاب، فيتامينات وكبسولات ومحاقن ومحاليل وريدية، كل هذا من أجل أن أتقدم نحو خط النهاية ببطء، ودون كثير من المعاناة.

تسعون عامًا، بلا شريك، بلا صداقة، بلا حب، بلا زواج، بلا أسرة، بلا أبناء أستند على أكتافهم بعد أن اشتعل الرأس

شيئًا، وبعد أن بلغ بي الكبر عتيًا، بلا امتداد لكل ما بنيت وصنعت، إلا شوقي الجاهز للانقضاض لحظة وقوع الفريسة داخل القبر، ولولا بعض العقل وحساب النتائج لفعلها بيديه، وعجّل بي نحو مصيري.

شوقي يعد الأيام، وتمر عليه الشهور في لهفة، انتظارًا للتركة المهولة.

إمبراطورية «فايز أبو اليزيد» الاقتصادية العملاقة العابرة للقارات، بكل فروعها المترامية في أنحاء العالم، وأرصدة بنكية سائلة تتجاوز مليارين من الدولارات، والعديد من الأصول الأخرى التي أعجز أنا نفسي عن حصرها.

فايز أبو اليزيد، اسم يعلو مجموعة اقتصادية عظيمة، وبقايا إنسان فوق مقعد متحرك لا يقوى حتى على أن يلوك طعامه بطاقم الأسنان الجديد.

شوقي يقترب مني رافعًا صوته حتى أسمعه بوضوح:

ـ لا بد أن يتغير النظام يا عماه.

يدفع بالمقعد نحو النافذة، وأنظر أنا إلى الشمس الغاربة بعيدًا عند خط الأفق.

ـ حضورك إلى هنا مرة أسبوعيًا يشكل مشقة كبرى عليك

بدون شك.

الوغد يريد تنحيتي عن طريقه ببطء، ولا بد أنه يفكر الآن في دفعي بالمقعد من الطابق العشرين لأسقط أمام مبنى مؤسستي ميتًا، لولا بعض من العقل، وحساب النتائج.

ـ تكفيك مرة شهريًا.

الوغد! الوغد! الوغد!

لكنها الصحة المعتلة تمنعني حتى من النظر ناحيته.

ـ ولتطمئن تمامًا.

ألمح بسمته من خلف ظهري، وأشعر بثقل كفه فوق عاتقي.

ـ ستدار الأمور وكأنك موجود وزيادة!

شوقي يعلن نفسه خليفة لي في حياتي باسم الشباب والصحة والقدرة في مواجهة الشيخوخة والمرض والعجز، ويدفع المقعد بي نحو الباب دون أن يأخذ رأيي.

ـ أرى أن هذا يكفي اليوم، موعدنا الشهر القادم.

ويسلم المقعد إلى سائقي الخاص سرور، الشاب البسيط الذي لا أحلام له ولا طموحات ولا مواهب.

ـ الوداع يا عماه!

ويغيب عن ناظري تاركًا بسمته تملأ مخيلتي التي لم يصبها العطب بعد، فيضعني السائق بمهارة مكتسبة داخل السيارة «اللنكولن» السوداء الضخمة التي تشبه تابوتًا كبيرًا، ويغلق الباب خلفي مغمغمًا:

- هذا الفتى يذكرني بالخرتيت الذي أراه في حديقة الحيوانات.

أضحك، فيخرج مني صوت أشبه بالفحيح. حتى القدرة على الضحك أصبحت من ذكريات الماضي الذي لم أعشه كما يجب، وكما أحب.

يقول سرور بتلقائية وهو يجلس أمام عجلة القيادة خالعًا قبعته الرسمية:

- بل يذكرني بحديقة الحيوانات كلها لو أردنا الحقيقة!

أنا أحب هذا الشاب، وتؤنسني خفة ظله غير المفتعلة. لو أنني تزوجت في سن طبيعية لكان لي الآن حفيد في مثل سنه.

لو!

انطلقت بنا السيارة، واحتواني اصفرار الخريف، وخشخشة أوراقه الجافة، حتى بلغنا القصر الخاص بي عند بداية طريق

«القاهرة ـ الإسكندرية» الصحراوي، فاجتزنا البوابة المعدنية السوداء ليتلقاني «توبة» على مقعدي المتحرك مرة أخرى.

توبة، فلاح من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، يرتدي الجلباب والعمة، وله ذلك الوجه الذي يشبه أرضًا محروثة بالبذور والشتلات، وهو البستاني الخاص بي منذ سنين طويلة أعجز عن تذكر عددها، ولعمري فما أكثر ما أعجز عن تذكره هذه الأيام.

توبة، هو ساعدي الأيمن إن يكن لي أن أدعي وجود ساعد أيمن لي أستطيع الوثوق به، فهو ـ بالإضافة إلى البستنة ـ يطبخ ويكنس ويواظب على إعطائي أدويتي في المواعيد المحددة، ويلبسني ويغطيني عند النوم، ويدخلني دورة المياه، إنه باختصار العكاز الوحيد الذي يمكنني الاستناد إليه في أواخر أيامي هذه.

لكن، تبقى قدراته محصورة داخل جدران قصري المنيف هذا، فهو في النهاية شخص بسيط محدود القدرات، مثل سرور وإن كان فارق السن بينهما كبيرًا.

نظرت إلى أكوام أوراق الشجر الجافة التي كومتها شوكة توبة إلى جانب السور العالي، وأخذت أفكر في الخريف مجددًا، بينما يدفعني توبة فوق المقعد إلى الداخل.

القصر الذي لا تواتيني الراحة إلا بين جدرانه، برغم القصور الأخرى والبنايات الأخرى والمقاطعات الأخرى التي أملكها في جميع أنحاء العالم، والتي أعجز عن حصرها هي الأخرى من ضمن ما أعجزني الكِبَرُ عنه.

العجز صديقي، والخريف!

ربما لأني قد بنيته حجرًا حجرًا، وأسست كل ركن فيه كما أحب، وها هي ذي الزخارف وقطع الأثاث والتحف والزرابي والنمارق شاهدة على حسي الكلاسيكي، وعلى ندرة كل ما اجتهدت في جمعه دون أن ألقي للتكلفة بالًا.

الصالون الفرنسي المذهب، المدفأة الخشبية العتيقة على الطراز الإيطالي، الثريا التركية الضخمة في منتصف السقف، التماثيل الإغريقية والهندية التي ينصب الماء منها وإليها، النوافذ الأرابيسك والمشربيات، ساعات الكوكو السويسرية، السجاجيد الإيرانية ولوحة من قطع «سلفادور دالي» الأصلية، كل شيء هنا فيه لمسة مني لذا أعشق هذا المكان.

لمن سأترك كل هذا؟!

لمن؟!

أشير لتوبة بأن يتوقف بي أمام المرآة الكبيرة المصقولة وسط الرخام المحفور حولها في ركن الصالة، فيفعل.

أتأمل فايز أبو اليزيد الذي لا أعرفه، والذي فوجئت به ـ منذ فترة قريبة للغاية ـ على هذه الشاكلة المفزعة.

جلد يغطي عظامًا نخرة، قطن أبيض فوق الرأس والعينين، تجاعيد غائرة في الجسد والروح، حياة خابية في عينين منكسرتين، جبهة متغضنة، يدان مرتعشتان، وأنفاس تتردد في صدر جثة.

هل هذه هي النهاية يا فايز؟!

تموت تاركًا خلفك كل ما غرست، دون أن تستمتع بلذة الحصاد؟!

تموت وأنت لم تحيَ بعد؟!

تموت ويضيع منك الوقت والحلم والعمر ونفسك؟!

مأساة لاهية.

ملهاة مأساوية.

تراجيديا القدر الكوميدية بكل اقتدار.

كدت أشير لتوبة بأن يعاود التحرك بي نحو غرفتي، عندما لمحت الكتيب الصغير الملقى على الأرض بإهمال.

وبرغم المسافة البعيدة، ورغم ضعف بصري، وبرغم

التسعين عامًا فوق كاهلي، لمحت الشعار المدون فوق الكتيب بوضوح:

«حياة جديدة»

وفكرت: أجل، ولِمَ لا؟

ماذا الذي سأخسره لو أنني...؟

2

«يمضي بك العُمر وتفقد أشياء كثيرة.

أشياء كنت تفعلها ببساطة ودون مشقة أو تفكير، أصبحت الآن محض ذكريات بعيدة.

لم تعد تتمتع بهذه القوة.

وجهك تكسوه التجاعيد.

يطلقون عليك مواطنًا متقاعدًا.

إن الزمن يتحرك متجاوزًا سرعة الضوء.

ولسوف يطولك أينما كنت.

ماذا يمكنك أن تفعل لكي توقفه؟

«حياة جديدة» هو الجواب!».

***

ليل الشتاء برودة، وأمطار.

أضاء البرق في الخارج للحظة، منعكسًا على وجهي وأنا أراقب الحديقة من غرفتي بالطابق الثاني من القصر، عبر الزجاج الذي بللته أنهار المطر الدقيقة، وما زالت.

رشاشات المطر تخترق أذني - من خلال جهاز التقوية - بعيدة عميقة، ثم يهزم الرعد بقوة وجبروت، في حين يفتح توبة البوابة الخارجية السوداء أمام زوجي المصابيح المضاءة.

لقد حضروا إذن، في موعدهم بالثانية.

منتصف الليل تمامًا، بعد ثلاثة أشهُر كاملة من مكالمتي الأولى لهم.

منتصف الليل تمامًا، الحد الفاصل بين يوم قديم يموت، ويوم جديد يولد.

جيد أنني لم أمت خلال هذه الفترة، ربما لحكمة أن أخوض التجربة.

ربما.

ضيَّقت عيني قدر استطاعتي علَّني أستطيع ملاحظة ما يجري في الحديقة، الظلام والأمطار والسيارة الحديثة التي يكسوها الوحل تربض في سكون إلى جوار «اللنكولن» السوداء، ليهبط منها شبح بدين قصير القامة ممسكًا بحقيبة سفر كبيرة.

أرى توبة ينتهي من غلق البوابة، ويهرول نحو الشبح رافعًا

ذراعيه عاليًا، ثم ينحني ليحمل عنه حقيبته، قبل أن يقوده إلى داخل القصر ليخرجا من مجال رؤيتي تمامًا.

توبة والشبح القصير في داخل القصر الآن، صحيح أنني عاجز عن سماع تحركاتهما بالأسفل، لكنني لم أفقد إحساسي بوجود الغرباء بعد.

تحركتُ بمقعدي ضاغطًا الأزرار، وتوقفتُ أمام المرآة.

رأيت فايز أبو اليزيد، أنا، وقرأت في وجهه تاريخًا طويلًا حانت نهايته، وآن لحربه الطويلة مع نفسه والزمن أن تضع أوزارها.

كم من عهود مرت بك أيها الرجل؟

كم رجلًا رأيت وصافحت، ومع كم رجل تعاملت وتحدثت، وكم من مواليد شهدت، ومن جنازات حضرت!

آن لك أخيرًا أن تستريح.

تستريح.

ولا شيء بعد.

طرقات توبة على باب الغرفة، ثم دخوله وصوته الريفي البدائي:

- الضيف بالأسفل يا فايز بك.

استسلمتُ ليديه اللتين تولتا قيادة المقعد، تذهب بي ببطء إلى الصالة المضاءة بالأسفل، ومع سطوع برق مفاجئ، رأيتُ الشبح هناك وسط قطع الصالون الفرنسي الأصلية، منكبًا على صنع شيء ما بجوار حقيبته المفتوحة فوق السجادة الفخمة التي أفسدها ماء المطر.

نهبط ونهبط، ورويدًا تتضح تفاصيل الأشياء.

لم يكن شبحًا، وإنما رجل عادي قصير القامة أشيب الفودين، في منتصف الخمسينيات تقريبًا، يرتدي نظارة ذات إطارات مذهبة وأنيقة، وبدلة زرقاء فاخرة تلمع فوق قوامه الممتلئ قليلًا، وقد علق معطف الأمطار المبتل فوق المشجب الملاصق للباب الخارجي.

كان غارقًا حتى أذنيه في تنصيب شاشة على حامل معدني، شاشة براقة رقيقة للغاية لا تتصل بأي أسلاك.

نهبط ونهبط، ورويدًا رويدًا يرانا الرجل فتتهلل أساريره، ويشرق وجهه بالابتسام:

- مساء الخير يا سيدي.

يدوي الرعد في الخارج ونحن نقترب منه.

- الدكتور أمجد هيكل، من مؤسسة «حياة جديدة» المحدودة!

أقف في مواجهته، وأمد يدي في وهن لكي أصافحه، فيقترب مني مهرولًا ويحمل كفي المعروقة بين أصابعه القوية، بينما يتركنا توبة متجهًا إلى حجرته خارج القصر.

صمت إلا من رشاش الأمطار في الخارج، ثم:

- سعيد بلقائك يا سيد فايز، إننا لا نقابل هذا الصنف من العظماء كل يوم.

لا نكتسب صفة العظمة إلا عندما يكون السمع أضعف من أن يطرب لها!

أحاول النطق، فيخرج صوتي كفحيح ثعبان عجوز:

- الشكر لك.

يتراجع الدكتور أمجد. تتعانق كفاه وهو يقول باسمًا:

- بل الشكر لك أنت يا سيدي على الثقة التي توليتنا إياها، كل ما أستطيع أن أعدك به هو أن نكون عند حسن ظنك، وأعتقد أننا نستطيع أن نكون كذلك.

فحيح:

ـ بالتأكيد!

يُخرج الدكتور أمجد من جيبه جهازًا صغيرًا للتحكم عن بُعد:

ـ اسمح لي أولًا أن أريك إعلاننا الجديد الذي سنطلقه قريبًا عبر أكثر من قناة تلفزيونية، وعبر شبكة المعلومات الدولية أيضًا.

نظرت إلى الشاشة، وبضغطة زر بدأ العرض على الفور.

موسيقى ناعمة كأنها آتية من عالم آخر، عالم ساحر شفاف لم يتمنَ أحد ألا يذهب إليه.

ظِل إنسان بعيد يتشكل عبر بؤرة ضوء في الخلفية، ثم الصوت الأنثوي الناعم:

«اعتدنا أن نحلم، أن نوجد..»

سحاب بنفسجي على خلفية من سماء زرقاء.

«نولد، ننمو، نكبر، نعيش، نسقط..»

صور متعاقبة لمراحل نمو الإنسان من الطفولة حتى الشيخوخة.

«دون أن نسأل..»

كرات معدنية ثلاثية الأبعاد تتقافز على مدى مفتوح.

«يموت المولود بعد أن يولد مباشرة، دون أن يُمنح فرصة الاختيار..»

الكرات المعدنية تتقافز على المدى المفتوح.

«يصاب الكهل بتغيرات غير قابلة للانعكاس..»

الكرات المعدنية تندمج لتكون كرة واحدة كبيرة.

«هل من الممكن أن يحتفظ الإنسان بقدراته هذه للأبد؟!»

تنشق الكرة ويخرج منها إنسان جديد، شاب، مفعم بالحيوية.

«مجرد أحلام؟! كلا..»

الشاب يمد يده لتتراص فوقها كلمتا «حياة جديدة» بحروف لاتينية.

«مع حياة جديدة، ليست مجرد أحلام».

وتظلم الشاشة.

يسألني الدكتور أمجد وهو يضغط زر الإيقاف:

- ما رأيك؟

أجيبه بمزيد من الفحيح:

- جميل!

كفاه تتعانقان:

- أتعشم أن تكون قد اتخذت قرارك يا سيدي.

أقول الصدق:

- أحتاج إلى معلومات.

يهز رأسه متفهمًا، لقد توقع هذا بالتأكيد:

- لهذا أنا هنا يا سيدي.

وبدأ دون مزيد من المقدمات:

- أنا يا سيدي لست إلا مندوبًا عن مؤسستي «حياة جديدة»، وممثلها الرسمي في منطقة الشرق الأوسط منذ أكثر من عشرة أعوام، بمعنى أنني مجرد فرد في طاقم كامل يعمل بهمة لأن يمنحك ويمنح غيرك حياة جديدة، بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ.

هززت رأسي متفهمًا، ومنتظرًا المزيد.

- «حياة جديدة» مؤسسة دولية عابرة للقارات، هي الأولى والأخيرة من نوعها في العالم كله، يقع مقرها في مكان ما

من شرق آسيا، ولا نحدد موقعها الفعلي إلا لعملائنا الثقات بعد أن يوقعوا اتفاقات الموافقة والحفاظ على السرية المطلقة، وذلك لأسباب لا تخفى على أحد.

هذا أيضًا أفهمه.

- ما الذي نعرضه عليك يا سيدي؟ نحن نمنحك تذكرة سفر إلى حياة أخرى حافلة بالشباب وبالانطلاق وبالقدرة على ممارسة الحياة. إن الإنسان يقضي ثلاثة أرباع عمره في جني المال وبناء مستقبله، ثم يقضي الرُّبع الأخير في إنفاق كل ما جمعه على العلاج من الأمراض وإخفاء آثار الشيخوخة، أو لنقل التعامل معها بالحسنى حتى تقضي عليه في هدوء قاتل، وفي وحشية قاسية. السؤال هو: كيف يمكننا أن نفعل ذلك؟

أتحفز، وأضبط من وضع جهاز تقوية السمع في أذني حتى لا تفوتني شاردة.

- الإجابة العلمية البسيطة هي: زراعة المخ البشري!

هذا ما أردت سماعه من البداية، لِنرَ.

- إن العلم قادر الآن على زراعة الكبد والرئة والقلب والكلية، بل ومؤخرًا الأطراف، ومع التقدم الرهيب والمتسارع في مجال زراعة الأعضاء البشرية، بدأ الباحثون يفكرون في

شيء غير قابل للتفكير من قبل، أعني زراعة المخ البشري. صحيح أنه أمر يليق بالخيال العلمي، خصوصًا لو استعنا بالمثال الأشهر على ذلك: أعني مسخ «فرانكشتاين» الذي تم تجميعه من أجزاء بشرية متفرقة منها المخ بالطبع، لكننا هنا لكي نقدم لك النسخة العصرية من القصة، حيث نزرع المخ البشري بكل تعقيده في جسد آخر!

ما زالت المسألة غائمة.

- سأضرب لك مثلًا يا سيدي: لنفترض أن لديك سيارة أصابها القِدم وكثرت فيها الأعطال، بحيث لم يعد الإصلاح مجديًا معها، أليس أفضل ما تصنعه بها عندئذ هو أن تلقيها في أقرب مقبرة للسيارات، وأن تبتاع سيارة جديدة تلائم متطلباتك؟ صحيح؟ جميل جدًّا. لنفترض إذن أن عقلك الذي يحمل هويتك هو سائق السيارة، وأن جسدك هو السيارة التي أصابتها أدران الشيخوخة، ألن يكون رائعًا أن تكون قادرًا على تغيير جسمك البشري بنفس السهولة التي تغير بها سيارتك؟ «حياة جديدة» هو البرنامج الطبي الفريد الذي جعل هذا ممكنًا.

الموضوع يتضح، ويشير في عروقي المتصلبة بالكوليسترول إثارة لم أعهدها منذ زمن.

- إنه يمنحك تذكرة سفر إلى حياة جديدة داخل جسد

جديد تختاره بنفسك، نقوم بنقل مخك الذي يحوي هويتك إليه، فتعود من خلاله إلى الشباب ثانية. أي أن زراعة المخ البشري ليست في حقيقتها إلا تقنية جراحية حديثة تمنحك فرصة تغيير جسدك عوضًا عن إصلاحه، وهي بهذا المنظور زراعة جسد كامل، لا زراعة عضو واحد!

تحمل لي كلماته أملًا ظننته مستحيلًا.

ـ بدا هذا في البداية ضربًا من المستحيل، خصوصًا في أوائل القرن العشرين عندما كان بعض العلماء الفرنسيين والروس يجرون تجاربهم على الكلاب والقرود داخل المعامل من أجل زراعة رؤوس كاملة فوق أجساد حية تضخ إليها الدم. وحمل «روبرت وايت» الطبيب الأمريكي الأشهر منذ منتصف ستينيات القرن على عاتقه مهمة البحث في مجال زراعة الرؤوس هذه، حتى أعلن في منتصف الثمانينيات أن المجال أصبح مفتوحًا أمام زراعة الأدمغة البشرية منذ وقتها، وهو ما جعله ينال عن استحقاق لقب «فرانكشتاين العصر الحديث»!

لمع بريق كان قد خبا طويلًا في عينيّ الذاويتين.

ـ التحدي الطبي الحقيقي كان يكمن في نقطة واحدة، أن ننقل المخ إلى دماغ العائل، ونقوم بتوصيل الأوردة والشرايين جراحيًا حتى يسري الدم إلى المخ، لكن مسألة

إعادة توصيل النخاع الشوكي وأعصاب العينين والأذنين وبقية أعصاب الجمجمة بدت مستحيلة، خصوصًا مع الاعتقاد القديم بأن الخلايا البشرية العصبية لا تتجدد، لكن التقدم السريع في مجال أبحاث النخاع الشوكي أثبت بأدلة قاطعة أن تجدد الخلايا العصبية ممكن تحت ظروف معملية خاصة جدًا، وهو ما فتح الأمل الواسع أمام تقنيات علاج إصابات النخاع الشوكي، والجلطة الدماغية، والصرع، والشلل الرعاش أو مرض «باركنسون»، وزراعة المخ البشري بالطبع!

أتحفز أكثر وأكثر.

ـ هكذا يا سيدي، نحن نعد مسرحين للعمليات بفريقين طبيين متكاملين، أعمل أنا مشرفًا عليهما، الفريق الأول ينتزع المخ من جسدك، ويضعه في وعاء من أجل التهوية بالدم الطازج، ويعمل الفريق الثاني بتناسق خاص لأخذ هذا المخ وزراعته في الجسد الجديد. يبدو الأمر عند قوله سهلًا لكنه في الحقيقة مجهود عظيم يستغرق أكثر من ثماني عشرة ساعة في غرفة العمليات.

أكاد أقفز من فوق مقعدي وأحتضنه، لكنه سجن العجز الخانق!

ـ الأمر الأكثر أهمية من موافقة المعطي هو إيجاد العائل

المناسب الذي سينقل المخ المزروع إليه. لدينا تشكيلة كبيرة من الأجساد البشرية من أعمار وأعراق مختلفة، يمتد طيف العمر الخاص بها من 13 إلى 30 عامًا، لديك الخيار في إجراء جراحة تجميلية لجسدك الجديد قبل أن تبدأ عملية زراعة المخ. سنقدم لك ألبوم المؤسسة لتختار الجسد الذي يناسبك، فقط بعد أن نجري التحاليل اللازمة للتأكد من تطابق مؤشراتكما الحيوية حتى لا يرفض الجسد المخ الجديد، ولأسباب أخلاقية نحن لا نناقش كيف نحصل على الأجساد التي لدينا ولا من أين نأتي بها.

هذا مفهوم، أومأت برأسي.

ـ قد يستغرق الأمر بضعة أشهر حتى نجد الجسد المناسب، لكننا قد نعثر عليه قبل هذا بكثير.

كاد أملي يخيب، لكني تذكرت بأن ليس لديَّ ما أخسره.

ـ نحن يا سيدي في «حياة جديدة» نملك أكفأ العاملين في المجال الطبي على مستوى العالم، جراحو المخ والأعصاب خاصتنا لديهم أفضل الخبرات التي تجعل كل هذا ممكنًا، نستخدم أحدث التقنيات في المجال العلمي، مندوبونا في كل مكان من العالم جاهزون لتحديد مواعيد مقابلتك أينما كنت، لدينا استعدادات وتجهيزات تعيننا على الاكتفاء ذاتيًا، وطاقمنا الأفضل يستطيع جعل الدنيا تبدو مختلفة في

عينيك دائمًا!

أشعر برغبة في الطيران والتحرر.

- بقيت نقطة السعر.

طاوعني لساني هذه المرة على الفحيح:

- ليكن ما يكون، سأدفع!

قال الدكتور أمجد مغتبطًا، وقد سره اقتناعي بهذه السهولة والسرعة:

- فقط بخمسة ملايين دولار، ستحصل على جسد بشري جديد تمامًا، بأي عمر تختاره، وبأي تعديلات يمكننا إجراؤها عليه. يشمل السعر التجهيزات الطبية والقانونية وعمليات الجراحة الميكروسكوبية وإقامة فترة النقاهة، هناك خصم 10٪ لأول عشرة زبائن، ولحسن الحظ فأنت منهم يا سيدي!

فححت:

- متى يمكننا البدء؟

دوى الرعد في الخارج، مع الضوء الذي انعكس على ابتسامة الدكتور أمجد وهو يقول في هدوء واثق:

- الآن يا سيدي.

ثم مزيد من الرعد، والهدوء:

ـ الآن!

3

«نحن نذهب على أرض الواقع.

إلى ما ذهبت إليه «ماري ويلستونكرافت شيللي» على أرض الخيال!».

***

أنزلني سرور من السيارة السوداء، ودفعني على المقعد المتحرك نحو بوابة المطار، بينما توبة يحمل حقيبتي على كتفه من خلفنا، وشوقي الوغد يغمغم بجواري متأففًا:

ـ لم يكن لهذه الرحلة من ضرورة!

يستكثر عليّ تكاليف الرحلة البسيطة، كأنه قد ورثني وانتهى الأمر!

ماذا لو عرف إذن بأمر الملايين الخمسة؟ أو بأمر المفاجأة الرائعة التي سأكشف له عنها بعد عودتي، إن قُدّر لي أن أعود؟

قلت وأنا أضع يدي على فخذي متألمًا:

ـ آلام المفصل أصبحت لا تطاق!

هذا هو الغطاء الذي أسافر به، عملية تغيير مفصل الفخذ،

ثم... بوم، وفاة في أثناء الجراحة وألهمكم الله الصبر والسلوان.

قال شوقي في صفاقة يُحسد عليها:

ـ لو أجريت جراحة لكل عضو يؤلمك فستنفد ثروتك دون طائل.

قلت متجاهلًا تلميحه الصريح:

ـ اهتم بسير العمل حتى أعود يا شوقي.

مط شفتيه وقال ممتعضًا:

ـ لا توصِ حريصًا.

ـ وأنت يا توبة، اهتم بالحديقة والمنزل!

ـ بالتأكيد يا باشا!

ـ السيارة عهدتك يا سرور.

ـ ستعود لتجدها قد أصبحت موديل العام القادم يا سيدي.

أضحكني اللعين، وأنا أقول في تراجيديا:

ـ ربما تكون هذه رحلتي الأخيرة!

تمنيا لي طول العمر وصمت شوقي، لماذا يجشم نفسه

عبء الكذب؟!

ـ على الأقل كنت أسافر معك!

قالها الوغد في ضيق بالغ، هو بالطبع يريد قضاء وقتٍ سعيد في الشرق الأقصى مع الفتيات الآسيويات الحسناوات على حساب صاحب المحل.

الصبر طيب يا ابن أخي!

ـ ومن يعتني بالعمل في غيابي؟

قلتها ولم يقتنع، لكني لن أشغل بالي بإقناعه، فأمامي ما هو أهم من هذا بكثير.

***

اللون الأبيض يشع من كل ركن في الغرفة، الحوائط والسرير والمقاعد وحتى الحامل المعدني الذي ينقط منه محلول الجلوكوز عبر أنبوب دقيق إلى وريد في ذراعي.

يدفع الدكتور أمجد هيكل باب الغرفة داخلًا، ممسكًا بأوراق كثيرة.

حتى هو يرتدي معطفًا ناصع البياض، تم تطريز كلمتي «حياة جديدة» بالحروف اللاتينية الصفراء على جيبه العلوي.

- نحتاج إلى توقيعك على بقية أوراق التعاقد وإقرارات خلو مسؤوليتنا، سيد فايز.

يقولها ويضع الأوراق أمامي، فأنظر إلى السطور التي تحتاج إلى دهر لقراءتها، ثم أمد يدي المرتشعة وأوقِّع دون أن أقرأ شيئًا.

يبتسم الدكتور أمجد:

- وهناك خبر رائع.

الشيء الوحيد الذي يمكن أن يكون رائعًا الآن هو أن أخرج من هذا المعتقل الطبي الذي قضيت فيه أُسبوعًا من العناية الفائقة.

اشتقت إلى منزلي كثيرًا.

يضع الدكتور أمجد ألبومًا ضخمًا أمامي وهو يفسِّر روعة الخبر:

- ستختار جسدك الجديد الآن، لتنتقل إليه بعد يومين فقط.

هذا خبر رائع بالفعل.

بدأت في تقليب الصفحات السميكة بينما واصل هو:

- هذه هي الأجساد الصالحة لننقل إليها مخك دون خشية

الرفض النسيجي.

أقلب في الصفحات، هناك بِيض وزنوج وآسيويون وشرقيون.

- اليومان هما الفترة الكافية حتى نُخرج الجسد الذي تختاره من الثلاجة، ونذيبه قبل البدء في إجراء العملية.

تشكيلة واسعة بالفعل، ومحيرة!

يسألني الدكتور أمجد:

- هل اخترت هويتك الجديدة؟

أومأت برأسي أن نعم، وأنا لا أزال أقلّب:

- أجل، ونقلت باسمها جميع أملاكي قبل القدوم من القاهرة، بشكل قانوني تمامًا!

أكاد أسأله أن يساعدني، كأنني أنتقي ملابس جديدة أو منزلًا جديدًا!

يقول في تأييد باسم:

- نعم، هذا ضروري.

وجوه، ووجوه...

- ما الاسم الجديد الذي اخترته لنفسك؟

عضلات مفتولة، قوام ضئيل، ربعة، نحيل طويل، قزم.

- ميلاد.

نطقت بالاسم في بساطة وكأني لم أتعذب ليالي طويلة للوصول إليه.

- اسم جميل، ومعبِّر.

قالها الدكتور أمجد في مجاملة لم تخلُ من بعض الحقيقة، بينما تابعت أنا:

- ميلاد فريد.

أومأ برأسه وهو يقول ببسمته الواثقة التي لا تزول أبدًا:

- سنستخرج له جميع الأوراق الرسمية اللازمة فور أن تختار شكـ...

قاطعته وأنا أشير إلى الصورة في الألبوم:

- ها هو ذا.

اشرأب الدكتور أمجد بعنقه، ونظر إلى الصورة التي تنقصها الألوان، والتي تمثل شابًا قوي البنية، أصلع الرأس تمامًا، حاد الأنف، طويل الرموش، صغير الفم، تستدير شامة بُنية دقيقة على خده الأيسر، وهو مستلق على سرير معدني في

إغماضة أبدية.

لماذا اخترته؟!

لماذا هذا الشاب بالذات؟!

لن أعرف أبدًا!

حمل الدكتور أمجد الألبوم وهو يضع إصبعه بين الصفحتين قائلًا:

ـ اختيار موفق.

ثم غمزني بالابتسامة الواثقة نفسها:

ـ استعد للعملية، والحياة الجديدة يا بطل.

قلت وأنا أخلع نظارتي ذات العدسات المقعرة:

ـ أحتاج إلى مرآة.

قطب يسألني مستغربًا:

ـ مرآة؟!

ـ أجل.

أحتاج لأن ألقي نظرة أخيرة، على حياتي القديمة.

***

إغماضة أبدية.

لماذا اخترته؟!

لماذا هذا الشاب بالذات؟!

لن أعرف أبدًا!

حمل الدكتور أمجد الألبوم وهو يضع إصبعه بين الصفحتين قائلًا:

- اختيار موفق.

ثم غمزني بالابتسامة الواثقة نفسها:

- استعد للعملية، والحياة الجديدة يا بطل.

قلت وأنا أخلع نظارتي ذات العدسات المقعرة:

- أحتاج إلى مرآة.

قطب يسألني مستغربًا:

- مرآة؟!

- أجل.

أحتاج لأن ألقي نظرة أخيرة، على حياتي القديمة.

***

إلى اللقاء يا وجهي العتيق المحفور بالترهلات والذكريات.

إلى اللقاء يا فايز.

أم أقول، وداعًا؟

***

ينسحب الدرج المعدني الكبير.

دخان أبيض ينقشع ببطء، عن وجه شاب له شامة في الخد الأيسر.

وجه بلا تعبير.

وجه الموت.

***

الوجهان في غرفة العمليات.

سريران يسيران على عجلات، يتجاوران، وأنا أنظر إلى وجهي الجديد الغارق في الغموض وفي البعيد وفي الجليد.

ثم أشعر بقلبي يخفق في رعب الميلاد الجديد.

والحياة الجديدة.

يتحلق من حولي الأطباء والممرضون والممرضات، يرتدون

أزياء بيضاء كأنهم ملائكة، وكأنني مُقدِم على موت، لا على حياة كما يدَّعون.

يتحلقون حولي وحوله دون أن تبدو من وجوههم إلا العيون، يعدون أدواتهم ومشارطهم، بينما يقترب مني الدكتور أمجد، الوحيد الذي نزع كمامته القماشية:

- مستعد؟

تندُّ عني الكلمة دون إرادة:

- خائف.

ابتسامة واثقة.

- اسأل الجنين بما يشعر قبل الولوج إلى الحياة، ولن تختلف إجابته كثيرًا.

أشعر بأحدهم يدنو من ذراعي، ويعد محقنًا.

- الآن، سوف تذهب إلى عالم آخر، عالم النوم الجميل.

إنه طبيب التخدير، وهذا محقن التخـ... آي!

- وعندما تنهض، ستكون إنسانًا آخر.

أفرغ الطبيب محقنه بسرعة، وابتعد.

- ستكون...

أتجه ببصري إلى الوجه المحنط على السرير المجاور، بالشامة على الخد الأيسر.

ـ ميلاد فريد.

أغيب.

ـ سيذهب فايز أبو اليزيد إلى الأبد.

أغيب.

ـ إلى حياة جديدة.

أغيـ...

***

ظِل بعيد يتشكل عبر بؤرة ضوء في الخلفية، ثم تظهر الشامة على الخد الأيسر.

يهتف شوقي في وقاحة:

ـ لماذا لا تموت؟

ويقفز سرور ليجلس فوق كتفيه مدليًا قدميه على صدره:

ـ أحب قيادة الخراتيت في حدائق الحيوان.

توبة يرفع فأسًا في وجهي:

ـ مَن أنت؟! أنا لا أعرفك.

وفايز أبو اليزيد يقف بعيدًا، يمسك بيديه العاريتين جنينًا يصرخ والدم يلوث جسمه المكرمش:

ـ أسمي هذا ميلادًا فريدًا.

أركض بعيدًا، أتعثر في حجر غير موجود.

ثم أسقط في بئر عميقة بلا قرار.

***

ـ افتح عينيك.

أفتحهما ببطء شديد، وأنا أستعيد إدراكي ببعض الصعوبة.

ـ مرحبًا بك يا عزيزي.

الصوت أعرفه، أمجد هيكل بالطبع.

بعض الضباب في مجال الرؤية، ثم...

الدكتور أمجد كما أعرفه، والمكان يشع بالبياض المشع.

الابتسامة الواثقة إياها.

ـ أخبرني أنك تستطيع الاعتدال في جلستك حتى يرقص قلبي طربًا.

تطاوعني أطرافي في ليونة عجيبة بمنتهى البساطة.

والحيرة.

وجه الدكتور أمجد يطفح بالبِشر:

- مبارك، لقد نجحت العملية بنسبة مائة في المائة.

أنا أرتدي ملابسي البيضاء، لكن شيئًا ما تغير في جسدي، يدي ليست هي يدي، وذراعي ليست هي ذراعي، و...

نظرت إلى الدكتور أمجد طالبًا:

- مرآة!

رباه! هذا ليس صوتي، ليس هو بالمرّة.

لم يكن هذا الصوت الغليظ حتى في أبعد أيام عنفواني وشبابي.

- بالطبع.

كان جاهزًا بها، فرفعها في وجهي وهو يتابع:

- يا سيد ميلاد.

وشهقت عندما رأيت رأس الشاب الأصلع تمامًا، والشامة على الخد الأيسر.

وكذلك فعل الشاب الذي في المرآة.

انفعاله يشبه انفعالي، وشهقته متزامنة مع شهقتي.

إلى حد التطابق!

4

«الطعام الشهي.

الحب والرومانسية.

السفر إلى بلاد بعيدة.

افتقدت كل هذه الأشياء؟

«حياة جديدة» تعدك بما هو أكثر من هذا».

***

الربيع أزهار، وجمال.

هبطت من سيارة الأجرة ذات اللونين الأبيض والأسود أمام بوابة قصري ـ قصر فايز أبو اليزيد سابقًا إن لم أعتبرنا شخصًا واحدًا ـ لأشم عبق البنفسج وعبير الياسمين، ولينعم بصري برؤية الورود البلدية المتفتحة في أحواض الحديقة عبر البوابة.

إن توبة يجيد عمله حقًا، وإن كنت أشم هذه المرّة بأنف آخر، وأرى بعينين مختلفتين، وأحس بقلب آخر.

نقدت السائق أجره الضخم ـ على توصيلي من المطار إلى هنا ـ بالدولار، ولما رأيته سعيدًا نفحته بالمزيد عن رضا

وطيب خاطر، اليوم أنا أريد أن أسعِد كل من أراه، الجميع فيما عدا شخصًا واحدًا بالطبع.

انطلقت السيارة بعيدًا، واقتربتُ من البوابة بالتيشيرت الرياضي الذي أرتديه فوق سروال قصير يجاوز أسفل ركبتي بمسافة وجيزة، على عيني نظارة شمس ذات ماركة عالمية معروفة، وعلى كتفي الحقيبة الصغيرة التي لا تحوي الكثير من الحاجيات.

كدت أضغط زر الجرس من الخارج عندما أتاني الهتاف المباغت:

ـ مَن هناك؟

هذا توبة، يتجه نحو البوابة من الداخل مهرولًا، وهو يرتدي جلبابًا كحليًا متسخًا بالطين وبالتراب.

لن يعرفني، هذا بديهي، ولن أستطيع مصارحته بأني أعرفه، برغم شوقي الشديد لذلك.

هتف بي زاجرًا وهو يقف أمامي، تفصل بيننا قضبان البوابة السوداء:

ـ من تريد يا أستاذ؟

سألته وأنا أتشرب ملامحه بعيني الجديدتين:

- أنت البستاني هنا؟

- أجل.

لكنته الريفية المحببة، وبراءة الأطفال في عينيه.

- أنا المالك الجديد لهذا القصر.

هتف بي منزعجًا:

- ماذا؟ غير ممكن! غير معقول! اذهب بعيدًا!

سألته مستغربًا:

- ألم يبلغكم نبأ وفاة فايز أبو اليزيد في أثناء العملية الـ...؟

قاطعني دون أن يفلح في السيطرة على دهشته وانزعاجه:

- بلغنا الخبر منذ أسبوع تقريبًا عن طريق ابن أخيه، لكنه لم يخبرنا بشيء عن بيعه للقصر، أنت تكذب حتمًا أيها الشاب الصغير.

كدت أخبره بكل شيء، لكني فكرت أن عقليته لن يمكنها استيعاب الأمر، وحتى لو استوعبه فسيزيد هذا من شكوكه في كوني أكذب.

أحطت قضيبًا معدنيًا بأصابعي وأنا أهتف به مؤكدًا:

- أنا ميلاد فريد، صاحب هذا القصر بالأوراق الرسمية،

ليست مشكلتي أن شوقي لم يخبركم بهذا.

ضيّق توبة عينيه متذاكيًا وهو يسألني:

ـ هل تعرف شوقي بك؟

ـ أعرفه، أليس ابن شقيق المرحوم فايز أبو اليزيد؟

ـ صحيح، لكن...

عاد يتذاكى.

ـ كيف اشتريت القصر من المرحوم وقد تُوفِّي في الخارج؟

ليس هذا وقت المهاترات واختلاق القصص يا توبة، فيما بعد بالله عليك!

ـ أدخلني يا توبة، إن جميع الأوراق الرسمية معي في هذه الحقيبة.

وكان نبيهًا:

ـ كيف عرفت اسمي أيها النصّاب؟

أخرجت له الأوراق من جيب الحقيبة ولوحت بها في وجهه هاتفًا:

ـ هذا عقد شرائي للقصر، وهذا توقيع صاحبه القديم في خانة البائع.

المزيد من التذاكي والحماقة:

ـ لن تدخل حتى يحضر شوقي بك شخصيًّا.

عِيلَ صبري بكل أسف:

ـ إن لم تدخلني الآن فسأدخل بقوة الشرطة.

أخافته الكلمة، لكنه تماسك وتمسك بموقفه:

ـ أعلى ما في خيلك اركبه.

ـ انتظر يا توبة، أرني الأوراق من فضلك.

الحمد لله، لقد هبط سرور من أعلى لا لشيء إلا لينقذني.

ـ تفضل.

ناولته الأوراق عبر الفراغات بين القضبان، فأخذها ونظر فيها بسرعة:

ـ الأوراق سليمة مائة في المائة، تفضل يا أستاذ ميلاد.

ثم هتف بتوبة الواقف كتمثال أصم:

ـ المفاتيح يا توبة.

امتثل توبة صاغرًا، وفتح لي البوابة في تذمر.

ـ أين أنت يا فايز باشا لترى من سيحل محلك!

مسكين أنت يا توبة، تظنني ميتًا وأنا أقف أمامك بوجه جديد وجسد جديد لا أكثر.

دلفت إلى قصري الذي أوحشني كثيرًا، وتأملته في وجد قبل أن ألتفت إلى سرور:

ـ شكرًا يا سـ....

قاطعني قبل أن يزل لساني بنطق اسمه:

ـ سرور يا سيدي. «سرور زرزور».

نظرت إلى زيه الرسمي سائلًا:

ـ أنت السائق هنا؟

ـ وهناك أيضًا يا سيدي.

ضحكت لدعابته، وأشرت إلى سيارتي «اللنكولن» التي أعرف أنها سيارتي:

ـ وهذه سيارتي؟ أقصد سيارة المرحوم؟

أجابني هازلًا:

ـ أجل، ألا تشبه حقًا سيارة مرحوم؟

لم أضحك، وإنما علت البسمة وجهي الجديد، وأنا أمر

بأصابعي على السيارة كأني أعيد التعرف عليها.

إنها سيارة رجل ميت بالفعل، تابوت أسود كبير وأنيق.

فكرت: أشياء كثيرة لا بد أن تتغير في عهد «ميلاد فريد».

وقررت: أشياء كثيرة.

***

ألقيت بكل زجاجات وعلب الأدوية من النافذة إلى الحديقة الخضراء.

ألقيت بها في غل، كأني أنتقم.

راقبني سرور في دهشة، لكنه ظل صامتًا وهو يراني أذرع غرفتي القديمة روحة وجيئة، مرددًا كأسطوانة مشروخة:

ـ أشياء كثيرة لا بد أن تتغير، أشياء كثيرة!

ثم أقف هارشًا في صلعتي، وأعيد المشي هنا وهناك مكررًا الجملة وضاربًا قبضتي في راحتي، ثم أقف وأهش، وهكذا دواليك.

قال أخيرًا وقد ظن فيَّ الجنون الأكيد:

ـ اهدأ قليلًا يا سيدي، وسنغير كل ما تريده.

أشرت إلى ما حولي:

ـ كل هذا الأثاث لا بد أن يتغير.

ـ أثاث الغرفة؟!

ـ بل أثاث القصر كله!

نظر إليّ ليستيقن من جنوني مرة أخرى، قبل أن أهتف في تمرد:

ـ لا أريد شيئًا قديمًا كلاسيكيًا، أريد أثاثًا حديثًا، ما بعد الحديث أيضًا.

ثم هتفت به بنفس النبرة:

ـ وأنت، اخلع زيك الرسمي هذا. لا أريد أن أراك به ثانية.

سألني مرتابًا:

ـ هل أنا مفصول من قبل أن أعيّن يا سيدي؟!

لوحت بكفيّ في وجهه:

ـ كلا، كلا، كلا. ستعمل سائقًا لديّ بمرتب مضاعف، ولكن بملابس كالتي يلبسها بقية الناس.

أشرق وجهه وهو يهتف:

ـ رائع، سأكون واحدًا من الناس مرة أخرى إذن.

ـ والسيارة سأغيرها.

ـ سيارة المرحوم؟!

ـ أجل، سألقيها في أقرب مقبرة للسيارات وأركب بدلًا منها سيارة رجل حيٍّ.

ونظرت إلى السيارة، عبر النافذة المطلة على الحديقة:

ـ أشياء كثيرة لا بد أن تتغيرا!

***

صرخة رعب، ثم...

ـ احترس يا سيدي.

هتف بها سرور ثم انكمش في جلسته بجواري داخل السيارة التي ابتعتها في ظهيرة نفس اليوم، «الفيراري» الحمراء المنزوعة السقف!

كنت أقود بسرعة هائلة في أكثر شوارع وسط البلد ازدحامًا، مستمتعًا بحياتي الجديدة إلى أقصى درجة، وكدت أصطدم بسيارة في تقاطع لولا أن ضغط سائقها الفرامل في قوة، كنت أنا المخطئ فاحتملت سبابه من خلفي بلا مبالاة.

لهث سرور وهو يستنشق أنفاسه:

ـ كدنا نموت!

ضحكت وأنا أنظر إليه بملابسه الجديدة التي ابتعتها له من أفخم المتاجر:

ـ من يتحدث عن الموت هنا؟

قال وهو يضرب صدره بكفه:

ـ اتركني أقود، أتوسل إليك!

قلت وأنا أضغط دواسة الوقود أكثر:

ـ أنا مشتاق للقيادة، لم أقد سيارة منذ ثلاثين عامًا تقريبًا.

فوجئت به يسألني مندهشًا:

ـ أي قبل أن تولد؟!

صمتَ في توجس، ثم انفجرتُ في ضحكة مفتعلة، قبل أن أسأله:

ـ ألست جائعًا؟

ـ أنا دائمًا جائع!

ـ سنتناول الغداء في أفخم المطاعم، لكن...

انعطفت بالسيارة في شارع جانبي على نحو مفاجئ:

ـ أمامي مهمة عاجلة لا بد من إتمامها أولًا.

ليصرخ سرور في رعب من جديد، ولأضحك أنا في هستيريا جنونية.

***

دفعت الباب بقدمي، وخلفي سرور وجيش من الموظفين والموظفات ورجال الأمن، لأرى شوقي الوغد جالسًا خلف مكتبي ـ مكتب فايز أبو اليزيد ـ مرتديًا ربطة عنق سوداء على سبيل الحداد أو الخداع، وفي يده قلم يوقع به الأوراق الممدودة إليه في ملف تحمله هالة؛ سكرتيرة فايز التي تذكره بأحفاده.

ـ ما هذا الهرج؟!

هتف بها الوغد مقطبًا وهو يراني أدلف إلى حجرة مكتبه دون استئذان، فيما يحاول بعضهم منعي عبثًا، خصوصًا أن سرور كان يقوم بعمله كما يجب.

ـ مَن أنت؟!

يرفع نحوي سن القلم ليشير إليّ في عنجهية، ودون مقدمات أجذبه من ربطة عنقه السوداء لأوقفه، ثم أجذبه نحوي، متجاهلًا صيحات الاستهجان من خلفي، ونظرات

الهلع في عيني هالة الكَحيلتين.

اتسعت عينا الوغد خوفًا، وقربته أنا من وجهي إلى حد الملامسة، لأسأله ضاغطًا على أسناني في قوة:

ـ بأي حق تجلس على هذا المكتب أيها الـ... وغد؟!

يهتف لاهثًا:

ـ إنه مكتب عمي الذي ما...

أقاطعه قبل الحرف الأخير متأتئًا في نفي:

ـ خطأ يا عزيزي، هذا ليس مكتب عمك.

وأشير بإبهامي الحر إلى صدري:

ـ هذا مكتبي أنا!

يتحول صياح الاستهجان إلى همهمات ذهول وهمسات، ويهتف شوقي بي:

ـ ماذا تقول؟!

أخرج الأوراق من جيبي وأضعها أمام عينيه الجاحظتين:

ـ انظر، لقد تنازل لي عن كل ممتلكاته بيعًا وشراءً بأوراق رسمية قبل أن يموت بعدة أشهر، هل تعرف القراءة؟

ينظر إلى السطور ولا يرى شيئًا إلا وجهي، فيصرخ:

ـ أنت كاذب! كاذب!

هنا جنت على نفسها «براقش»، ووجدت الفرصة التي أنتظرها لألكمه في أنفه بكل ما في نفسي من كراهية لوضاعته وحقارته.

تراجع إلى الوراء ليصطدم ظهره بالحائط، وأطلق صيحة ألم قبل أن يعاود هتافه الأرعن:

ـ أنت مزور لئيم! مدعٍ كاذب!

وجدث هالة تتناول الأوراق مني، وتعبر عيناها على السطور في سرعة، لتخفض عينيها نحوه في النهاية، وتقول:

ـ الأوراق سليمة مائة في المائة يا أستاذ شوقي.

لهث شوقي كذئب مهزوم وهو يمسح الدم عن أنفه بكُم قميصه، فيما التفتت هالة إلى الجمع الغفير الواقف أمام الباب هاتفة:

ـ الأستاذ ميلاد فريد هو المالك الجديد لمجموعة فايز أبو اليزيد الاقتصادية.

المزيد من صيحات وهمسات الذهول، ثم صراخ شوقي الذي لم يقوَ على النهوض بعد:

ـ كاذب! كاذب! أخرجوه حالًا! أين الأمن؟!

كاد رجُلا أمن يدخلان ليمسكاني، فتحفزت عضلاتي لقتال لم أخض مثله في حياتي من قبل، بينما هتفت هالة في صرامة:

ـ أي اعتداء على السيد ميلاد سيُعد اعتداء على صاحب المؤسسة شخصيًّا.

توقف رجُلا الأمن على مسافة قريبة مني وقد صدمهما ما قالته، ليصيح بها شوقي:

ـ أيتها الـ...

وجعلته نظرة قاسية مني يبتلع لسانه.

هتف أحد الموظفين الذين يسدون الباب في تردد:

ـ هل أنت واثقة مما تقولين يا هالة؟

ألقت نحوه بالأوراق قائلة:

ـ تأكد بنفسك!

نظر الموظف في الأوراق، تحلق من حوله الناظرون، ثم أومأوا برؤوسهم دلالة الاقتناع، ورفعوا عيونهم نحوي في ترحيب.

أعرف أن وجودي هنا ليس إلا إنقاذًا لهم من وغد زنيم.

أشرتُ إلى شوقي المُتكوم في الركن كشيء قبيح:

ـ أخرجوه فورًا.

اتجه نحوه رجُلا الأمن وقد انساقا لرأي الأغلبية، برغم صراخ شوقي فيهما:

ـ أيها الغبيان! أنا صاحب هذا المكان! أنا الوريث الوحيد لعمي! سأفصلكما!

إلا أنهما تعاونا على حمله برغم المقاومة، ولما اتجها به إلى الخارج التفت إليّ منذرًا ومتوعدًا:

ـ سأريك أيها النصّاب.

هتف به سرور وهو يمر بجواره محمولًا:

ـ احذر لئلا تقع.

وانفجر الواقفون بالضحك، فشاركتهم قبل أن أنظر إلى هالة بامتنان، وأدرك أنها جميلة حقًّا.

ذلك النوع من الجمال الذي لم ألحظه وأنا فايز أبو اليزيد الكهل المتداعي.

الجمال الذي يجعل القلب يخفق، والعين تختلج، والروح

ترفرف في سماء أخرى.

- أشكرك يا...

تبتسم أعذب ابتسامات الكون وهي تقول:

- هالة... هالة بديع.

أحلق في فضاء عينيها الكَحيلتين، أنسى الوقت والمكان، حتى يوقظني هتاف سرور:

- ألم تعدني بالغداء بعدها؟

***

لحوم، ودجاج، وأسماك، وأرز، وشوربة، وسلطات، وكل ما تشتهيه المعدة الجائعة، وأنا وسرور فقط.

سرور الذي هتف مذهولًا:

- كأنك لم تأكل منذ قرن.

هذا صحيح نسبيًا يا عزيزي.

قلت وأنا ألتهم ما لذ وطاب، معوضًا حرمان السنين الطويلة:

- ظننته لن يكفي.

يصيح مذهولًا:

ـ لن يكفي مَن؟! إنه طعام قبيلة كاملة لمدة أسبوع!

قلت له وأنا أنقض على فخذ الضأن:

ـ ذكّرني بأن نأخذ طعامًا لتوبة.

توقف عن الطعام، ونظر إليّ نظرة لن أنساها:

ـ قلبك كبير يا سيد ميلاد، ذكّرتني بالسيد فايز رحمه الله.

وجدتها فرصة للّهو:

ـ هل كنت تحبه يا سرور؟

ـ جدًّا.

قالها بصدق، فشعرت براحة غريبة.

ـ لكنه استراح، فقد عانى كثيرًا في أيامه الأخيرة.

لو تعرف الراحة التي أنا فيها الآن يا عزيزي.

لو تعرف.

ـ أخبرني يا سرور، هل تعرف هالة بديع جيدًا؟

ـ السكرتيرة؟

ـ أجل، هل تعرف عنها ما يكفي؟

غمزني:

- يكفي لماذا؟

- هل هي مخطوبة؟ مرتبطة عاطفيًا؟

- ذكّرتني بأول أيامي في الجامعة عندما أحببت عشر فتيات دفعة واحدة!

- أتحدث بجدية الآن يا سرور.

- لا أعلم عنها الكثير، لكني سأعرف لك كل ما تريد معرفته.

قلت وأنا أجرع من زجاجة المياه الغازية:

- يحسن أن تعلم قبل أن نسافر.

تقف اللقمة في حلقه، بعد دقة فوق الظهر وجرعة ماء:

- نسافر؟ إلى أين؟

- إجازة في مكان بعيد.

- إجازة ونحن لم نعمل بعد؟!

- أحتاج إلى مكان أستعيد فيه نشاطي وحيوتي.

- «القناطر الخيرية» مثلًا؟

- أعني، هاواي، بانكوك، نيس، مدريد.

ـ وأنا سأسافر معك؟

ـ أنت من الآن ذراعي اليمنى في كل شؤوني.

ـ لم أكن أعلم أن قلبك كبير إلى حد التضخم.

ـ توبة أيضًا يمكنه أن يأتي معنا.

ـ سيرفض بالطبع، إنه لا يستطيع ترك القصر أبدًا. أشك أنه سيوصي بأن يدفن في الحديقة بعد وفاته.

ويعلق سرور في حرج احترمته:

ـ لكن تكلفة ذهابي ستكون عالية يا سيدي، الأفضل أن أبقى أنا.

قلت باسمًا وأنا أتجشأ:

ـ النقود هي آخر ما أفكر فيه يا سرور، لديّ الكثير منها ولن أتركها لأحد بعد وفاتي.

أعرف رجلًا ظل طوال عمره يجني النقود ومات دون أن يمتع نفسه، فماذا ربح؟

وابتسمت للخاطر.

أنا الآن أسعد مخلوق على وجه الأرض.

***

صراخ رهيب.

طلقات رصاص.

قدمان تركضان فوق أسفلت لامع.

نفير سيارة شرطة وصوت احتكاك الكوابح.

صراخ.

دماء.

وجه نحيل بلحية دائرية:

ـ قف مكانك.

وجه آخر مكتنز بندبة على الجبهة من أثر جرح قديم، والعينان تختفيان خلف نظارة شمس معتمة:

ـ اهرب.

امرأة شقراء تكسو المساحيق وجهها ذا الملامح الملتاعة:

ـ أين ستذهب؟

جثة تسقط فوق الأرض.

أصداء.

صراخ.

دماء.

ثم...

***

ـ لا!

ـ ما بك يا سيد ميلاد؟

سرور جالس بجواري على مقعد الطائرة الآتية من «نابولي»، بعد أسبوع من الاستجمام والمرح والـ...

سرور يسألني في قلق، وأنا ألهث وأشعر بقطرات العرق تنداح فوق وجهي.

أنظر من نافذة الطائرة إلى أكوام السحاب بالأسفل.

ولا أرد.

أنا لا أعرف ما بي.

لكني لست بخير.

لست بخير أبدًا!

5

صراخ.

دماء.

وجوه تتعذّب:

ـ الرحمة!

أشباح جاثية في استجداء:

ـ اتركني أعيش!

دائرة كالتي تراها في مناظير بندقيات القنص، مصوبة نحو رجل يهبط من سيارة:

ـ إياك أن ترتجف، الرجفة تعني أنك لن تصيب الهدف.

الدائرة تغرق في الدم اللزج.

الوجه النحيل ذو اللحية الدائرية غاضب حتى الاحمرار:

ـ سأنال منك!

الوجه المكتنز ذو الندبة والنظارة المعتمة:

ـ مهمة جديدة.

الشقراء الملتاعة:

ـ لنهرب معًا بعيدًا.

ووجه شبحي الملامح، لا يظهر منه إلا الشعر الأبيض الطويل والسيجار الثخين:

ـ لا تتأخر.

ثم صراخ ودماء ونفير وشرطة وكوابح ورصاص واصطدام.

ونظرة فزع أخيرة.

قبل أن...

***

حرارة الصيف خانقة، والرطوبة لا تطاق.

ـ أوهام، هذه محض أوهام.

قالها الدكتور أمجد، وهو يطوح ذراعه إلى الخلف، بينما تنشقت أنا وقلت محاولًا السيطرة على اضطرابي العارم:

ـ لكنها أحلام تتكرر باستمرار مريب يا دكتور. كوابيس تحرمني من النوم المريح.

كنا في مكتبه الذي ما زال تحت التجهيز، تمهيدًا لافتتاحه قريبًا كفرع إقليمي لمؤسسة «حياة جديدة»، لذا فلم يكن

دودة الكتب حرامية

المكان يسمح بالهدوء أو الاسترخاء.

ـ عقلك الباطن هو الذي يصنع هذا الهراء.

قالها في ازدراء كأنه يسبني، واستغربت أنا وقع الكلمة على أذني:

ـ عقلي الباطن؟!

ـ أجل، عقلك الباطن الذي هو جزء من هويتك، هويتك التي هي جزء من مخك، مخك الذي قمنا بنقله إلى هذا الجسد الجديد الماثل أمامي في صحة وعافية يحسد عليهما.

قال كل هذا في نفاد صبر بيِّن، فترددت هنيهة قبل أن أقول:

ـ لكن الحلم يتكرر بنفس التفاصيل. نفس الوجوه والأصوات و...

ضرب سطح مكتبه بقبضته، وهو يهتف بي زاجرًا:

ـ لا تستسلم لألاعيب عقلك الباطن هذه وإلا أدت بك إلى جنون محقق.

أخافتني مقولته:

ـ جنون؟!

هز رأسه بالإيجاب:

ـ أنت فقط لم تعتد على وضعك الجديد برغم مرور كل هذه الأشهر، هناك مرحلة عدم انسجام مؤقت بين روحك وجسمك، اضطرابات عارضة أنت وحدك من تملك قهرها.

سألته متلهفًا:

ـ وكيف ذلك يا دكتور؟

أجابني، وقد أراحته لهفتي على ما يبدو:

ـ ببعض الإرادة والرغبة في ذلك. عش حياتك، انغمس في نشاطات جمة، مارس الرياضة، تناول الأطعمة التي تحبها، سافر بعيدًا.

قلت واجمًا:

ـ فعلت كل هذا.

واصل:

ـ أحب، تزوج، وأنجب أولادًا أيضًا.

صدمتني الفكرة:

ـ أنجب أولادًا؟!

هز كتفيه ليقول في بساطة جمة:

حرامية الكتب دودة

- أجل، لقد حُرمت من الأولاد في حياتك السابقة، ومن حقك أن تنجب أولادًا في حياتك الجديدة.

ترددت أنفاسي في اضطراب:

- أولادي؟

واضطربت أنفاسي في تردد:

- أم أولاده؟!

***

موسيقى ناعمة، وشمعة في منتصف الطاولة، وعشاء رومانسي في مطعم من الدرجة الأولى، حيث أجلس أنا في حلة «سموكن» على طرف الطاولة، بينما تجلس هالة تحيطها هالة من النور في ثوبها البسيط على الطرف الآخر.

- لم أكن أحلم بأن أدخل هذا المكان من قبل.

قالتها بلا خجل، وقد بدت في بساطتها أكثر رقيًا من المكان وروّاده اللامعين.

- وأنا لم أكن أحلم بأن أدعو إنسانة استثنائية مثلك على العشاء.

ابتسمت في خجل، وقالت:

روضة الكتب حرامية

ـ مجاملة رقيقة.

قلت في صدق:

ـ ليست مجاملة، إنها الحقيقة.

قالت ووجنتاها تتخضبان بحمرة جميلة:

ـ أنا التي لم أحلم بأن أكون موضع اهتمام شخص مثلك.

سألتها بتلقائية شديدة، ولهفة أشد:

ـ وهل تعرفينني حقًّا يا هالة؟

نظرت نحوي، وقالت:

ـ أظن أني أعرفك.

كدت أنهار وأطلب منها أن تتزوجني على الفور، عندما تصاعد نغم الساكسفون فجأة بلحن أغنية «جورج مايكل» الشهيرة «همسة لا مبالية»، فوجدت نفسي أدعوها:

ـ ترقصين؟

أجابت دعوتي ببسمة ساحرة، ونهضت معي إلى حلبة الرقص، لأرقص كما لم أرقص في حياتي من قبل.

«لن أرقص ثانية.

الأقدام المذنبة لا إيقاع لها.

برغم أنه من السهل أن أتظاهر.

لكني أعلم، أن هذا لن يخدعك!».

***

ـ سرور، هل ما زلت مستيقظًا؟

لا أنام وحدي في الغرفة على الإطلاق هذه الأيام، ربما خوفًا من الكوابيس المتكررة، وربما ألتمس في نوم سرور معي على الأريكة الجديدة بعض المؤانسة.

ـ تقريبًا.

من موقعي على السرير المريح أسأله:

ـ ما رأيك في هالة؟

ـ كنت أعرف أنك ستحدثني عنها.

وسمعت صوت تقلبه على الأريكة:

ـ من واقع سؤالي عنها فهي فتاة ممتازة.

ـ قل لي بصراحة: هل تظن أنها تحبني؟

خلط الجد بالهزل كعادته:

ـ هذا ما نسيت أن أسأل عنه بشأنها.

كنت قد شردت وأنا أواصل السؤال:

ـ أم تحبه هو؟

أتاني صوته المتعجب:

ـ هو مَن؟!

شاردًا تابعت:

ـ السؤال المُحير أكثر هو: مَن منا الذي يحبها؟

وتابعت في عقلي: فايز أبو اليزيد؟ أم ميلاد فريد؟

سألني سرور وقد حيرته كلماتي:

ـ هل أنت على ما يرام، سيد ميلاد؟

أجبته بتردد أنفاسي المنتظمة وكأني ذهبت في النوم، فسمعته يتقلب على الأريكة ويغمغم لنفسه:

ـ نعم، أعتقد أنك في حاجة ماسة للنوم بالفعل.

النوم!

أي نوم يا سرور وهالة تقض على مضجعي من ناحية، والكوابيس إياها من ناحية أخرى؟!

وكأنه مكتوب على جبيني ألا أنعم بالراحة أبدًا سواء في حياتي القديمة أو الجديدة!

***

قالت هالة بعد أن فرغت من توقيع البريد الصباحي:

ـ هناك ضيفة في الخارج.

رفعت إليها عينين منهكتين من قلة النوم:

ـ مَن؟

ـ تقول إنها صحفية.

عقدت حاجبي في استغراب:

ـ صحفية! ماذا تريد؟

هزت هالة كتفيها وهي تقول:

ـ لا أدري. لكنها تحاول أخذ موعد منذ مدة طويلة، وتصر اليوم ألا تغادر المبنى قبل أن تقابلك ولو لخمس دقائق.

كأنه ينقصني المزيد من الصداع!

ـ حاولي صرفها بأي وسيلة.

ـ حاولت دون جدوى، سأدخلها واصرفها أنت بمعرفتك.

تنهدت، واستسلمت لما تقول، لأجد أمامي بعد قليل امرأة جميلة، رقيقة، مهذبة، ترتدي ملابس محتشمة، وتجلس أمامي مخرجة من حقيبتها جهاز تسجيل صغيرًا وآلة تصوير.

- صباح الخير يا سيدي. أمنية صلاح، من جريدة...

لم أكن مستعدًّا للتبسط معها، أو للتظاهر باللياقة واللباقة:

- ماذا يمكنني أن أقدِّم لك يا سيدتي؟

- قهوة زيادة.

تبًّا، لقد فهمت جملتي على نحو خاطئ تمامًا، يجعلني مضطرًا لإجابة طلبها.

- بماذا يمكنني أن أخدمك يا سيدتي؟

هذه صيغة أفضل لا يمكن فهمها على نحو خاطئ.

- أنا أبحث عن الحقيقة يا سيدي.

- أي حقيقة؟

قالت أمنية دون التفاف أو مناورة:

- حقيقة ما يحدث في إمبراطورية «أبو اليزيد» التي انقلبت إلى إمبراطورية «ميلاد فريد» فجأة بين عشية

وضحاها.

قلت وأنا أقاوم الصداع الذي تسلل في سرعة وكفاءة إلى رأسي:

ـ لقد ذهب فايز أبو اليزيد تاركًا لي كل شيء.

سألتني دون التفاف أو مناورة:

ـ لماذا؟

ـ لماذا ماذا؟!

ـ لماذا أنت بالذات؟ المفترض أن هناك وريثًا شرعيًا له، هو ابن أخيه «شوقي أبو اليزيد»، الذي يرفع عليك الآن عددًا من قضايا نصب وتزوير في أكثر من محكمة.

هتفتُ وأنا أقاوم الصداع:

ـ ليفعل ما شاء، أوراقي سليمة تمامًا.

واصلت أمنية هجومها الكاسح عليّ:

ـ السؤال هو: مَن أنت يا سيد ميلاد؟ وما علاقتك بالمالك السابق للمجموعة، فايز أبو اليزيد؟ هل اشتريت منه ممتلكاته كلها، أم تنازل لك عنها دون مقابل؟ وإن كنت قد اشتريتها فأين ذهبت النقود التي دفعتها له؟

كلا، ما عاد هذا محتملًا.

ـ أين فايز أبو اليزيد أصلًا الآن؟ مات؟ أين جثته؟ ولِمَ لمْ يشيَّع جثمانه كأي فقيد عادي؟! حي؟ أين هو إذن؟

هتفت بها ورأسي يكاد يتفتت تحت وطأة الضغط المتواصل:

ـ لا أجوبة لديَّ.

قالت دون أن تأخذها بي شفقة:

ـ هذه ليست أسئلتي وحدي، إنها أسئلة الشارع الذي فوجئ بكل ما يحدث.

أشرت نحو الباب وأنا أمسك رأسي بيدي الثانية:

ـ يمكنك الانصراف.

رفعت آلة التصوير نحوي قائلة:

ـ صورة واحدة إذن تشفي غليل القُراء لرؤية الرجل الذي...

صحت في فزع، وأنا أضع راحتي أمام العدسة المشهرة نحوي:

ـ كلا، لا صور!

بهتت أمنية، وسألتني:

- لماذا؟!

لهثت وأنا أقول:

- لست من هواة الظهور.

عقدت حاجبيها المزججين في عناية وهي تسأل:

- ما الذي تخفيه وراء ظهرك، سيد ميلاد؟

- لا شيء.

ثم ضغطتْ زر الدكتافون:

- هالة، تعالي واصطحبي السيدة أمنية إلى الخارج من فضلك.

ظلت أمنية ترمقني بنظرات نارية حتى اصطحبتها هالة كما أمرتها، وانغلق الباب عليَّ لأغرق في دوامات الصداع العنيف.

هناك خطأ ما.

شيء لا أفهمه.

شيء أحسه ولا أستطيع التعبير عنه.

ربما لو أنني نمت قليلًا، ربما أستطيع التفكير بعدها بهدوء

أكثر.

ضغطت زر الدكتافون من جديد:

ـ انصرفت الصحفية المزعجة؟

صوت هالة:

ـ أجل، وكانت حانقة للغاية.

قلت متحاملًا على ألمي الممض:

ـ اجعلي سرور يأتي بالسيارة ليلتقطني من أمام باب المؤسسة.

صوت هالة مفعم بالقلق:

ـ هل أنت على ما يرام؟

ـ بعض الصداع فقط، قليل من النوم وسأكون على ما يرام.

هبطت بعدها لأجد سرور جالسًا أمام عجلة قيادة «الفيراري» المكشوفة، فقفزت دون أن أفتح باب السيارة إلى جواره، وانطلقنا دون أن أنتبه تمامًا للكاميرا اللعينة التي تلتقط عدستها صورًا كثيرة لي من بعيد.

الصور التي سوف تفتح عليّ أبواب جهنم، الحمراء!

6

الدم، الرعب، الرصاص، الصرخات.

الليل والتصادم.

والوجوه نفسها!

***

ألقى الدكتور أمجد بنسخة الجريدة الأسبوعية، التي تحتل صفحتها الأولى صورتي وأنا أقفز داخل «الفيراري» الحمراء، مع مانشيت أحمر مثير «قفزة الرجل الغامض!» على سطح مكتبه وهو يهتف في ثورة:

ـ كارثة! ظهورك بهذا الشكل يعرض الأمر كله للفشل الذريع.

كنت أجاهد للتماسك، عيناي تحيطهما هالتان من السواد، تغزوهما عروق الاحتقان، ويداي ترتجفان كأنهما يدا المرحوم فايز أبو اليزيد.

قلت ضاغطًا على ألمي:

ـ لم يكن من المعقول أن أختفي للأبد.

زعق كالمصاب بمس من الجنون:

ـ الاتفاق كان على الظهور في أضيق الحدود، بين معارفك

وموظفيك وأتباعك. لم نتفق على أن تسعى للشهرة فوق صفحات الجرائد الأولى.

ضغطتُ على أعصابي أكثر وأكثر:

- لم أسعَ لشيء، إنها الصحفية التي...

قاطعني وهو يقرأ اسمها:

- نعم، أمنية صلاح. صحفية مشاغبة لا تكف عن إثارة القلاقل.

ثم إنه نظر نحوي مردفًا في حسم:

- أقترح أن تختفي لفترة حتى يتم نسيان الأمر، أو نجد حلًّا لهذه المصيبة التي لم تكن في الحسبان.

التهكم ممتع عندما يمتزج بالصداع القاتل:

- هل أرتدي طاقية الإخفاء أم ماذا؟

- سافر بعيدًا، إلى القطب الشمالي إن استطعت، ولا تعد إلا عندما أتصل بك.

وددت لو مانعته، لكنه كان يتحدث بجدية صارمة ألجمت لساني، بالإضافة إلى هذا الصداع اللعين، القاتل.

***

ابتلعت ثلاثة من أقراص تسكين الألم، ثم نظرت إلى صورتي المنعكسة في مرآة سطح المكتب الصغيرة.

تُرى، هل أصبحت كارهًا لوجهي الجديد فجأة، بكل ما يحمله من شباب وغموض وإرهاق وأرق وصراع داخلي وشامة على الخد الأيسر، أم أن وجه فايز - وجهي - قد أوحشني؟

نظرت إلى تذكرتي سفرنا - أنا وسرور - إلى النرويج، أقرب بلاد أوروبا إلى القطب الشمالي، وتنهدت منكسًا رأسي فوق ساعدي المفرودين على سطح المكتب.

أتمنى أن أسقط نائمًا لولا أن الكوابيس تطاردني بشكل مُلح هذه الأيام، ولا أغفو قليلًا مغلقًا عينيّ إلا وهاجمتني بضراوة، نفس الأشكال والأصوات والروائح والتفاصيل كأنه فيلم مكرر أحفظ مشاهده وأبطاله، وإن كنت أجهل عنوانه ولا أفهم مضمونه.

بلغت كوابيسي من السوء حدّ أنها أصبحت تطاردني حتى وأنا مستيقظ في هيئة أحلام يقظة، وأمجد هيكل اللعين لا يهمه شيء قدر ظهوري على الصفحة الأولى، وما زال يعزو كل ما أكابده إلى عدم انسجام «مؤقت» بين جسدي وهويتي.

أفتقدك بشدة يا فايز، يا وجهي القديم!

صوت هالة عبر الدكتافون:

ـ ضيف يريد مقابلتك، سيد ميلاد.

ضغطت زر التحدث لأقول في صعوبة:

ـ لن أقابل أحدًا.

ـ يقول إنه ضابط شرطة.

قلت مستنكرًا:

ـ ضابط؟

أكدت:

ـ أجل.

ثم كأنها تنظر في بطاقة وتقرأ منها:

ـ المقدم عادل حسين، أمن دولة.

عاد الصداع يلتهم خلايا مخي الرمادية برغم المسكنات، ووجدت نفسي أقول لها:

ـ أدخليه.

بعد هنيهة انفتح الباب، ودخل رجل يرتدي ملابس مدنية

صيفية خفيفة، وتعلو شفتيه ابتسامة لها ألف معنى لا أقل:

ـ مساء الخير، سيد ميلاد.

شهقت في فزع وأنا أتراجع في مقعدي كالملدوغ، بينما الباب ينغلق من خلفه:

ـ ما الأمر؟

إنه هو، الوجه النحيل ذو اللحية الدائرية يسألني:

ـ هل أفزعتك رؤيتي لهذه الدرجة؟

أحد الوجوه التي تطاردني في أحلامي الكابوسية، أو كوابيس أحلامي!

رفعت نحوه سبابتي، وأنا عاجز عن النطق:

ـ أنت... أنت...

يقف ثابتًا في منتصف الحجرة، يرمقني بعينين حاقدتين، جمرتين من اللهب في مهب ريح عاتية، وهو يغمغم في غل:

ـ أجل، إنه أنا. غريمك اللدود يا ماركو.

أردد مبهوتًا، عاجزًا حتى عن تحريك أناملي فوق زجاج المكتب:

ـ ماركو؟!

أصداء الحلم البعيدة:

ـ قف مكانك!

ونفير شرطة، طلقات رصاص، دماء.

ثم الغمغمة الحانقة التي يتطاير منها الشرر:

ـ ظننت لوهلة أنك لن تظهر ثانية بعد كل هذه الشهور، لكني كنت واهمًا. ماركو ما زال قطًّا وغدًا بسبعة أرواح!

أغمغم في عجز:

ـ مَن ماركو؟

ضحكة عصبية، ثم هتاف وحشي:

ـ مَن الذي تحاول خداعه يا عزيزي؟ أعتقد أن لديك من الذكاء ما يتيح لك التحدث معي على أرضية من الصراحة والوضوح. لقد لعبتها باحتراف يا ماركو، اختبأت شهورًا في الظل حتى ظننا أنك لقيت مصرعك، أو أنك آثرت العزلة، وها أنت ذا تعاود الظهور محتميًا خلف اسم جديد وثروة هائلة، يجعلانك غير قابل للمس. تخطيط جهنمي يستحق التحية والتصفيق.

صفق رجل الشرطة، بينما تحجرت مقلتاي وقد شق

الصداع رأسي كبلطة حادة.

ـ لكن الأيام ما زالت بيننا يا ماركو.

تهديد ووعيد في مواجهة صمت وذهول:

ـ لن أتركك ترفل في هذا النعيم، سأقضي ما تبقى من عمري لأطاردك، وأجعلك تدفع ثمن كل ما اقترفت في حياتك مسبقًا.

حياتي مسبقًا؟

حياة مَن؟

أنا؟ أم هو؟

ـ أنا لست...

باءت محاولتي المستحيلة بالفشل الأكيد:

ـ رصاصتي القادمة في ظهرك سوف تكون القاتلة. تأكد من هذا.

يتداخل الحلم في الواقع، ويمتزج الوهم بالحقيقة:

ـ سأنال منك!

ثم غادر الغرفة، تاركًا إياي في سكون كالموت.

رصاصته القادمة في ظهري!

خلعت قميصي، ونظرت في مرآة الحمَّام الصغير الملحق بالمكتب إلى ظهري، لأجد ندبة واضحة على اليسار، تقرب من سلسلة الظهر بشدة.

جرح ناجم عن طلقة رصاص!

نظرت إلى صورتي ـ صورته ـ المنعكسة في مرآة الحمَّام، وغمغمت أسأل نفسي، أو أسأله:

ـ مَن أنت أيها الرجل؟

قلبي يخفق، وبراكيني حمم تثور:

ـ مَن أنت؟

***

ـ ليس من حقك أن تعلم!

هتف بها الدكتور أمجد في وجهي، فقلت وأنا أحافظ على قامتي منتصبة بجهد جهيد:

ـ إنني أدفع ثمن أخطاء ماضيه التي لا أعلم عنها شيئًا.

ثم أردفت ورأسي يكاد يسقط من على رقبتي:

ـ إن ماضيه يطاردني!

عاود الهتاف بي:

ـ لا تتحدث عنه بصيغة الغائب، إنكما شخص واحد الآن. وأنت المتحكم فيه لا العكس.

صحت كأنني ثمل:

ـ يجب أن تخبرني ما تعرفه عنه.

رفع أوراقه في وجهي:

ـ انظر إلى الاتفاقية التي وقعت عليها معنا، وسترى أنها تتضمن بند الحفاظ على سرية المصدر، أي إخفاؤه حتى عنك أنت نفسك.

كدت أمسك بالأوراق وأمزقها:

ـ تبًّا لأوراقك هذه.

أبعدها عني بحركة خاطفة:

ـ أنت المخطئ، لو لم تظهر بهذه الطريقة لما تعرف عليك أحد من الماضي.

غمغمت شاعرًا بنحلة في رأسي تدور:

ـ اليوم أتى إلى مكتبي رجل شرطة أراه في كوابيسي، وقال إن اسمي، أعني اسمه القديم «ماركو»، وإنه أصابني

من قبل برصاصة في كتفي.

ثم خلعت قميصي أمامه بسرعة:

ـ انظر، هذا أثر الرصاصة.

نظر الدكتور أمجد إلى مكان الجرح، ولم يفاجأ:

ـ ليس من حقي أن أخبرك بشيء.

صرخت وأنا ألتفت إليه:

ـ تبًّا لك!

ـ سافر يا ميلاد، استقل أول طائرة متجهة إلى أي مكان في العالم.

قالها وأنفاسه تتلعثم:

ـ سافر، ولا تعد أبدًا.

والتقت عينانا في نظرة طويلة، طويلة، طويلة.

***

هبطت إلى أسفل البناية التي أزوره فيها وأنا لا أكاد أرى أمامي، وعندما قفزت إلى داخل سيارتي «الفيراري»، ومددت يدي بالمفتاح خلف عجلة القيادة:

ـ كيف حالك يا «ماركو»؟

نظرت إلى المقعد المجاور لي وأنا أشهق، واتسعت عيناي حتى كادتا تنفجران.

كيف لم أرَ هذا الجالس بجواري؟!

أهو الصداع أم ظلام الليل؟

وكيف يمكن أن يكون الجالس بجواري هو نفسه صاحب الوجه المكتنز، بالندبة على جبهته من أثر جرح قديم، وبالعينين اللتين تختفيان خلف نظارة شمس معتمة برغم الليل المدلهم، والذي أراه في كوابيسي اللعينة؟!

كيف؟!

7

- مهمة جديدة.

- اهرب!

***

صرخت وقد استبد بي الفزع المؤلم:

- مَن تكون؟

مد يده إلى المفتاح المتدلي في ثقبه خلف عجلة القيادة، وأداره قائلًا في هدوء:

- انطلق يا «ماركو»، لنستعد بعض الأيام الخوالي.

دار المحرك، وبيدين مرتعشتين أمسكت بالمقود، وبقدم تسري فيها نفس الرعشة ضغطت الدواسة، فانطلقت بنا السيارة في هدوء.

أريد أن أفهم كل شيء، أن أفهم ما يجري لي في حياتي الجديدة التعسة، من جراء ما ارتكبه هذا الوغد الذي احتل بمخي جسده!

ملأ الجالس بجواري رئتيه بالهواء، ثم نفثه في بطء وهو يقول:

- ظهرت أخيرًا.

واختلس ضحكة ساخرة متابعًا:

- ظهور إعلامي يليق بنجم، كما عودتنا دائمًا.

- مَن أنتم؟ أنت تتحدث بصيغة الجمع.

قلتها بشفاه متلعثمة، فانعقد حاجباه الغليظان أسفل ندبة جبهته، وهو يقول:

- كأنك لا تعرفني حقًّا يا «ماركو».

هتفتُ في انفعال صادق:

- أنا لا أعرف حتى من يكون «ماركو» هذا!

انعقد حاجباه أكثر، وغرقت ملامحه في السواد الذي يرتديه فوق ملابسه وأمام عينيه:

- فقدت الذاكرة في مهمتك؟

قلتُ وقد أمدني بحل مناسب:

- شيء من هذا القبيل.

- توقعت هذا، برغم كونها دراما تليق بالأفلام السينمائية لا أرض الواقع.

سألته وأنا أحاول استجماع أفكاري المشتتة:

- هل تعرفني منذ زمن بعيد؟

هز رأسه بالإيجاب:

- منذ سنين طويلة، المفترض أن أكون صديقك «ريمون».

سألته مستغربًا وقع اسمه على مسمعي، بنفس استغرابي لوقع اسمي المفترض، «ماركو»:

- من أين نحن؟

قال:

- أسماء غريبة، هه؟ إنها أسماؤنا الحركية التي لا نُعرف إلا بها.

- هل يضمنا تشكيل عصابي معين؟

- تخمين جيد.

وأوضح «ريمون»:

- المفترض أننا نعمل تحت إمرة «ألفا»، وقد بحث عنك طوال شهور اختفائك بشراسة، أظنه الآن يسعى بكل قدراته لأن يستعيدك بعد أن ظهرت ثانية.

سألته وأنا أعبر بالسيارة شوارع الليل الخالية:

ـ ما هو نشاطنا؟ سرقة؟ مخدرات؟ نصب؟

قال على الفور، وبمنتهى المباشرة:

ـ قتل.

ضغطت الكوابح على الرغم مني فتوقفت السيارة في منتصف الشارع الرئيسي الخالي، ملنا إلى الأمام بفعل القصور الذاتي قبل أن يستعيد هو هدوءه، وقبل أن أسأله أنا صارخًا:

ـ ماذا؟!

قال بنفس هدوئه البسيط:

ـ المفترض أنك أفضل القتلة المحترفين في تشكيل «ألفا»، وبرغم كوني أحتل مرتبة متأخرة لكننا كنا ـ وأعتقد أننا لا نزال ـ صديقين حميمين.

أمجد هيكل أيها الوغد الجبان الـ...

تمنحني حياة جديدة في جسد قاتل محترف!

أفضل القتلة المحترفين برصاصة في الظهر وماض أسود بغيض!

تابع «ريمون»، بينما أتابع أنا ذهولي العارم على زجاج

نظارته المعتم:

- لقد خضنا معًا مهمات كثيرة، وقمنا بتصفية الكثيرين دون أن ننكشف أو نترك خلفنا دليلًا، برغم استماتة بعض رجال أمن الدولة خلفنا، مثل عادل حسين الذي قتلت أنت أحد أقربائه، ووقف هو عاجزًا عن فعل أي شيء.

تبًا لي، أقصد له.

- لكنك اختفيت دون أن تنفذ مهمتك الأخيرة، برغم أنك تقاضيت أجرك عنها مقدمًا، وهي مرتبة لا ينالها إلا من وصل إلى مثل احترافيتك!

تبًا لي وله ولك ولأمجد هيكل الـ...

- يبدو أن أنباء كانت قد تسربت للأمن عنها، لذا فقد طاردوك حتى فقدوا أثرك، ومن يومها لم تظهر ثانية، ولم نعرف مكان النقود التي قبضتها، وهو ما أثار «ألفا» حتى الغضب كما تتوقع بالطبع، ولعمري فإن غضبته سيئة، سيئة للغاية.

غمغمت وأنا عاجز عن التصديق:

- أنا قاتل محترف؟!

غمغم «ريمون» بأسف:

ـ كنت أنا من جلب لك تفاصيل المهمة الجديدة بكل أسف، وحملت إليك حقيبة النقود، لم أتوقع أن تكون المهمة بهذه الصعوبة، فالتخلص من كهل مثل فايز أبو اليزيد لم يكن...

صراخ ملتهب:

ـ مَن؟!

ولم أعِ إلا وأصابعي القوية تقبض على تلابيبه السوداء، وبرغم هذا فقط احتفظ «ريمون» بهدوئه حتى النهاية وهو يقول:

ـ أنت لا تذكر شيئًا بالطبع، مهمتك كانت التخلص من فايز أبو اليزيد، الملياردير العجوز الذي بلغ من العمر أرذله.

صحت فيه كسيلٍ هادر:

ـ لماذا؟

أجابني بهدوئه المستفز:

ـ لأن هذه وظيفتنا، أن نقتل ونقبض الثمن. وابن شقيقه شوقي كان مستعدًا لدفع الكثير مقابل أن يذهب العجوز، أن يموت ولو مقتولًا.

أفلتت أصابعي ملابسه، وانهرت فوق مقعدي لا أرى لا أسمع لا أتكلم.

يواصل «ريمون»:

- لقد اتفق شوقي أبو اليزيد مع «ألفا» على التخلص من عمه برصاصة قنّاص بعيدة، عملية نظيفة بعيدة عنه تمامًا لكي يرث المليارات، وقد دفع إلى «ألفا» مبلغًا محترمًا، واختارك «ألفا» لتنفذ هذه المهمة لكفاءتك التي تبهرنا جميعًا. لكنك بعد أن تسلمت أجرك الضخم اختفيت ولم تعد، دون أن تتخلص من الكهل الذي فوجئنا به يختفي، وبك تحتل مكانه وترث ثروته. بالله عليك كيف فعلتها يا «ماركو»؟!

سخرية مريرة، ومرارة ساخرة!

أنا فايز أبو اليزيد، احتفل بمخي جسد من كان يريد قتلي.

ماذا يمكن أن أجابه أكثر من هذا حتى أنهار؟!

وفجأة، دون مقدمات، تجلت الرؤيا أمامي في ومضات سريعة.

«ريمون» يناول «ماركو» الحقيبة: «مهمة جديدة».

«ماركو» يصوب البندقية من فوق سطح بناية مواجهة لمبنى مؤسسة «أبو اليزيد»، إلى الكهل الذي يهبط من سيارته «اللنكولن» السوداء.

دائرة التصويب.

نفير سيارات الشرطة، وكوابح تحتكُّ بالإطارات.

هتاف من الخلف:

ـ قف مكانك.

النحيل ذو اللحية الدائرية صوب مسدسًا، و«ماركو» يقفز فوق سور السطح.

تدوي الرصاصات.

صراخ.

رصاصة تخترق ظهر «ماركو» وهو يطير في الهواء.

دماء.

يهبط «ماركو» فوق الأرض ويركض بقدميه على الأسفلت.

عادل حسين يتابعه من فوق السطح:

ـ سأنال منك.

«ماركو» يركض نحو حافة النهر ويقفز، يغوص في الماء ويغوص.

دماء وماء.

ثم تطفو الجثة فوق السطح.

في ثلاجة المشرحة، أمجد هيكل يمر في زيارة سرية غير شرعية.

يشير إلى جثة «ماركو» الميت.

قطع، نهاية.

يواصل «ريمون»:

- يبدو أنك قد نجحت في التخلص من الكهل، واحتلال مكانه ومكانته وثروته ومنزله، هذه هي النقطة الغريبة في الأمر، لكني أثق بأنك لا تتذكر أي شيء من كل هذا.

صامتًا ألهث.

- ستعود معي الآن إلى «ألفا»، ليرى بنفسه أنك لست على ما يرام، وأنك فقدت الذاكرة، وسيعرف هو كيف يتصرف.

بكل عنف أميل بجذعي وأفتح الباب:

- اهبط.

أدفعه للهبوط بذراعي وأنا أصيح فاقدًا العقل:

- اهبط من سيارتي على الفور.

يطاوع ذراعيّ القويتين، ويقف في منتصف الشارع بجوار السيارة واضعًا يديه في جيوب سرواله الواسع:

ـ لكنك هكذا يا «ماركو» تضع نفسك في...

أصيح فيه وأنا أغلق الباب بعنف:

ـ لست صديقك اللعين.

وأصيح وأنا أدير المحرك:

ـ أخبرهم أنني مت.

وأنطلق وأنا أصيح:

ـ أنا رجل ميت الآن.

أراقبه في مرآة السيارة يبتعد ناظرًا إليّ في ثبات.

نعم، هذا حقيقي.

ما أنا إلا رجل ميت.

بالأحرى، رجلان ميتان في جسد حي!

***

هتف الدكتور الوغد أمجد هيكل:

ـ هذا مستحيل! مستحيل تمامًا!

ـ سأقولها لآخر مرة.

وجذبته من ياقتي قميصه في عنف، مقربًا وجهي من

وجهه لأقول في حسم واضح:

ـ أريد جسدي القديم. جسد فايز أبو اليزيد.

شعرت بارتعاشته، وطفح الخوف من لهجته التي لانت فجأة:

ـ ما أحاول قوله يا سيدي أن... أن جسدك القديم، أعني جسد فايز، والرأس بالذات قد تشوه تمامًا في أثناء العملية الجراحية، وذلك حتى يتسنى لنا إخراج المخ منه كاملًا لنزرعه في هذا الجسد الجديد.

غمغمت بنبرة قاسية:

ـ جسد القاتل المحترف!

فرد ذراعيه ليهتف:

ـ ومن أين لي أن أعرف بهويته السابقة؟ كانت مجرد جثة استخرجناها من المشرحة قبل أن تطّلع السلطات عليها، ودفعنا لقاءها مبلغًا مجزيًا للمسؤول هناك.

وبرقت عيناه في شغف، ثم قال:

ـ لكن ما تقوله مثير للغاية، وكفيل بأن يقلب الكثير من الموازين العلمية والحقائق الثابتة ثبوت الجبال الرواسي.

وأفلت من يدي ليذرع المكان ذهابًا ورجوعًا وهو يهتف:

- الذاكرة، كيف انتقلت إليك أجزاء من ذاكرة القاتل برغم أننا نزعنا مخه تمامًا؟! الحقيقة العلمية تقول إن الذاكرة موطنها الأساسي مخ الإنسان!

جنون العلم في أنقى صوره.

- معنى هذا أن النظرية خطأ، وأن لكل عضو في جسم الإنسان ذاكرته الخاصة. نعم، إن الذاكرة هي الشيء الذي يجعلنا قادرين على إعادة معايشة الأحداث، إذن فاليد تتذكر أنها قتلت، والعين تتذكر أنها رأت، والأذن تتذكر أنها سمعت، والقلب يذكر أنه اضطرب، هذا مدهش! فتح علمي جديد!

أمسكت بكتفه وأدرته نحوي في غلظة:

- لا شأن لي بكل هذا، أريد جسدي القديم.

صاح:

- قلت لك هذا مستحيل.

ثم مال على درج مكتب مفتوح، وأخرج منه ألبومًا ضخمًا دفعه في وجهي:

- يمكنك أن تختار جسدًا آخر من الألبوم، وسنجري عملية نقل أخرى.

دفعت الألبوم بيدي وأنا أزمجر:

- جسد قاتل آخر؟! أو لعله قتيل هذه المرَّة.

قال محاولًا إقناعي:

- هذا حدث عارض، اختر جسدًا وسنتخذ كافة الاحتياطات هذه المـ...

ولكن عبثًا، قاطعته في صرامة:

- أريد جسد فايز أبو اليزيد، جسدي.

ألقى أمجد بالألبوم في الهواء صائحًا بكل نبرة في صوته:

- قلت لك هذا مستحيل. مستحيل!

قربته مني هذه المرة رافعًا إياه لتفارق أقدامه ملمس الأرض، وضاغطًا على رقبته بقوة:

- ستحل لي هذه المشكلة، وإلا...

لهثت، وحاول أن يتكلم، لكن لم تخرج منه سوى بعض الحشرجة:

- سيقتل المسخ صانعه «فرانكشتاين» من جديد.

حشرجة، وأنا أتابع دون أن يطرف لي رمش:

ـ أمامك 24 ساعة فقط، وإلا...

ثم أسقطته فوق الأرض، وغادرت مكتبه الموبوء.

لهث هو فوق الأرض متحسسًا رقبته، قبل أن يخرج هاتفه المحمول ويضغط أزراره:

ـ آلو. نعم، هذا هو الدكتور أمجد هيكل. أيها السادة، نحن نتعرض لخطر جسيم.

ثم يتابع ووجهه يشحب كالموتى:

ـ خطر كفيل بكشف كل شيء.

8

- أين ستذهب؟!

- لنهرب معًا بعيدًا.

***

الهزيع الأخير من الليل.

نهبت «الفيراري» أرض الطريق الخالي نحو قصري البعيد، كنت أقودها وأنا أفكر في أشياء بعيدة، أشياء هلامية لا أعرفها، لكنها تبعث في نفسي سوادًا يشبه بقع الحبر على ورق أبيض.

بلغتُ القصر، واستدرتُ لأجد بوابته المفتوحة على مصراعيها في مواجهتي، فدلفت بالسيارة في بطء عبرها وأنا أجول ببصري بحثًا:

- توبة!

رفعت عقيرتي بالنداء، لكني لم أجده، ولم يجبني أيضًا.

- سرورا!

ولمحت بطرف عيني ذلك الشبح في شرفة غرفة نومي، شبحًا سارع بالاختفاء.

صمت القبور، وسيارة نقل ضخمة عابرة في سرعة أمام القصر.

أقفز من سيارتي، أتسلل في خفة لم أعهدها في نفسي من قبل كفايز، وإن كانت من صميم مهارات «ماركو» بحكم المهنة على الأقل.

دفعت الباب الخشبي بقدمي، ووجدت جثة توبة غارقة في دمائها خلفه، جثة هامدة بلا حراك.

الأوغاد الـ...

يقتلون بريئًا لا ذنب له!

يقتلون توبة بسببي، أعني بسببه!

بكل الحنق والغضب الذي شعرت به اندفعت نحو السلم الخشبي الصاعد إلى الطابق الثاني، وعندما بلغته تسللت نحو غرفة نومي على أطراف أصابعي، حتى لا يشعر بي أحد من هؤلاء الأوغاد الذين يـ...

فجأة، انتابني ذلك الحس المباغت.

فجأة، شعرت بذراعي تنثني، وأستدير لاكمًا وجه شخص لم أره بعيني في قلب الظلام، فندت عنه آهة مكتومة قبل أن يخر ساقطًا، وانثنيت راكعًا بجوار جثته فاقدة الوعي بحثًا

عن...

سلاح!

وجدت معه مدفعًا رشاشًا، وقنبلة يدوية، ومسدسًا صغيرًا.

كيف استطعت ضربه؟!

وكيف تسرب إليّ الإحساس بوجوده خلفي؟!

وكيف حدست أنه يحمل أسلحة؟!

اسألوا «ماركو»، إنه هو المتحكم في كل شيء الآن، لا فايز أبو اليزيد الكهل المغلوب على أمره، الذي كان ينتظر النهاية في صبر وأناة.

تحفزتُ واقفًا، وقد أخفيت الأسلحة في جيوبي، وكدت أبتعد عندما وجدت نفسي أصوب المسدس إلى رأس غريمي فاقد الوعي و...

بوم.

أنا الآن قاتل، ولا فخر.

خطر لي أن أكشف عن وجهه الملثم بالسواد، لأكتشف بكل بساطة أنه «ريمون»، رفيقي الذي كان معي في سيارتي منذ قليل.

سارعت بالتوجه إلى غرفتي، ووجدت سرور فوق أريكته الوثيرة والأثيرة يسعل دمًا، وقد اخترقت الرصاصات جسده في غير موضع، فدنوت منه بسرعة:

- سرورا!

- اهرب، فسيأتون الآن.

نطق بها بصعوبة قبل أن يسلم الروح بين ذراعيَّ، دون أن أجد دموعًا أبكيه بها.

وبالفعل علت أصوات السيارات العابرة أمام بوابة القصر، ولمحتُ - عبر الشرفة - أشباحًا سوداء كثيرة تترجل من داخلها حاملة معها ما لذ وطاب من الأسلحة والذخيرة.

هل تستطيع مواجهة كل هذا بمفردك يا «ماركو»؟

أم أنه قد قدر علينا أن نموت معًا في جسد واحد؟

أصوات أقدام تجتاز البوابة الخشبية، تنتشر في الصالة السفلية، تصعد الدرجات في سرعة، تكتشف الجثة في الخارج، تتجه نحو غرفة النوم وتفتح الباب، ثم...

- مرحبًا يا أوغاد.

يجدونني في استقبالهم، أمطرهم برصاصات مدفعي الرشاش.

اخترقت الرصاصات الأجساد، وتقدمت نحو خارج الغرفة مواصلًا الإطلاق، دون أن أسأل نفسي كيف عرفت طريقة استخدام آلة جهنمية كهذه.

إن «ماركو» يعرف بالتأكيد.

معركة رهيبة، سالت فيها الدماء، وفاضت الأرواح، وتحطم الزجاج، وانهارت التحف والتماثيل، وتمزقت قطعة «دالي» الأصلية، وسقطت الثريا التركية الهائلة في منتصف الصالة، وانفجرت ساعة «الكوكو» السويسرية، لكني استطعت بعدها أن أجد نفسي في الخارج، لأقفز في «الفيراري» وأتجه بعيدًا.

رأيت في المرآة سيارتين خلفي، لكني لم أهتم.

انطلقت الرصاصات تخترق جسم سيارتي، لكني لم أهتم.

أصابت رصاصة كتفي اليمنى، لكني لم أهتم.

بلغت جسر «المحور» وقد انفجر الإطاران الخلفيان، فتركت السيارة تواصل طريقها نحو المجهول وقفزت عبر الجسر إلى الطريق الممتد أسفله، الذي يقطعه بالعرض.

أمسكت كتفي وأنا أتحامل واقفًا، وركضت أختبئ تحت الجسر، متسائلًا إن كان مطارديَّ قد رأوني أقفز، وإن كانوا سيتبعونني حتى هنا، عندما لاحت أضواء السيارة ذات الدفع

الرباعي المقتربة من بعيد.

تحفزت وأمسكت بالقنبلة اليدوية في جيبي، عندما توقفت السيارة فجأة بجواري، وانفتح بابها بغتة:

ـ اركب.

رباه! وهذه أيضًا!

المرأة الشقراء ذات المساحيق التي تلطخ وجهها، والتي طالعني وجهها في أكثر من كابوس ليلي، تمد لي يد المساعدة من مطاردين يريدون حياتي.

قفزت بجوارها دون تفكير، وانطلقت هي بنا بعيدًا في نفس لحظة عبور السيارتين المطاردتين عبر الجسر من فوقنا.

كدت أسألها عن هويتها، لكنها تتصور أنني أعرفها بالتأكيد.

إنها أحد مكونات ماضي «ماركو» البغيض دون شك.

ـ إلى أين؟

نظرت نحوي بعتاب:

ـ إلى منزلي. هل نسيته مثلما نسيت كل شيء؟

لاحظت وجود حرف «النون» اللاتيني في قلادة ذهبية

متدلية على صدرها، بهذا الحرف يبدأ اسمها إذن.

سألتها وأنا أضغط جرح ذراعي النازف في ألم:

ـ أمان؟

قالت وهي تسرع بالسيارة أكثر:

ـ لا تخف، نرجس تعرف كيف تحميك كما تفعل دائمًا.

نرجس، هذا هو اسمها إذن، ولتكن في حياة «ماركو» من تكون، المهم أنها أنقذته وأنقذتني معه، من خطر أجهله، وإن كنت أعلم أن «ماركو» يعرفه.

ولا عزاء لك يا ميلادا!

***

طهرت نرجس الجرح بصبغة اليود، وربطته بشاش طبي:

ـ لا تخش شيئًا، الإصابة سطحية لحسن حظك.

تأملت منزلها الفخم، المطل ـ من موقعه بالطابق الثالث ـ على أكثر أحياء العاصمة رقيًا، وأنا أمضغ صمتي وأسمو فوق ألمي بينما تقول هي باسمة:

ـ ما زال «ماركو» يملك أرواحه السبعة.

ثم قدمت لي سيجارة «روثمانز» من علبة فاخرة:

ـ تفضل، نوعك المفضل.

فايز أبو اليزيد لم يكن يدخن، لكن «ماركو» له رأي آخر على ما يبدو.

سحبت سيجارة حتى لا أثير شكوكها تجاهي، وأشعلتها لي بقداحة مرصعة بالألماس.

جلست أمامي، ونظرت إليّ في هيام سائلة:

ـ ألم يحن الوقت يا «ماركو»؟

سألتها وأنا أنفث الدخان:

ـ لفعل ماذا؟

ـ لنهرب معًا بعيدًا عن كل هذا، ونذهب إلى مكان بعيد لنبدأ حياة جديدة؟

هذا ما بيننا ـ بينهما ـ إذن.

عشق ووعود.

صَمَتُّ حتى أسمع كل ما لديها، وكانت كريمة إلى أقصى درجة:

ـ إن النقود التي أتيتني بها في الليلة السابقة لاختفائك ما زالت معي، لم أمس منها شيئًا، إنها تكفينا للبدء بالإضافة إلى

ثروتي التي جمعتها من سِني عملي.

هنا إذن خبأ «ماركو» أجره عن المهمة التي لم تتم.

ـ أين هي النقود؟

سألتها حتى أتأكد، فاختفت في الداخل وعادت تحمل حقيبة ملأى بالأوراق النقدية:

ـ ها هي ذي، أحصها لو أحببت.

تشوشت الرؤية أمامي وعاود الصداع مهاجمتي، وهبَّت في رأسي الأفكار التي تذهب بي وتجيء كأمواج دون مرسى.

ثم تحطم رتاج باب الشقة، حطمته رصاصات متتالية، قبل أن يدخل رجال متشحون بالسواد، وخلفهم رجل أبيض الشعر طويله، يرتدي حلة براقة، ويمسك في يده بعصا طويلة، وفي فمه سيجار ثخين.

كل هذا ونحن لم نتحرك قيد أنملة، كان المشهد قد تجمد دون أن تتغير فيه من تفصيلة سوى ملامح نرجس التي عراها الارتياع.

ضحك الرجل في استمتاع، وتقدم إلى منتصف الصالة بين رجاله، ليقول بنبرة تليق بأمير:

ـ رائع، لم يكن هذا متوقعًا بالمرَّة.

شهقت نرجس أخيرًا وغمغمت:

ـ «ألفا»؟!

هذا رئيسي الذي يبحث عني إذن منذ شهور، والذي وجدني أخيرًا!

ـ أعترف بأني بخست الحب قدره، كيف لم أتصور أن «ماركو» قد خبأ نقوده بين جدران منزل معشوقته الوحيدة نرجس؟!

هتفت نرجس في فزع، بينما أكلت الطيور لساني:

ـ هذه نقودك يا «ألفا»، خذها. نحن لا نريدها.

ضحك مرة أخرى، واقترب منها مشيرًا بعصاه:

ـ خطأ يا عزيزتي، ليست النقود هي ما يبحث عنه «ألفا».

ويحدجني بنظرة ثاقبة:

ـ وإنما الولاء!

صمت من ناحيتي، وهتاف مذعور من ناحيتها:

ـ ولاؤنا ما زال لك يا...

قاطعها في صرامة حارقة:

ـ ولاؤك له باسم الحب.

ثم أشار بعصاه إليّ:

ـ وولاؤه لنفسه باسم الأنانية وحدها.

امتد نهر من النار بيننا، بينما سألته نرجس وهي تصرخ كالمجاذيب:

ـ ماذا تريد منا إذن؟

أطبق بقبضتيه على العصا، وهو يقول كاشفًا عن صف من الأسنان البراقة:

ـ العقاب.

وجذب طرف العصا بيده، ليكشف عن نصل لامع مغروس في داخلها:

ـ عقاب خيانتي الوحيد هو، الموت.

هنا كان لا بد أن أتحرك.

انتفضت كإعصار، ودفعت قدمي في وجه «ألفا» المقيت، قبل أن أعتدل كدودة شريطية، وأمسك بالحقيبة ثم...

هتف «ألفا» وهو يشير نحوي من مكان سقطته:

- امنعوه من الهرب هذا الـ...

ثم ركضت نحو الشرفة، واخترقت بجسدي الزجاج لأقفز من على ثلاثة طوابق كاملة، شاعرًا برصاصة جديدة تستقر في فخذي الأيسر.

- لاااااااااا.

سمعت صرخة نرجس الملتاعة، المختلطة بالطلقات النارية، وأنا أسقط، وأسقط، أسقط، حتى لامست قدماي الأسفلت اللامع و...

نظر الرجال إلى الشارع من خلال الشرفة لكنهم لم يروني بالأسفل.

كنت قد استعدت قدراتي كما يجب، واختفيت في لمح البصر.

- اختفى اللعين!

قالها أحد الرجال، فيما اندس «ألفا» بجسده بينهم، ومسح بعينيه المكان بحثًا عني، حتى أدرك أنني أفلتُّ من بين يديه هذه المرَّة.

- سأجده، سأعرف كيف أجده.

قالها وهو يضغط على أسنانه اللامعة حتى كاد يسحقها بفكيه، وأعاد النصل اللامع إلى غمده داخل العصا، متجهًا إلى باب الشقة، وهو يلقي بنظرة أخيرة على جثة نرجس الهامدة، وقد اخترقت الرصاصات جسدها، وسالت الدماء منها ملوثة الأرض.

- مغفلة!

غمغم بها، ومضى.

لقد حجب جسد نرجس الرصاصات عني.

لقد فدتني بروحها.

أعني، فدت حبيبها «ماركو» بروحها.

باسم الحب!

أما أنا فقد كنت أتسلل بخفة الفهود تحت جنح الظلام، نحو تنفيذ آخر مهمة لي.

بدقة أكبر، آخر مهمتين.

***

فتح شوقي الوغد باب شقته، مرتديًا فانلة بيضاء داخلية وسروالًا قصيرًا.

لقد أيقظته من النوم بكل تأكيد.

ـ أنت!

هتف بها مذهولًا، فألقيت بحقيبة النقود في وجهه وأنا أقول في غضب كاسح:

ـ أجل، وهذه هي النقود التي دفعتها لقتل عمِّك.

أسكته الذهول، وتابعت أنا:

ـ وهو يرسل لك هذه الهدية البسيطة.

رصاصات، صراخ، دماء ممتزجة بأوراق النقود.

ثم التسلل مرة أخرى تحت جنح الليل، في خفة الفهود.

***

ـ آلو. مَن معي؟

ـ هالة. آسف لإيقاظِك مبكرًا هكذا.

ـ من؟ ميلاد! هل أنت على ما يرام؟

ـ حتى الآن أنا على ما يرام، اسمعيني جيدًا.

ـ أسمعك.

ـ عندما تذهبين إلى المكتب في الصباح ستجدين توكيلًا

رسميًا عامًا باسمك في درج مكتبي، أمنحك من خلاله الصلاحية التامة للتصرف في جميع ممتلكاتي.

ـ توكيل لي؟!

ـ أجل، صنعته لظروف طارئة كهذه.

ـ ما الذي يحدث يا ميلاد؟ أنا لا أفهم شيئًا.

ـ ليس هذا وقت الشرح، فأنا أتحدث من كابينة في الشارع، كل ما أطلبه منك الآن وأنا أعلم أنك ستفعلين ما أقول، أن تتبرعي بثروتي كلها في أوجه الخير والبر والإحسان.

ـ ماذا؟!

ـ كما سمعتني، أعلم أنها مسؤولية ضخمة يا هالة، لكني لن أجد من أمنحه ثقتي أكثر منك!

ـ ميلاد إنني...

ـ قارب رصيد البطاقة على الانتهاء، سأعاود الاتصال بك فيما بعد.

ـ ميلاد، متى سأراك؟

ـ لا أعلم يا هالة، لا أعلم.

ـ لكني...

ـ الوداع!

وأغلقت السماعة في عنف كأني أحارب نفسي، ثم عاودت رفعها، ناظرًا في ورقة اقتطعتها من دليل الهواتف، تحوي جميع أرقام شركات الطيران التي تنظم رحلات للشرق الأقصى.

مهمتي الثانية..

والأخيرة.

***

هبط الدكتور أمجد هيكل من سيارة الأجرة أمام ميناء القاهرة الجوي، وشمس الظهيرة تتوسط كبد السماء، واتجه بسرعة نحو بوابة المغادرة عندما...

سقط على الأرض مضرجًا في دمائه.

تحلق المسافرون وضباط الأمن حوله، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة محاولًا النطق بشيء ما.

ومن بعيد، استقل نفس سيارة الأجرة التي أتى بها شخص آخر يرتدي معطفًا طويلًا برغم حرارة الصيف، ليخفي فيه مسدسًا مزودًا بكاتم للصوت.

شخص أصلع له شامة على الخد الأيسر، ويدخن سيجارة

«روثمانز» فاخرة.

لقد قتل المسخ صانعه الدكتور «فرانكشتاين»، الأمر الذي أصبح مكررًا إلى درجة أنه لم يعد يثير عجب أحد.

على الإطلاق!

9

الخريف من جديد، بأوراقه الجافة الصفراء، تكسو حديقة قصري المغلق بالشمع الأحمر، دون أن تجد من يكنسها كالماضي القريب.

وبعد.

فها أنا ذا أسير على الطريق الصحراوي.

وحيدًا في الزحام.

مطاردًا من العدالة.

مطاردًا من عصابة قتلة.

ما من مكان أذهب إليه.

ما من منزل.

ما من نقود في جيبي.

شبح يسير بين البشر على غير هدى.

بلا وجهة.

بلا غاية.

بلا أمل.

أنتظر موتًا لا يأتي.

وأعاقب بأبدية مستحيلة.

لم أقوَ على قتل نفسي، خوفًا من ألا أموت.

فإن مت، فخوفًا من العقاب الذي ينتظرني كجزاء على ما اقترفته يدي من آثام.

أتمنى أن أصاب برصاصة أخرى في ظهري تحمل لي النهاية غير المتوقعة.

والحياة الجديدة الموعودة.

أتمنى أن أقابل في الشارع وجهًا أعرفه، لكن الوجوه جميعها غربة تحملني إلى غربة.

هالة؟

لن ألوث نقاءها بقصتي اللعينة.

ولن أجازف بخسارة إحساسها الطيب الأخير عني.

سأظل أراقبها من بعيد.

من قلب وحدتي، وسط الزحام.

ربما يلقاني أحدكم في الشارع يومًا.

ربما نتصادم بالأكتاف.

ربما يلقي عليّ التحية ويمضي.

ربما يطلب مني سيجارة «روثمانز» وأعطيه.

سيأخذها ويمضي.

لكنه لن يعرف أبدًا، لن يتوقع أبدًا، أن لي عقل ملياردير كهل سابق.

ووجه قاتل أجير محترف.

كوعد لم يتم، بحياة جديدة!

القسم الثاني

جيسيكا

1

أعرف أن الهاتف سوف يرن الآن، وأن نعمان سوف يكون هو المتصل بالتأكيد.

إن لم أكن قادرة بعد كل هذه السنوات على توقع كل نأمة تصدر منه، وعلى انتظار كل فعل وتصور كل رد فعل، فلا أقل من أن أصف زواجنا ـ رباطنا المقدس ـ بالفشل الذريع.

كلا. لم يكن زواجنا فاشلًا بأي صورة. لا أستطيع أن أدعي هذا ولو كذبًا. زواجنا كان مشروعًا محسوبًا بالورقة والقلم، وبمنتهى الدقة، من حيث التكاليف والأرباح مع بعض الخسائر الإجبارية المتوقعة.

يبدو أن وقت تقديم كشوف الحساب قد حان أخيرًا يا نعمان، وكان من المفترض أن تتجاوز الأرباح الخسائر مما يتيح لنا تقاعدًا مريحًا من العمل، ومن الزواج، ومن الحياة نفسها في النهاية.

هذا ما هو مفترض، أو هذا ما عشت أتمناه على الأقل.

تضع أم محمود الصينية أمامي بجوار سماعة الهاتف اللاسلكية التي سيعلو جرسها الآن في أي لحظة، وتمضي المرأة السمينة ذات الوجه الطيب إلى شؤون المنزل المعتادة، بينما أرشف قهوتي منزوعة الكافيين في جلستي

اليومية الأثيرة أمام شاطئ البحيرة، حيث يحلو لي أن أراقب الغروب، وأن أتلذذ بمداعبة النسيم لتجاعيد وجهي وشعيرات رأسي الرمادية، ثم أتراجع بظهري إلى المقعد الخشبي، بينما الحنين يرسم على وجهي استمتاعًا خفيًا ـ لا يخلو من استمراء لتعذيب الذات ـ بعبق الذكريات السابحة في بحر الأثير، وبوسي تتمسح بفرائها الناعم عند قدمي أسفل المائدة.

كم سنة مرت على زواجنا؟

خمسون؟ نصف قرن كامل؟!

رباه!

بالأمس، بالأمس فقط، كنت تلك الفتاة الصارمة الملامح، العملية الطباع، المفعمة بالحيوية، وبالطموح، وبالرغبة في تغيير العالم.

كنت جذوة لا تخمد، يؤججها الحماس والأحلام.

واليوم، عجوز أمشي بصعوبة، وأتحرك بصعوبة، وآكل بصعوبة، وأنام بصعوبة، أحمل تاريخي فوق كتفي، وشيبي بين خصلات شعري الرمادية، وميراثًا ثقيلًا من الإنجازات والشهادات المؤطرة المعلَّقة على جدران المنزل والمكتب والعيادة المهجورة.

تاريخ طويل من الأسفار والمؤتمرات والإنجازات والأبحاث العلمية، التاريخ الذي يكفي لصناعة أسطورة، بل أسطورتين تحمل إحداهما اسم الدكتورة عصمت زين الدين، اسمي. وتحمل الأخرى اسم زوجي الدكتور نعمان زاهر.

أسطورة أو أسطورتان، لا فارق كبير، لن يستطيع أحد فصل أحدنا عن الآخر.

في النهاية أستطيع أن أدعي أننا عشنا معًا حياة واحدة، لا حياتين منفصلتين.

حياة واحدة.

منذ التقينا في أروقة الكلية، طالبة في السنة النهائية تحرص على تقدير الأولى كل عام، وطالب يصغرها بعام واحد، يترنح ترتيبه العلمي بين أقرانه في نطاق العشرين الأوائل دائمًا.

لم أخجل مرة واحدة طوال تاريخنا المشترك الممتد إلى نصف القرن معًا من إعلان هذه الحقيقة: إنني أكبر زوجي ورفيق حياتي بعام كامل. أحد عشر شهرًا بالتحديد لهواة الدقة المفرطة. ولم يكن الدكتور نعمان يجد غضاضة في التصريح لي بهذا على مسمع منه، لم يكن سبقي إياه سنيًا أو أكاديميًا أو وظيفيًا بمجال للضغينة بيننا. صحيح أن

الهمسات قد دارت كطواحين الهواء حول سبب اختياري لزوج يصغرني سنًّا ومكانة، بأنه نوع من إثبات شخصيتي القيادية المتسلطة التي لا تقبل بالمركز الثاني على الإطلاق، لكني لم ألق لهذه الهمسات بالًا وواصلت طريقي بكل جد واجتهاد.

كنت أتوقع سريان هذا النوع من التعليقات ـ وأكثر ـ من وراء ظهري، ولعلها في النهاية تحمل نزرًا من الحقيقة التي لا أنكرها، إذ أنَّى لي بزوج يستطيع السيطرة عليَّ وعلى طموحي وأفكاري وتطلعاتي، لدرجة أن نعمان نفسه ـ على هدوئه وإعجابه الظاهر بي ـ لطالما وصفني بالمُهرة الجامحة التي أعيت من يروضها.

في ظني أن رجلًا كهذا لم يكن قد ولِد بعد، ربما هو لم يولد بعد إلى الآن.

ما زلت أذكر كل شيء، إذ لا تحمل جيناتي تسلسلات الدكتور «ألزهايمز» طيَّب الله ثراه على ما يبدو، وما زالت ذاكرتي تعرض الصور المتتابعة بوضوح تام كأني أتابع شريطًا سينمائيًّا.

لقد ضمن لي التفوق شهرة جامعية لا بأس بها منذ كنت طالبة في السنة الأولى، وضمنت لي شخصيتي القوية احترام الكبار وحسد الصغار، ونظرات كثيرة فوق أعناق

ملتوية تتابعني منذ دخولي من البوابة مستقلة سيارتي السوداء (وأن تقود طالبة سيارة في ذلك العهد الغابر من أواسط القرن العشرين لهو بدعة في حد ذاته)، إلى سيري الثابت بين المدرجات والمعامل وأقسام الكلية والمستشفى الجامعي، إلى مغادرتي في آخر النهار.

لم يكن غريبًا أن أظهر سائرة بحذاء أحد الأساتذة الكبار الذين ترتجف الأبدان لمجرد ذكر اسم أيهم، ولم يكن غريبًا أن نتبادل حوارًا علميًا رصينًا حول نقطة اختلفت في تحديد صحتها المراجع الطبية الشهيرة، أو أن أسأل أحدهم حول جزئية ما، فيقف للحظة شاردًا قبل أن يقول:

- لم أقرأ في هذا الموضوع، سأراجعه ثم نتناقش غدًا في هذه النقطة.

لحظتها، كان زهو الانتصار يملؤني، وكنت أشعر بأني ملكة متوَّجة على العالم كله، بالذات عندما ينطق بها أحد العلماء الأجلاء الذين طبقت شهرتهم الآفاق أمام جمع الطلبة والطالبات بعد نهاية محاضرة أو درس عملي مثلًا. لا بأس بالطبع في أن أسمعها منه على انفراد في مكتبه، أو في طريق مغادرته، أو في أحد أروقة المستشفى، لكن أمام جمهور يبدو للكلمات وقع مختلف، فهو أحد أهدافي التي أفخر بتحقيقها حقيقة.

ليس أن أكون الأولى فحسب، ولكن أيضًا تحت دائرة الضوء، دائمًا وأبدًا ومهما كلفني ذلك.

كانت الشائعات تطاردني، مع سيل من الغمزات وتنهيدات الحسرة والحسد، ولم أكن ألقي بالًا لأيٍّ من كل هذا، رغم شعوري الممض بالوحدة طوال سنوات الدراسة.

وحدة باردة بلا أصدقاء ولا صديقات. اعتبرني الآخرون منطقة محرمة خلقوا عنها الأساطير والتابوهات، ونصبوا حولها أسلاكًا شائكة. لم أكن أبخل على أحد يطلب العون أو المشورة، لكني لم أعرض بضاعتي الدراسية والعلمية بثمن بخس، كما لم أعرض نفسي على أحد، وهكذا كنت أعد نفسي لمستقبل واعد بالعنوسة وخالٍ من الصديقات تمامًا إن استمرت أوضاعي الاجتماعية على ما هي عليه، لولا أن اعترض نعمان طريقي يومًا بسبب إحدى تلك الشائعات.

كان أحد تلك الأيام الحافلة التي تنتهي قبيل العصر، وكنت متألقة خلال المحاضرة المتأخرة كعادتي في تفاعلي مع أستاذ الجراحة الشهير الذي ظل يناقشني طويلًا حول الأساليب الجراحية المتبعة في استئصال الزائدة الدودية في ذلك الوقت، وكنت قد قضيت ليالي عديدة قبلها في قراءة كل المراجع المتوفرة تحت يدي حول هذا الموضوع لكي أناقشه ندًا لند، كما هو الحال دائمًا معه ومع سواه.

أذكر أنني بعد المحاضرة مباشرة كنت ماضية إلى سيارتي الواقفة وحدها تقريبًا في مرآب المستشفى، بعد أن خلا المكان من أغلب الطلاب والأساتذة في هذا الوقت الميت، أفكر في محاضرات الأيام القادمة وكيف أن أمامي كمًّا رهيبًا من القراءات العلمية حتى لا يقل تألقي عما حدث اليوم. كانت سهام النظرات المعتادة تلحق بي من وراء ظهري فتصيبني أو لا تصيبني، تلك السهام الحارقة التي وطّنت نفسي على تجاهلها والمضي قدمًا.

قبل بلوغي السيارة سمعت من يناديني من خلف ظهري:

ـ دكتورة عصمت. دكتورة عصمت.

تعجبت، فهي المرة الأولى التي يجهر فيها أحدهم بالنداء عليّ داخل الحرم الجامعي. والتفت، فقط ليزداد تعجبي.

هو طالب كما تشير ملامحه الشابة، لم يبلغ نهاية العقد الثاني بالكاد، يرتدي قميصًا أبيض فوقه «بلوفر» أزرق بلا كمين مثل «عبد الحليم حافظ» في فيلم «الخطايا» الذي لم يكن قد ضرب صالات العرض بنجاحه الساحق بعد، ويدهن شعره بزيت الفازلين لكي ينام على أحد جانبيه لامعًا كما تقضي أحدث صيحات تلك الأيام، وكان يخف السير نحوي حتى توقف أمامي مادًّا يده ببسمة منهكة:

ـ خفت ألا ألحق بك يا دكتورة!

نظرت إلى يده الممدودة نحوي وقلت دون أن أصافحه:

ـ هل تعرفني؟

هز كتفه وظلت يده ممدوة، وقال ضاحكًا:

ـ وهل في الكلية كلها من يجهل عبقريتك الفذة؟

كان سؤالًا غبيًا بالفعل:

ـ أعني، هل أعرفك؟

قال دون أن يهبط بيده الممدودة في أريحية:

ـ لا أعرف، وإن كنت لا أظن. أنا جديد هنا. اسمي نعمان. نعمان زاهر، أحد طلاب السنة قبل النهائية.

لم أجد بُدًا من مصافحته بعد أن صمت يراقبني شاهرًا كفه في إصرار، وعندما فعلت تابع:

ـ ربما تعرفين أبي، الدكتور زاهر نعمان.

سألته على الفور:

ـ أستاذ طب العيون؟

أجابني باسمًا:

- هو بعينه.

عدت أسأله:

- وكيف تكون جديدًا وفي نفس الوقت تدرس في السنة قبل النهائية؟

- هذا سؤال ذكي. لقد كنت أدرس الاقتصاد في لندن طوال السنوات الثلاث الماضية.

- وعدت إلى هنا لتدرس في السنة قبل النهائية مباشرة؟

- في أثناء دراستي في الخارج كنت مقيدًا هنا في سجلات الكلية، وكنت أحصل على ترتيب متقدم بين الأوائل، رغم أني لم أكن أدخل الامتحانات أصلًا.

كان يتحدث في استهانة عابثة، ولم يكن ما يقوله جهرًا ليدهش أحدًا في ذلك العصر المفعم بمراكز القوى العلنية والسرية، وأحقية أبناء الأساتذة في وراثة مراكز آبائهم العلمية بأي وسيلة شرعية أو جنائية. السؤال هو: هل يدهش هذا أحدًا الآن رغم مرور كل هذه السنوات؟

- ولماذا لم تكمل دراستك هناك في لندن؟

- مللتها، بالإضافة إلى ضغط أبي المستمر الذي رضخت له في النهاية.

لم يكن انطباعي الأول عنه إيجابيًا، ولو أن الانطباعات الأولى تدوم كما يقولون لَما كنت جالسة الآن في أرذل العمر أنتظر مكالمته الهاتفية على شاطئ البحيرة.

قابل نعمان صمتي بنظرات تفحصتني بعناية من أعلى إلى أسفل: شعري المعقوص إلى الخلف، نظارتي الطبية نصف السميكة أمام عينيَّ الضيقتين، أنفي المدبب، فمي المطبق، حقيبة الكتب والدفاتر والأدوات الطبية المتدلية من فوق كتفي، ملابسي البسيطة المكونة من قميص أبيض فوق تنورة سوداء طويلة بما يكفي (لم تكن أي فتاة في ذلك العصر لتجرؤ على التفكير في ارتداء بنطال تحت أي مسمى)، وأخيرًا المعطف الأبيض الذي أحمله فوق ذراعي الأخرى من أجل الدروس العملية.

- غريب!

قالها وبسمته تشرق أكثر، فاستفزني للسؤال باقتضاب مماثل:

- ماذا؟

- إنك ليس كما يقولون عنك، فها أنت ذي تحدثينني كأي شخص طبيعي.

لم أقاوم عبارة ساخرة ألحت عليَّ تصاحبها بسمة جانبية:

- ماذا أخبروك؟ أنك ستتحدث إلى شقيقة «ريا وسكينة»؟

ضحك عاليًا، وقال:

- ليس لهذه الدرجة، لكن، دعك مما يقولونه، وإن دفعني لاقتحامك هكذا سؤال يتعلق بأقاويل من التي تتناثر حولك.

- إنك تجعلني أتيه فخرًا. من الرائع أن يصبح المرء مادة للأقاويل المتناثرة.

تجاهل ما في قولي من استنكار، وسألني محدقًا في عيني مباشرة:

- هل أنت حقًّا ابنة أخت عميد الكلية؟

هل كانت هذه هي اللحظة الأولى التي ألاحظ فيها أن عينيه خضراوان؟

- ماذا؟

أعاد السؤال فأجبته بآخر:

- وما الذي يدفعك أو يدفع أي شخص إلى افتراض كهذا؟

أخرج علبة السجائر من جيبه، وهو يقول:

- الجدل بين الطلبة محتدم حول انتسابك بصلة قرابة لأي من أعضاء هيئة التدريس، وبالبحث في شجرة عائلة السيد

عميد الكلية وجدوا أن زوج أخته يحمل اسم «زين الدين»، في موقع ما غير محدد من اسمه الثلاثي، وهكذا احتدم الرهان بين فريقين يرى أحدهما أنك ابنة أخت العميد، بينما يرى الآخر أن القرابة باطلة لأن «زين الدين» هو اسمك الثاني رأسًا. إنني أحد المراهنين من الفريق الثاني، وفي كل الحالات كان يجب أن يتطوع أحد بقطع الشك ونيل اليقين. هذا المتطوع هو أنا بكل تواضع.

هكذا...

بلغت الشائعات هذا المدى الجارح إذن.

لا أحد بوسعه أن يتخيل حصولي على المركز الأول طوال هذه الأعوام الدراسية دون أن تربطني أدنى صلة قرابة بأحد المراكز القيادية في الكلية.

أخرج نعمان إحدى سجائره وبدأ في تدخينها بطريقته المميزة التي لم تتغير طوال خمسين عامًا: يُقرِّب العلبة من فمه ويلتقط السيجارة من داخلها بشفتيه، وعندما يشعلها ويأخذ نفسه الأول يضعها بين إصبعيه الخنصر والبنصر، وينفث عمودًا رأسيًا من الدخان الأبيض ينم عن مدى اتساع رئتيه، وعن انغماسه العميق في نشوة النيكوتين.

صمتُّ أراقب طقوس تدخينه المميزة، حتى قاطعني:

- الآن ماذا؟

سألته في جمود:

- تريد أن تعرف؟

- إن كان هذا لا يضايقك.

- كلا، لست أمتُّ إلى أحد هنا بأي صلة قربى.

وتركته على الفور، ليدوي خلف ظهري صياح النصر، وهرولة الفتى نحو المتطلعين إلى وقفتنا من بعيد، حاملًا إليهم الخبر اليقين، الذي لم تطل مصداقيته طويلًا.

سرعان ما انكشفت الحقيقة، وعرف الجميع أني كنت أكذب.

نعم، كنت ابنة أخت عميد الكلية فعلًا، لكني كنت أمقت هذه الحقيقة بشدة.

أمقتها لأنها تسحب مني كَدِّي واجتهادي وسهر الليالي، وتلخص تفوقي وحصولي الدائم على المركز الأول في تهمة أُنكرها وشرف لا أريد أن أدعيه: إنني قريبة الدكتور فلان الفلاني.

لم تكن أمي طبيبة، ولم يكن أبي طبيبًا، ولم تكن تربطني علاقة قوية بخالي العميد، لدرجة أني كنت أتحاشى الظهور

معه سواء في داخل الحرم الجامعي أو خارجه، لكن الأوغاد فعلوها ونبشوا في كل شيء حتى يقللوا من شأن نجاحي في اقتناص المركز الأول.

هكذا يتساوى الجميع في بلاد تنعدم فيها معايير المساواة، وأجد نفسي جنبًا إلى جنب في قائمة الأوائل مع فتى لم يكن هنا ولم يدخل الامتحان ولم يتعب نفسه أنملة في استذكار سطر واحد، لمجرد أن والده واحد من ديناصورات مراكز القوى!

لم يكن من الممكن إخفاء هذه الحقيقة إلى الأبد على أي حال، خصوصًا أنني عُينت بعد تخرجي وفترة الامتياز على الفور معيدة في الكلية، وكان احتكاكي بخالي العميد حتميًا، غير أني خرجت من هذا الموقف بنصر ما على الأقل.

لقد تعرفت على نعمان، انفتح بيننا باب لم يُغلق حتى اليوم.

حتى اللحظة.

كنا نتقابل بعدها تحت الشمس وأمام الجميع في كافتيريا الكلية، وبأمومة أجهل مصدرها كنت أنغمس في شرح كل الدروس بإخلاص عجيب، وأمضي أوقاتًا طويلة في كتابة ملخصات ليذاكرها، وتقارير دراسية يقدمها للأساتذة مكتوبة

بخطي وعليها اسمه، وهو ما كفل له النجاح بترتيب متقدم للغاية في سنة التخرج، وما كفل لي علاقة ذات مستوى أعلى به.

عندما سحب نعمان سيجارته من جيب معطفه الأبيض في منتصف فترة الامتياز لينفث دخانها في عمود من الهواء الرأسي، كنت موقنة أن عبارته التالية سوف تكون السؤال المنتظر:

ـ عصمت، هل توافقين على الزواج مني؟

بالطبع وافقت.

إن الباب الذي انفتح بيننا لن ينغلق حتى نهاية العمر، تلك النهاية التي اقتربت حثيثًا الآن بحكم السن على الأقل، لكن هذا لم يكن ما أفكر فيه وقتها بطبيعة الحال.

خطبتنا لم تكن أكثر من حفل عائلي بسيط، اشتمل على لفيف من خيرة أطباء البلاد. حفل أقرب إلى افتتاح مؤتمر طبي تدوي فيه المصطلحات اللاتينية، وتحتدم فيه النقاشات الجانبية حول نقاط علمية جدلية، وفي المنتصف أنا بثوب سماوي بسيط أحيي الحضور، وفي الشرفة نعمان وحيدًا غارقًا في تأملاته، وفي نفث أعمدة الدخان بينما السيجارة تلو الأخرى تهتز بين خنصره وبنصره.

وحْدته هي عالمه الخاص الذي فشلت في اختراقه كل هذه السنوات. للحق إني لم أحاول.

كنت أحترم صمته، وأنشغل في مهامي التي لا تنتهي، حتى يقرر هو الخروج من دائرة العزلة، فيخرج، ولم أكن أشغل نفسي بنوع الأفكار التي تراوده في شروده المتكرر.

ما دام سيخرج في النهاية فهو لم يصب بالجنون بعد، وهو ما سيكفل لنا الاستمرار. ما هو الأهم من هذا؟

تحدد موعد الزواج بعد الخطبة بأشهُر قليلة، وبمجرد إنهاء نعمان لفترة امتيازه تزوجنا في حفل عائلي آخر أكثر بساطة وأقل حضورًا، ففي فجر يومها كان علينا أن نحمل حقائبنا ونتجه رأسًا إلى المطار، لتنطلق بنا الطائرة إلى كاليفورنيا، حيث سأقضي بضع سنوات في تحضير الماجستير والدكتوراه: بعثة علمية على حساب الدولة أعود منها وقد أضيف إلى اسمي حرف الدال على استحقاق وجدارة.

نعمان؟!

لقد سجل لدرجته العلمية على نفقته الخاصة هناك، لكنه حصل عليها بشق الأنفس. كان الأمر أكثر صعوبة عليّ أنا، إذ كنت مضطرة لممارسة عمل اثنين، كنت أذاكر دروسي ودروسه، أبحث عن المادة العلمية لرسالتي ورسالته، أسقيه

الكتب بالملعقة كطفل عنيد لا يكترث لأمره، يكفيه شروده وسجائره ومشاهدة السينما وقراءة القصص المصورة والنوم حتى ساعة متأخرة، طفل عنيد بكل معنى الكلمة.

الذي أجبرني على كل ذلك ليس مجرد حبي له (لا أجرؤ بعد كل هذه السنوات على تسمية ما بيننا بالحب طبقًا لما يكتبه الروائيون وما يصنعه السينمائيون وما يشعر به الرومانسيون)، بل كان السبب هو حبي «لي» لو جاز التعبير.

ببساطة أكثر، كان يتوجب أن أكون زوجة لرجل ناجح، وحتى لو كان نعمان زاهدًا في النجاح فهذا ليس عذرًا كافيًا لكي يفشل، على أن أصعد به فوق كتفي ما دمت قد قبلت به زوجًا وشريك حياة. وما دامت الأقدار قد ألقت به في طريقي كاختيار وحيد، فعليّ أن أكون قوية بما يكفي لإثبات قدرتي على صناعة حياة رجل وامرأة معًا، وعلى صهرهما في بوتقة واحدة تكون بمثابة مرآة لامعة تعكس نجاحًا مستقرًّا مهما كلفني ذلك من مشقة.

مضت سنوات البعثة ثقيلة في كاليفورنيا. أنا أتمزق بين مجهود العمل والاستذكار وتحضير دراساتي ودراساته بالإضافة إلى مجهود تدبير شؤون المعيشة العنيف، وهو يمارس كل أنواع النزوات الممكنة وغير الممكنة، يدخن السيجار والغليون ثم يسأم، يحاول تعلم العزف على آلة

موسيقية ثم يسأم، يلعب الشطرنج مع نفسه ويتعلم خططًا جديدة ويقرأ كتب المحترفين في اللعبة ثم يسأم، يحاول رسم لوحات تجريدية بلا معنى ثم يسأم، يشرع في كتابة مذكراته ويكتب أكثر من ألف صفحة في رواية ثم يسأم، يمزق الأوراق واللوحات ويحطم الآلة الموسيقية ويلقي بعلبة السجائر من الطابق الأخير ثم يشتري واحدة جديدة ويدخن من جديد!

الغريب أنه كان يفعل كل شيء في هدوء قاتل، يتحدث قليلًا، يبدو كمشروع قاتل تسلسلي ناجح في بعض الأحيان، وكنت أنا مزورَّة عنه في الغالب، مشغولة حتى النخاع في أبحاثي وكتبي، وأبحاثه وكتبه.

تُرى، مَن كان يتعين عليه منا أن يحتمل الآخر أكثر؟

كنت أقول لنفسي: ليفعل ما يريد، ما دام بعيدًا عن النزوات النسائية فليشغل نفسه فيما يحب، وحتى عندما اكتشفت انغماسه في نزوة من النوع الأخير لم أشعر بغضب، لم أشعر باستياء، لم أشعر بغيرة، وتعاملت مع الأمر ببساطة جعلتني أشك في أنوثتي لوهلة، قبل أن ألقي بصورته مع «جيسيكا» خلف ظهري وأعود لممارسة تفاصيل حياتي الصغيرة.

مرت نزوته هذه سريعًا كما مرت كل النزوات الأخرى، وتناسلت النزوات وتكررت مع «جيسيكا» نفسها، ومع

أخريات أمريكيات وطالبات من جميع الجنسيات الأخرى، ولم أعطه أو أعطهن أنا اهتمامًا حقيقيًا، فسنوات البعثة كانت قد قاربت على الانتهاء، وكان نعمان قد وجد ضالته أخيرًا في هواية استمرت معه طويلًا هذه المرَّة.

تربية القطط!

لم ننجب حتى الآن، لأسباب قد يكون مردها إليّ أو إليه، إذ لم ينفتح بيننا هذا الموضوع مرَّة واحدة طوال خمسين عامًا، وبالتالي لم تتح لنا فرصة استكشاف السبب الحقيقي طبيًا أو نفسيًا، ولم أولِ اهتمامًا كبيرًا للأمر في خضم حرصي على الدراسة والتفوق المعتاد في أبعد بلاد العالم، وعندما كان الأمر يجول بخاطري كنت أهز كتفي وأقول لنفسي: إن هذا قد يعود لحسن الحظ، فكيف سأتمكن من رعاية طفل في حين أنني من تقوم بكل المسؤوليات وحدها؟! وكيف يمكنني المحافظة على تفوقي وتوسيع دائرة علاقاتي الأكاديمية وفي نفس الوقت إتمام دراسة نعمان المتعطلة، بينما هناك طفل يصرخ طالبًا الرضاع أو تغيير الكافولة المتسخة؟! بل كيف سأنجح في تربية طفلين أحدهما حقيقي والآخر، نعمان؟!

كان الوضع مثاليًا بالنسبة إليّ، أما نعمان فهو لم يصرح قَطُّ برغبته في الإنجاب، ولم أفسر نزواته النسائية يومًا على أنها

بحث عن الذرية، فقد كنت واثقة أنه لن يتورط أبدًا في علاقة زواج، بل وكنت أحدد بيني وبين نفسي الموعد الذي سينهي فيه علاقة ما، وأراهن على الموعد إمعانًا في الثقة، والغريب أنني نادرًا ما خسرت رهانًا من هذا النوع، أكاد أجزم أني لم أخسر رهانًا واحدًا لكن من أين بذاكرة جبارة تحفظ كل الحوادث بحذافيرها؟!

هل كانت هوايته الجديدة ـ التي أثبتت كونها ليست محض نزوة ـ في تربية القطط عبارة عن محاولة أخرى للتعويض عن عدم وجود أطفال في حياتنا؟!

ليتني أعرف.

كنت أراقبه يداعب القطط، ويهتم بنظافتها، ويضع لها الطعام والحليب، فيقشعر بدني دونما سبب واضح، وفي إحدى المرّات التي اندمج فيها في مداعبة قطته الأولى «بيلا» إلى حد أن أخذ يتقافز فوق الأرض ويضحك بصوت عالٍ ويأخذها بين يديه رافعًا إياها في الهواء كمن يدلل طفلًا صغيرًا. في هذه المرّة بالذات انهارت مقاومتي وسقطت كل حيلي الدفاعية، فلم أشعر بنفسي إلا وأنا أغلق باب الحمام من الداخل، ثم أجهش ببكاء عنيف اهتززت له في قوة كاسحة.

مسحت دموعي ونظرت إلى نفسي في المرآة، نهران من

الدمع المالح على وجنتي ينبعان من عينين حمراوين، ويومها رأيت شعرتي البيضاء الأولى رغم كوني في منتصف الثلاثينيات ليس إلا!

لكن...

لأن النسيان نعمتنا الكبرى يمضي كل شيء، وتمضي الأيام حتى نعود إلى القاهرة أخيرًا.

المرَّة الوحيدة التي رأيت نعمان ثائرًا فيها كانت عندما أصر ضابط الجوازات المصري في المطار على أخذ «بيلا» ليضعها في الحجر الصحي.

ثورته العارمة أشعرتني باكتئاب طويل، ولم يرتح نعمان حتى أخرج «بيلا» وقطة أخرى مولودة حديثًا أصر على شرائها بثمن باهظ من داخل الحجر الصحي، وأعادهما إلى المنزل بعد أيام لم يذق فيها للنوم طعمًا، ولا أنا.

عدت لممارسة عملي كأصغر أستاذ مساعد في الكلية، وافتتح نعمان عيادة طبية نادرًا ما ذهب إليها، وكنت مصرة على استمرارها مفتوحة عن طريق استئجار أطباء صغار لمعاينة المرضى فيها، وأفسر أمام الجميع غياب نعمان عنها بسفره الدائم لحضور مؤتمر في الخارج، أو بانهماكه في تحضير بحث علمي جديد يلتهم أغلب وقته، أو لأسباب

أخرى لم ينضب معين اختلاقها قَطُّ.

لا مشكلة في أن الزبائن قلة، ولا يهم أن الأطباء الصغار يلتهمون دخل العيادة بالكامل شرعًا أو زورًا، لدرجة أني كنت أدفع مصاريف الكهرباء والمياه من جيبي الشخصي آخر الشهر، فقط كي تظل العيادة مفتوحة، وكي تظل اللافتة التي تحمل اسمه مضاءة بالفلورسنت.

مضت سنوات قليلة حتى ترقيت إلى درجة الأستاذية، وحتى صعد خالي الذي كان عميد الكلية إلى منصب وزاري مهم، وكان صعوده هذا هو الذي غيَّر مجرى حياتي، وهو السبب في وجودي في هذا المكان الصغير الهادئ، الذي أنتظر فيه مكالمة نعمان الآن.

بعض الحوادث أذكرها بوضوح ضوء النهار. وهل يمكن أن ننسى نقاط التحول المفصلية في حيواتنا القصيرة؟

جاءت سيارة الوزارة لتقلني من الجامعة دون أن أفهم لذلك سببًا في البداية، إنها أوامر سيادة الوزير كما أخبروني، وفي الطريق أعياني التفكير في سبب الاستدعاء الفوري هذا، وقررت في النهاية أن أريح نفسي وأن أتوقف عن التفكير، أصدرت ألف قرار من هذا النوع لكني فشلت في تنفيذ تسعمائة وتسعة وتسعين منها، وفي المرة الألف كنت أجلس أمام خالي الوزير شخصيًا.

ـ ليس هناك مَن يمكنني الوثوق في كفاءته أكثر منك للاضطلاع بمهمة صعبة كهذه يا عزيزتي عصمت.

كان خالي يتنفس بصعوبة، وينطق الكلمات بحنجرة مشروخة، فهو قد تجاوز الخامسة والثمانين، ومع هذا يجلس على قمة هرم وزاري مهم في بلاد مصابة بتصلب الشرايين، ويطلب مني كشابة (في الأربعين) أن أضطلع بمهمة صعبة لا أعرف عنها شيئًا.

ـ أتمني أن أكون عند حُسن ظنك دائمًا يا دكتور.

ألقى نحوي بملف متخم بالأوراق:

ـ لدينا مشروع لإنشاء كلية طب في إحدى الجامعات الإقليمية، ولا يوجد من هو أكفأ منك ليقوم به. لقد رشحتك على مسؤوليتي الخاصة رغم ما في ذلك من شبهة لاستغلال صلة القرابة التي بيننا. بالمناسبة، كيف حال والدتك الآن؟

تجاوزت السؤال، فوالدتي التي هي شقيقته ماتت منذ سنة تقريبًا وهو عاجز عن تذكر ذلك على ما يبدو!

خرجت من مكتبه، وانغمست في تنفيذ المشروع ثلاث سنوات كاملة، حتى رأى النور أخيرًا، وجلست فوق مقعد العميدة: أصغر عميدة لكلية طب في الشرق الأوسط،

وبانتخابات حرة بين أعضاء هيئة التدريس قبل أن يتدخل الحرس الجامعي بأنفه البغيض في تنصيب أكثر من لا يليق على المقعد المقدس هذه الأيام.

نعمان؟

لقد انتقل بقطته وسجائره معي إلى هذه المدينة نصف الساحلية الجميلة، «بيلا» ماتت وانصب اهتمامه على القطة الصغرى «لولي». معدل استهلاكه للسجائر أصبح بشعًا، خصوصًا بعد أن عينته في منصب وكيل الكلية لشؤون التعليم والطلاب، حتى يكون مكتبه بجوار مكتبي، وحتى يتسنى لي الإشراف الكامل على عمله.

بالأحرى ممارسته كاملًا نيابة عنه.

كانت الكلية الجديدة هي ابنتي التي لم أُرزق بها، التي لم تنزلق من رحمي.

وضعت فيها كل جهدي وعلمي وسنين خبرتي وطموحي وكبتي وعجزي، أبرمت اتفاقيات تعاون مع جامعات أوروبية وأمريكية، اقتبست مناهج التعليم المتطور والأساليب الحديثة من هناك، والتي تناقضت مع الأنظمة البالية التي تطبقها كل الكليات الأخرى هنا، فكان الاصطدام مع أساطين المجتمع العلمي والمافيا الأكاديمية العلنية والسرية حتميًا.

نشبت عشرات المعارك بيني وبين عمداء الكليات الأخرى وعماليق نقابة الأطباء وأحفوريات وزارة التعليم العالي نفسها بعد أن ترك خالي كرسيه الوزاري إلى قبره بالطبع، لدرجة أن هدد بعضهم بعدم الاعتراف بخريجي كليتي كأطباء لأنهم لا يتلقون تعليمًا طبيًا سليمًا، وكانت معركة ضروسًا، خضتها بحماس على صفحات الجرائد وفي وسائل الإعلام لإثبات أن التغيير لا يعني بالضرورة النزول إلى درجة أدنى على سلم التطور التعليمي، وإنما قد يعني درجة أعلى من منظور آخر.

وخرجتُ منتصرة.

كان النظام التعليمي الذي وضعته فريدًا من نوعه فعلًا، ينبذ الدروس الخاصة والمذكرات المطبوعة والكتب المقتبسة بالنص من مصادر أجنبية عن طريق نصوص صريحة في اللائحة المنظمة للعمل الأكاديمي والإداري، ويجعل من الطالب محورًا للعملية التعليمية لا الأستاذ، مما ينزع عن الأخير سلطاته اللامحدودة التي يُساء استغلالها في أغلب الأحايين، ويعطي فرصة حقيقية أمام المجتهد للتفوق، بينما يضرب في مقتل نظرية مراكز القوى التي استشرت كأورام سرطانية في أكباد جامعاتنا.

أخرجت الكلية أجيالًا حقيقية رفيعة المستوى يشهد

ببراعتها الأخصائيون قبل المرضى، والقاصي قبل الداني، أما قانون الطبيعة والحفاظ على النوع فهو ما جعل الفاسدين يتوجسون خيفة من القضاء عليهم، وكشف ما سترته سنوات الاستبداد واستغلال السلطة والنفوذ، وجعلتهم غريزة البقاء يتربصون بي في حذر، إلى أن خرجتُ من منصب العمادة بعد سنوات وسنوات تاركة خلفي صرحًا طبيًّا أكاديميًّا عملاقًا، وبالطبع خرج معي نعمان في ظروف نفسية سيئة نظرًا لموت عزيزته القطة الثانية «لولي»، ليجيء الدور على «بوسي» التي تعبث بقدمي الآن في دلال، وقد اشتراها بثمن باهظ هي الأخرى عبر سمسار حيوانات أليفة نصاب، وأخذ يشرح لي في حماس الكثير عن أصالة نسلها دون أن أعطيه أذنًا مصغية.

كان الأوان قد آن أخيرًا كي أستريح.

وبعد خمسين عامًا من الصراعات والمبارزات والعمل المتواصل وتحمل المسؤولية الفردية آن لي أن ألتقط أنفاسي، وكانت الفرصة سانحة أيضًا أمام نعمان لكي يمارس نزوات أخرى على مشارف السبعين، ولكي ينعم بصحبة قطته وشراهة تدخينه لأصناف جديدة من السجائر، لكن القدر وقف له - ولي بالتبعية - بالمرصاد، فالسجائر قد جلبت علينا بعد نصف قرن من الإدمان ما لم نكن ننتظره رغم أنه

كان أمامنا طوال الوقت على صفحات الكتب الطبية الضخمة.

سرطان الرئة!

آلام مبرحة في الصدر، ضيق في التنفس، تعرق ليلي، أرق طويل، هزال عام، بصاق دموي، وكان التشخيص سهلًا عبر الأشعة ومؤكدًا عبر العينة النسيجية.

نعمان يعاني من سرطان الرئة.

شهور ونحن في قلب دوامة عنيفة من العلاجات الكيماوية والإشعاعية والجراحات البسيطة والعميقة، أنا التي تضطلع بكل شيء كالمعتاد، لا أكاد أكتشف علبة سجائر مخبأة تحت الوسادة حتى أخفيها، ولا يكاد نعمان يكتشف اختفاءها حتى يُخرج غيرها من «القاروصة» التي يخفيها تحت السرير نفسه، وهكذا تنتهي دائرة القط والفأر فقط لتبدأ من جديد.

كان نعمان يذوي ببطء كشجرة عجوز ينخر في جذعها سوس السرطان، وكنت بجواره.

لأول مرة أشعر كم هو شاسع ذلك التنائي بيننا، ولأول مرة أتمنى لو أننا كنا أقرب، بالأحرى أبعد قليلًا!

لو أن الحياة الواحدة التي عشناها ككائن واحد كانت حياتين منفصلتين، تتداخلان أحيانًا وتنفصلان أحيانًا! هذه هي الحياة الحقيقية التي كنا نستحقها، لكننا أفسدناها بحماقة احترافية، وليس لأي منا أن يتنصل من مسؤوليته، لا أنا ولا هو.

كل العلاجات لا تفلح في القضاء على أصل الداء، والكتب الطبية صريحة في هذا الصدد: سرطان الرئة من أكثر السرطانات توحشًا إن لم يكن أكثرها على الإطلاق، فرص النجاة محدودة إن لم تكن معدومة، فترة البقاء المتوقعة بعد اكتشاف الداء لا تتجاوز السنتين إن لم تكن ستة أشهُر، وهكذا كنت أحاول التعايش مع فكرة اقتراب النهاية إلى حد الملامسة.

ولا أزال.

الغريب أن المرض، الألم، الاقتراب من الموت، أو أي تعبير مشابه هو الذي دفع نعمان ليتخذ أول قرار في حياته حسبما أذكر.

منذ أسابيع قليلة أتاني في جلستي الوحيدة ساعة غروب الشمس، العادة التي أدمنتها عبر سنوات طويلة تبدأ من كاليفورنيا، وتنتهي هنا الآن في شرفة المنزل المطل على البحيرة، آخر ما تبقى لنا في هذه المدينة التي شهدت ميلاد

روضة الكتب حرامية

ابنة وحيدة لي لم أرزق بها ولم تنزلق من رحمي، قبل أن يخطفها قُطاع الطرق وأبناء الليل على مرأى مني ومسمع، وعجز أليم!

أتاني نعمان وأنا جالسة أحتسي القهوة منزوعة الكافيين، وأراقب النوارس التي تحط في سرعة لتصطاد قُوتَها السمكي اليومي، وخرج صوته منهكًا:

ـ هناك أمل.

التفتُّ إليه في دهشة ذكرتني بلقائنا الأول، وحاولت التغلب على رعشة يدي واختلاج وجهي:

ـ حقًّا؟

سعاله الذي يخرج من أعماق روحه، ثم:

ـ أجل، الدكتور خالد يقول إن هناك أملًا في عملية جراحية يجريها جراح متخصص في جنيف. ستكون مكلفة قليلًا ولكن...

الدكتور خالد هو واحد من الأجيال التي خرجت من كليتي، أذكره جيدًا منذ كان طالبًا حتى حصوله على الدكتوراه في جراحة الأعصاب، وهو لا يفتأ يزورنا باستمرار بعد خروجنا من كرسي المنصب على عكس الكثيرين.

قاطعته على الفور:

- جهز حقيبتك إذن.

- لكن...

- لا نقاش.

- ألن تأتي معي؟

- ومَن سيرعى «بوسي» في غيابك؟

كانت حجة مقنعة، لذا سافر وتركني أبحث عن سبب حقيقي لعدم ذهابي معه، دون أن أجد واحدًا حتى هذه اللحظة.

حتى هذه اللحظة التي أجلس فيها بانتظار مكالمته اليومية في نفس الموعد.

الغروب والقهوة والنوارس التي تلقط أسماكها بمناقيرها، حتى يرن جرس الهاتف، الرنة الطويلة المميزة للمكالمات الدولية.

أقرب السماعة من أذني وأضغط زر «Talk»، أستمع قليلًا إلى الصمت على الطرف الآخر، قبل أن أقول مغالبة دمعة تحاول الفرار دون جدوى، منذ فرت آخر شقيقاتها عندما حبست نفسي في دورة المياه قبل سنين بعيييييدة:

عودة الكتب حرامية

- كيف حالك الآن يا نعمان؟

سعاله الذي يمزق روحه - وروحي.. روحينا - إجابة كافية، ثم صوته الواهن:

- لا أدري، الطبيب ما زال يؤكد أن هناك أملًا.

الصمت من جهتي، والدمعة لا تجد مفرًّا.

- الممرضة الألمانية الجميلة أيضًا تؤكد نفس الأمر، ولأنها جميلة فأنا أصدقها طبعًا رغم أني في الألمانية أجهل من دابة كما تعلمين.

أبتسمُ رغم سواد الموقف:

- كف عن هذا يا نعمان، عار عليك في سنك هذا.

- سأراك ثانية يا عصمت. ستتقابل مرة أخرى، لا تقلقي.

يقولها بثقة لا أدري من أين يستمدها، بينما أغلق أنا السماعة كأني أهرب.

سأقول له فيما بعد إن الخط قد انقطع من تلقاء نفسه، ولن أخبره أبدًا بأمر تلك الدمعة التي نجحت في الفرار، بعد كل هذه السنين.

من تلقاء نفسها.

2

غدًا يوم آخر، هكذا علمتني الحياة.

صحوت من النوم باكرًا جدًّا كعادتي، بمزاج متعكر كسطح البحيرة التي يطل عليها المنزل بعد عاصفة عاتية، على غير عادتي.

نظرت في المرآة ليطالعني وجه الحيزبون الشمطاء التي هي أنا، بعينين منتفختين، وشعر قطني أبيض هائش، وتجاعيد تأكل روحي أكلًا. صرخت أنادي «أم محمود» فأتت مهرولة بقدها السمين، طلبتُ منها أن تساعدني في النهوض وارتداء ملابسي، وأن تعد لي قهوتي الصباحية المُرَّة، ثم جلستُ في الصالة أمام التلفاز المفتوح على إحدى الفضائيات حيث تغني إحدى الفتيات المائعات أغنية شبابية إيقاعاتها راقصة:

أخبارك إيه.. حبيبي؟

طمني عليك.. حبيبي

واحشنّي عينيك.. حبيبي

أخبارك إيه؟

كلمات ركيكة ولحن مبتذل وفتاة تتاجر بجمالها، أي تردٍّ

في هوة سحيقة بلغته فنون هذه الأيام؟!

لن أفهم مزاج هذا الجيل أبدًا.

وضعت أم محمود القهوة أمامي ولم تنصرف إلى أمورها المنزلية كعادتها.

رشفتُ من القهوة المُرَّة، ثم نظرتُ إليها:

ـ ماذا هناك يا امرأة؟

سألتُها في جفاء. لو أنها تريد أن تطلب مني أي شيء، فهو ليس الوقت المناسب على الإطلاق.

ـ سلامتك يا دكتورة.

تقولها واضعة كفًّا فوق أخرى على سُرتها وعيناها ساقطتان في الأرض، ثم تنطلق:

ـ خدمة بسيطة فقط.

على الإطلاق!

ـ ابن أختي مريض عندكم في المستشفى الجامعي و... زوجها معدم، وكانت تسألني إن كان في الإمكان أن يتم علاجه على نفقة الدولة.

على الإطلاق يا أم محمود.

وضعت الفنجان في طبقه الفخاري بيد مهتزة غضبًا وانفعالًا، قبل أن أهتف فيها:

- وهل أخبروك أنني مندوبة الدولة لعلاج الفقراء؟!

ذهلت المرأة البسيطة التي لم تتوقع ردة فعلي، ولم تفهم تقلباتي رغم عِشرة سنين من الخدمة المنزلية بكفاءة أعترف بها:

- العفو يا دكتورة، ولكن...

لم تجد ما تتم عبارتها، ولا بد أنها فكرت في الانسحاب الإستراتيجي، لكن كلماتي انطلقت فيها كطلقات مدفع آلي بين يدي مخبول:

- ليقدم أوراقه إلى الجهاز الإداري في المستشفى كأي مواطن عادي، فقد عشت حياتي كلها أمقت استغلال السلطات وأحارب الفساد وحدي، وحدي تمامًا، هل تفهمين يا امرأة؟!

لم يبدُ أنها استوعبت حرفًا مما أقول، لكنها هزت عنقها السمين وهتفت:

- طبعًا يا دكتورة. آسفة جدًّا.

وانسحبت إستراتيجيًا.

تركتني أزفر بعمق، وأحاول إيجاد سبب معقول لمزاجي المعتل، الذي زاد من اعتلاله أن لحن الأغنية البغيضة المعروضة على الشاشة الصغيرة قبل قليل قد التصق بذاكرتي، حتى إنني قبضت على أصابعي متلبسة بنقر الإيقاع الراقص على ذراع أريكة الصالون.

تبًّا لكل شيء!

سأذهب اليوم إلى الكلية، ففي هذا المزاج العاصف يبدو الحال مناسبًا لركل بعض المؤخرات كما يقول الأمريكان في أحد أمثلتهم الشعبية السوقية.

أتى جلال سائق سيارتي «البيجو 504» الخاصة منذ سنوات، وهو في نفس الوقت شقيق أم محمود، وقد أقلني في صمت القبور. يبدو أن أم محمود قد أفهمته ألا يحاول التلفظ بأي كلمة معي، وإلا لقي ما يكره.

لحُسن الحظ أنها فعلت.

عدد غلاوة الشوق يا حبيبي باهدي لعينيك سلامات

والله بكرة تروق يا حبيبي وأحكيلك الحكايات!

الأغنية اللعينة وإيقاعها الراقص مرة أخرى.

اخترقت بنا السيارة بوابة الكلية، وتراءى لعيني إنجاز

عمري الأضخم متمثلًا في عدة مبانٍ تعليمية يتصدرها مستشفى جامعي أنيق مبني على شكل الحرف اللاتيني «H» من المسقط الرأسي بحيث يبدو للطائرات من الأعلى واضحًا أنه مستشفى في حالة حدوث هجوم جوي عسكري لا قدر الله.

كانت هذه فكرتي المواكبة لأحدث أنظمة البناء المعمارية أيامها.

هناك مبانٍ أخرى لمعهد التمريض وسكن الطلاب والطالبات وعدد من المباني الإدارية والمخازن، يربط بينها جميعًا شريط ضيق من الأسفلت تتهادى فوقه السيارة، متيحة لي الفرصة أن أحارب انزعاجي المجهول المصدر بالتأمل في تغيرات شملت كل شيء.

يا للزمن الطويل!

كان المكان هنا عندما تسلمته محض صحراء جرداء صفراء الرمال، واليوم هو مدينة طبية كاملة تشغي بالمرضى والأطباء وطاقم التمريض والموظفين والإداريين والأكاديميين والطلبة، حياة تخلقت من رحم العدم، وكنت أنا من أستقبلها للحياة كطبيبة توليد متحمسة.

يا للزمن!

كل شيء تغير منذ كنت العميدة حتى اليوم، رجال الأمن انتشروا في الكلية أكثر، السيارات كثرت وأصبحت أكثر حداثة وفراهة، الفتيات تحررن وصرن يرتدين سراويلات ضيقة ـ هل أقول فاضحة؟! ـ من الجينز، وتبدو بطونهن في موضة المعدة «stomach» الشائعة هذه الأيام في مقابل أخريات لا يظهر منهن إلا أعينهن داخل النقاب الأسود المنسدل، الصبيان أطالوا شعورهم واتسعت سراويلاتهم حتى يكاد الواحد يسقط من صاحبه أرضًا.

أحوال تتغير، وأحوال أخرى لا تتغير.

سيارة الإسعاف تخرج بنفير مدوٍّ لإنقاذ روح جديدة، أهالي المرضى يفترشون الحشائش الخضراء خارج قسم الطوارئ ما بين يأس ورجاء، أحد الأهالي يصرخ طالبًا بعض العدالة والاهتمام من أطباء منشغلين حتى النخاع في مهام أخرى، بعض الطلبة في الجوار يركلون قطعة من الصفيح ـ كانت في الأصل علبة مياه غازية ـ فيما بينهم كأنهم يلعبون الكرة بالمعاطف البيضاء، على ظهر سيارة شاب وشابة يتناجيان ببسمات ما زال الخجل يعتريها رغم ابتذال العصر، البعض الآخر يهرول نحو قاعة المحاضرات والمعامل، أحد الطلبة يجلس على طوار المرآب ممسكًا بجيتار يعزف عليه لحنًا لا أسمعه، يرنو إليه شاب بدين بقبعة على رأسه ويلقي له

بعض العملات على سبيل الاستظراف واستجلاب ضحك الفتيات.

تغيرت الأمور حقًّا وإن كان بعضها بقي على ما هو عليه.

ما زلت أحاول التغلب على إيقاع الأغنية السخيفة:

مشتاقة.. يا حبيبي.. مشتاقة

والغربة.. سرَّاقة

فين عيونك.. فين؟

وجلال أنزلني من السيارة أمام مبنى «العميد»، هكذا يطلقون عليه منذ كنت أنا التي تقوم بمهام هذا المنصب، وكالعادة أطل الجميع من النوافذ وتحلق الواقفون من بعيد ليروني أسير بصعوبة، متوكئة بيد على عصاي وباليد الأخرى على ذراع جلال، وكنت قد ألفت مصمصة الشفاه وهز الرؤوس وتعاطف العيون الشامتة من زياراتي السابقة للكلية على فترات تتباعد مع الوقت.

- أهذه هي التي كانت كلمتها تهز أركان الكلية؟!

- حقًّا، إن الكِبَر عِبَر!

وعبارات أخرى تصلني رغم ثقل سمعي المكتسب حديثًا، فأتجاهلها رغم أن هذا لا يجعل يومي أفضل، ولا يجعلني

أشعر بأدنى تحسن.

في مكتب العميد قابلتني السكرتيرة بالترحاب، وهي شابة لا تصلح لتثبيت زر في قميصي، لا إدارة مكتب شخصية مهمة مثل عميد الكلية، لكني لن أضيع طاقتي السلبية على من هم دون مستوى التفريغ.

- أين عزت؟

سألتها في جفاء، متعمدة ألا أضع أمام اسمه لقب «دكتور»، فأجابتني بآلية فجّرت قناع ترحابها الزائف:

- الدكتور عزت في اجتماع المجلس الآن.

مجلس الكلية تعني، رائع.

هذا أجمل مما تصورت، سأركل الكثير من المؤخرات إذن.

تركتها واتجهت من فوري إلى غرفة الاجتماعات الصغيرة الملحقة بالمكتب مستندة على عصاي، ومنتعشة بطاقة جبارة خفية المصدر، بينما تجمدت السكرتيرة ومن خلفها جلال في ذهول صامت.

فتحت الباب واقتحمت الحجرة دون سابق إنذار أو طرقات مهذبة، التهذيب غير مجدٍ مع هؤلاء، هكذا علمتني الحياة فيما علمتني، وقد علمتني الكثير.

قطع اقتحامي المباغت حديثًا تافهًا كان يدور هنا مع أكواب الشاي وفناجين القهوة وقطع الجاتوه الصغير «سواريه» وعيدان «الباتون ساليه»، واتجهت نحوي أعناق وعيون العميد ورؤساء الأقسام وأصحاب الحظوة السامية من أطباء وطبيبات شبان وشابات.

نظراتهم المتسائلة سرعان ما تحولت ذهولًا لا يقل أنملة عن ذهول السكرتيرة وجلال بالخارج، إن لم يزد أضعافًا مضاعفة، وسرعان ما تمالك الدكتور عزت نفسه بصلعته اللامعة وبسمته الأكثر لمعانًا وأناقته الفاضحة التي تكاد تعشي بصر من ينظر إليها مباشرة، فنهض من على مقعده، كما كان يفعل مسبقًا عندما يدخل مكتبي، أعني أنه انتفض واقفًا للدقة، وهلل في سعادة تعسة:

ـ الدكتورة عصمت بنفسها؟! أكاد لا أصدق نفسي. غير معقول!

مضيت خطوتين نحوه وعكازي يدق الأرض الخشبية، فيما أقول بصرامتي المألوفة:

ـ أشياء كثيرة غير معقولة لكننا نضطر لقبولها لأننا لا نملك سوى القبول. أليس كذلك؟

ربما فهم مغزى عبارتي وربما لم يفهم، المهم أنه حاول

جاهدًا أن يتقي شري:

ـ لقد أنارت الكلية كلها. تفضلي واحضري معنا الاجتماع.

كأني أنتظر الإذن منه هذا الـ...

ـ أرى أنكم ترهقون أنفسكم حقًّا من أجل سير العملية التعليمية على ما يرام.

قلتها ساخرة وأنا أرمق حجم المأكولات والمشروبات مقارنة بحجم الأوراق التي يتم تدارسها، في عهدي لم أكن أسمح بـ...

بالله عليّ، ما لنا والماضي الآن؟!

قال عزت في تزلف أحفظه عنه جيدًا:

ـ إننا نسير على القواعد التي أرسيتها بنفسك يا دكتورة في أثناء عهدك المبارك.

مشكلتي هي مشكلة كل ديكتاتور في هذا العالم: كنت أطرب لسماع النفاق من حولي رغم علمي أنه محض نفاق، ولهذا سمحت للذباب بأن يتكاثر فوق طبق العسل حتى نفد العسل، وبقي الذباب ليتقلد المناصب العليا.

أنا الملومة لا غيري في وجود هذا الإمعة على رأس الكلية، أنا التي زوجته ابنتي التي لم أرزق بها والتي لم تنزلق من

رحمي، ودفعت عنه المهر، بل وأجرة المأذون أيضًا.

لكني على الأقل أستطيع لعب دور الحماة المزعجة، أستطيع أن أكون دبورًا لا يدع الذبابة تهنأ بصيدها الثمين:

- أستطيع ملاحظة هذا حقًّا يا عزت.

متعمدة ألا أضع أمام اسمه لقب «دكتور»!

- كل ما تفعلونه ينطق بسيركم على القواعد التي وضعتها، حتى إني بالكاد أذكر هذه القواعد الآن من فرط انتهاككم لها. لعلك تعني أنكم تسيرون على هذه القواعد بممحاة. أليس كذلك؟!

احتقن وجه عزت الذي لم يتوقع هجومًا مبكرًا وضاريًا إلى هذا الحد، وحاول أن يرتبك ففشل حتى في الارتباك:

- إممم. في الحقيقة. أعني. إنه التطوير ليس إلا. مجاراة قواعد العصر تقتضي...

مزاجي يميل إلى السخرية السوداء بطريقة مثيرة للشفقة والحماس:

- نعم، نعم، صدقت. مجاراة قواعد العصر تقتضي أن تسيروا على قواعدي بقلم سائل تصحيح لا ممحاة. يا لي من غبية.

ظل عزت صامتًا يحاول أن يجد طريقة تقيه الحرج أمام مرؤوسيه، مما جعل اقتناص فرصة الهجوم السهل حتميًا.

كان ينتظر ما هو أقذع من مجرد سخرية ولم أكن لأخيب ظن ذبابتي الحبيبة:

ـ لقد قضيت في وقت قياسي على كل ما ظللت أنادي به من يوم أن كانت الكلية حلمًا، مجرد حبر على ورق. الرائحة فاحت وليس في وسع أحد أن يتجاهلها، حتى أنا العجوز الشمطاء التي لا تغادر منزلها إلا لممًا تصلني أنباء انتشار الدروس الخاصة، وتفوق أبناء الأساتذة، ومحاباة هذا لصالح ذاك، وجسور المصالح الممتدة فوق وتحت الطاولة. أصبحت الكلية مرتعًا للفشلة والجهلة ومجرد ماسورة معطوبة تنفجر من آن لآخر بخريجين لا يفقهون من أمر الطب أو الحياة شيئًا، وتتحدث بكل جرأة ـ أو لعلها وقاحة ـ عن السير على قواعدي؟! هل تحاول خداعي أم أنك تخدع نفسك يا عزت؟!

رشح العرق على وجه عزت، فأخرج منديله القماشي من جيب سترته، وحاول أن يرتبك مجددًا لكنه كان فقط ينتظر الضربة القاضية حتى تنتهي المباراة لصالحي:

ـ دكتورة، إنني...

لم يكن لما أفعله أي معنى، أعرف هذا، لكن...

هل تُسأل من هي في مثل سني وحالتي الصحية والنفسية عن تبرير لما تفعله؟! ألا يكفي ما أكابده يوميًا من انتظار وقلق على نعمان؟!

لم يكن في جعبتي مزيد من التقريع، وكان عزت قد بلغ حالًا يرثى لها حتى خِلت أنه سينهار ساقطًا على الأرض في أي لحظة، فكان لا بد من قوة خارجية تنقذ الموقف دون حاجة إلى معجزة قد يطول انتظارها.

ـ أعتقد أن وجود الدكتورة عصمت اليوم سوف يكون حلًا مثاليًا لمشكلة نقص ممتحني طلبة السنة الرابعة.

كان خالد هو المتحدث، دكتور خالد ألمعي المخ والأعصاب، وواحد من الأجيال التي أفخر بخروجها من تحت يدي إبان عهدي الذهبي، لولاه لما كان نعمان يتعلق بأهداب الأمل العلاجية الأخيرة في جنيف، ولولاه لما أمكن عزت الخروج من ورطة وجودي اليوم.

لحُسن حظه أن خالد عضو نشط في مجلس الكلية!

لاقى اقتراح خالد استحسان الجالسين جميعًا، فهو حل مثالي للخلاص مني بطريقة لطيفة، على طريقة فقع البثور، لأذهب ـ ولو إلى الجحيم ـ وأتركهم يأكلون ويعملون، هذا ما قرأته على وجوههم في صراحة قاتلة.

هكذا اصطحبني خالد مشكورًا للخارج، وفي الطريق إلى المستشفى حيث تجري الامتحانات قال لي باسمًا:

ـ كدت تقتلينه يا دكتورة.

قلت حانقة، ومدركة لعدم جدوى كل ما فعلت وما سأفعل:

ـ إنه يستحق الإعدام على كرسي كهربائي.

ـ ذهبت أيام المجد لكنها قد تعود.

ـ سأكون قد مت ثلاث مرات على الأقل!

ـ وكيف حال الدكتور نعمان؟!

ـ المفترض أن تكون أدرى به مني.

ـ سأهاتفه اليوم وأطمئن عليه، وأطمئنك.

تركني خالد في غرفة العيادة الخارجية حيث يجري الامتحان، وترك لي بضع أوراق تصحيح وقلمًا وبسمة وكلمة تشجيع ووعد بلقاء قريب، وطمأنني على نعمان مجددًا، وهكذا دخل لي أول الطلبة مع امرأة في شهرها الثامن جاءت لمتابعة الحمل.

كان هو الطالب البدين الذي رأيته يتظارف عند دخولي الكلية، وكان يرتدي المعطف الأبيض وعلى رأسه نفس القبعة

هكذا اصطحبني خالد مشكورًا للخارج، وفي الطريق إلى المستشفى حيث تجري الامتحانات قال لي باسمًا:

ـ كدت تقتلينه يا دكتورة.

قلت حانقة، ومدركة لعدم جدوى كل ما فعلت وما سأفعل:

ـ إنه يستحق الإعدام على كرسي كهربائي.

ـ ذهبت أيام المجد لكنها قد تعود.

ـ سأكون قد مت ثلاث مرات على الأقل!

ـ وكيف حال الدكتور نعمان؟!

ـ المفترض أن تكون أدرى به مني.

ـ سأهاتفه اليوم وأطمئن عليه، وأطمئنك.

تركني خالد في غرفة العيادة الخارجية حيث يجري الامتحان، وترك لي بضع أوراق تصحيح وقلمًا وبسمة وكلمة تشجيع ووعد بلقاء قريب، وطمأنني على نعمان مجددًا، وهكذا دخل لي أول الطلبة مع امرأة في شهرها الثامن جاءت لمتابعة الحمل.

كان هو الطالب البدين الذي رأيته يتظارف عند دخولي الكلية، وكان يرتدي المعطف الأبيض وعلى رأسه نفس القبعة

التي رأيته بها في الخارج.

طلبت منه أن يقرأ تاريخ المرأة المرضي قبل أن ندخل في الموضوع، فخاطبني بتبسط أكرهه بأنه لم يستطع أن «يشيِّت» الحالة كاملة نظرًا لضيق الوقت.

«يشيِّت» فعل نشأ بين طلاب الطب منذ قديم الأزل، حيث يشتقون من المصطلحات الأجنبية أفعالًا خاصة بهم، لا هي عربية ولا أعجمية، من «sheet» يأتي الفعل «أشيِّت»، وهو يعني أخذ بيانات المريض وتاريخه المرضي كاملًا، من «arrest» يأتي الفعل أن المريض «يأرِّست»، أي أنه يدخل في حالة من الفشل القلبي وتوقف النبضات، من «gasp» يأتي فعل أن المريض «يجاسِب»، أي أنه يلهث في عنف، وهكذا.

ولما كنت من أشد المناهضين لهذه الأفعال اللغوية الدخيلة، كما كنت من أشد المناهضين طوال عمري لأخذ التاريخ المرضي من مريض مصري صميم باللغة الإنجليزية، وقراءته أمام الممتحن بهذه اللغة التي لا يفهمها المريض كنوع من التعالي عليه، بالإضافة إلى أن تبسط هذا النوع من الطلاب أمام ممتحن في مثل سني ومركزي لا يمكن تفسيره من وجهة نظري إلا بخطأ في النشأة أو بتركيبة عظمة سيكوباثية في نسيج الشخصية، كما أن المهزلة الكبرى التي

تجلت في جهل الطالب بأبسط قواعد الكشف الموضعي على امرأة حامل كتحديد مستوى الرحم ووضع الجنين، أضف إلى هذا دخوله إلى الامتحان معتمرًا قبعة وهو سلوك لا أريد أن أرهق نفسي بفهمه في ظل وجود درجات لتقييم مظهر الطالب، كل هذه عوامل ساهمت في وضع درجة رسوب عظيمة بضمير مستريح تمامًا، لعل الطالب المسكين يفيق إلى أن حياته كلها عبارة عن سلسلة من الأخطاء لا يمكنني تحمل وزرها.

ماذا كان اسمه؟ «مؤمن» أم «أمين»؟

لا يهم. التالي.

فتاة هذه المرَّة، يبدو أنهم أخبروها أنني أحب سماع التاريخ المرضي بالعربية فبدأت تلاوته عليَّ في تنسيق أنيق، وأنا أمام هذا النوع من المتأنقات لا أستطيع مقاومة اللجوء إلى بعض الخدع الامتحانية التي لا يبطل مفعولها مع مرور الزمن أبدًا.

توجهت بسؤالي إلى السيدة التي جاءت لتركيب وسيلة منع حمل:

ـ هل تعرفين الدكتورة؟

صدمت المرأة الشابة، قبل أن تقول:

ـ أجل، إنها طالبة.

ـ ما اسمها؟

ـ لا أعلم.

هنا توجهت إلى الطالبة ببسمة سادية:

ـ أليس من المفترض أن تبدئي بتعريف نفسك إليها يا دكتورة؟

انتهى أمر الفتاة قبل أن تبدأ، وبوجه مخضب بالحمرة حاولت أن تتماسك:

ـ إنه ارتباك الامتحان يا دكتورة عصمت. لم آخذ حالة في حياتي من قبل دون أن أُعرفها باسمي.

كانت الفتاة قد ارتكبت خطأها القاتل الثاني دون أن تدري، ولعمري فهو عذر غير مقبول على الإطلاق ألا تدري:

ـ حالة؟! هل أنت حالة يا فتاة؟!

صدمت الفتاة.

ـ أنا؟!

ـ أجل، إنك تسمينهم حالات. فهل تحبين أن أعتبرك أنت الأخرى حالة؟

صمتت الفتاة، وتابعت أنا وقد وجدت ضالة أنفس فيها عن مزاجي المتكدر:

- عندما نمرض أو نطلب الرعاية الطبية نرفض أن يعتبرنا الطبيب مجرد حالة، لكننا عندما نتقمص دور الطبيب يتحول كل واقف ببابنا إلى حالة. مجرد حالة. الطبيب الفاشل فقط هو من يتعامل مع المريض باعتباره شيئًا، لا باعتباره إنسانًا.

انتهى أمر الفتاة وقد تحول وجهها إلى ثمرة طماطم ناضجة بقية الامتحان، ومنحتها في النهاية درجة النجاح المنخفضة لأن يديها كانتا ترتعشان وهي تؤدي الفحص الموضعي.

على الأقل هي تعلمت شيئًا لن تنساه بقية عمرها.

ماذا كان اسمها؟ «أمينة» أم «أماني»؟

التالي.

كان هو الفتى الذي رأيته يعزف الجيتار على الطوار، وعن قرب تمكنت من فهم مفتاح شخصيته قبل حتى أن يفتح فمه.

خبرتي الطويلة في عالم الطلاب تجعلني أقرؤهم من النظرة الأولى.

هذا الفتى مدلل، يتيه فخرًا بوسامته ـ بعينيه الملونتين وشعره الطويل وذقنه الحليق ـ ويحاول لفت الأنظار إليه بملابس غريبة ذات ألوان فاقعة ربما عن غير وعي مباشر منه، هو ذكي بدليل حصوله على مجموع كلية الطب، لكنه فوضوي بوهيمي في الوقت نفسه تتنازعه ميول غريبة لا يسمح ذووه بأن تسيطر عليه إلى حد الخروج عن سيطرتهم هم.

ذووه هؤلاء هم كلمة السر، تدليلهم الزائد جعله يحب نفسه ويغفر لها ولا يميل لإهانتها، لذا يجب التعامل معه بحسم من اللحظة الأولى.

لا أذكر أني أحببت نفسي رغم حرصي عليها طوال هذه السنوات. إن الحرص الزائد يقتل الحب على طريقة الدبة الشهيرة التي قتلت صاحبها. وربما أكون قد انتحرت في طفولتي أو مراهقتي دون أن أشعر بحرصي الزائد على نفسي.

سأفكر في عصمت زين الدين فيما بعد، بعد أن يتعلم هذا الفتى درسًا ما.

قراءته الركيكة للتاريخ المرضي وتلعثمه في كل سؤال، ثم وقوفه المتردد أمام الحامل حديثًا على سرير الكشف، وارتعاش يديه وهو يؤدي الفحوص كأنه يفعلها للمرة الأولى

في حياته، ثم وجومه في بقية الأسئلة العملية دون إجابات، كل هذا جعل الرسوب حتميًا.

وجعل فقداني لشهية الامتحانات يتحكم فيّ، فقررت أن أعود إلى المنزل لأنال بعض الراحة.

ماذا كان اسمه؟ «طارق» أم «ياسر»؟

لا يهم، فلن يكون هناك تالٍ على أي حال.

صحيح أن شعوري السيئ قد أصبح محتملًا بعض الشيء، وإن لم يتلاش كليًا، ولم يظهر له سبب بعد، لكن وجودي هنا كضيفة في بيتي لا يجعلني مسرورة.

ركلت بعض المؤخرات، الكثير منها لو أردت الدقة، أساتذة وطلاب، فماذا يمكن أن أطلب أكثر من هذا؟

عندما خرجت من العيادة الخارجية كان ضحاياي الثلاثة هناك، البدين مطرق برأسه على مقعد خشبي بجوار المرضى، الفتاة اقتربت مني متلهفة لتعرف إن كانت قد نجحت أم لا، ولم أرد عليها كأني لا أسمعها أصلًا، أما الأخير فقد كان يجلس مسندًا ظهره على حائط العيادة الخارجي. وكان يبكي.

هذا الفتى تنقصه الكثير من هرمونات الذكورة!

في طريق العودة إلى المنزل كانت الأغنية اللعينة تتردد في ذاكرتي:

ما لي غير حبك أمانة.. عود لأحضاني

يا حبيب قلبي معاك.. دنيايا واحشاني

مشتاقة.. يا حبيبي.. مشتاقة

والتزم جلال الصمت المطبق، نفس الصمت الذي قابلتني به أم محمود، والذي تناولت به غدائي، ثم استمعت إلى بعض الموسيقى الكلاسيكية علها تنتزع الأغنية اللعينة وإيقاعها المبتذل الراقص من داخل رأسي، وأخيرًا جلست في الشرفة أنتظر مكالمة نعمان، وأراقب النوارس على سطح البحيرة.

هل قلت نوارس؟

هو نورس وحيد اليوم، يحوم فوق المياه الزرقاء، ويرسل ترانيمه الحزينة نحوي، كأنها نواح مكتوم.

أين ذهبت بقية النوارس؟

مر الوقت دون أن أشعر، حتى حل الظلام، ولم يتصل نعمان.

أقلقني هذا بشدة، لكني حاولت التلهي بأمر آخر.

«بوسي».

أين هي؟

لِمَ لم تأتِ وتتمسح في ساقي مثل هذا الوقت كل يوم؟

لِمَ لا أسمع لها صوتًا منذ عدت من الكلية؟

نهضت من مقعد الشرفة وعدت ببطء عجوز متوكئة على عكاز إلى داخل المنزل، بحثت عنها ووجدتها في المكان المتوقع، داخل سريرها المصنوع من القش والقطن المغطى بالحرير.

كانت هناك، مُقعية أمام طبق اللبن الخاص بها، دون حراك.

كانت ميتة!

وفي اليوم التالي صباحًا، بلغني النبأ عبر اتصال هاتفي بارد من بلاد بعيدة باردة. نبأ موت نعمان، هناك.

في جنيف.

3

وحدي.

ملابسي سوداء، قهوتي علقم، دموعي متحجرة تأبى أن تنفرج عنها مقلتاي العنيدتان، والنورس البعيد على سطح البحيرة يحلق، يعلو، ثم ينخفض.

وحدي، لأول مرة على امتداد حياتي الطويلة.

عندما تبلغ مثل هذا العمر وحيدًا وبلا سلطة، يكون من الصعب أن تجد حولك أيًّا من المعزين أو المنافقين أو أصحاب المصلحة، الجنازة لم يحضرها أحد تقريبًا سوى الندرة من الأساتذة الأفاضل والتلاميذ البارين، كانوا قليلين إلى درجة مخزية لا تليق بمكانة الفقيد التي اجتهدت في صنعها له طوال حياتي، لا تليق بها أبدًا.

وحدي، وقد هبط نصف حياتي الآخر مع نعمان إلى ظلمات القبر.

لم أستطع أن ألقي نظرة أخيرة على الجثة، لم يطاوعني قلبي العنيد، هبط التابوت من الطائرة، وتولى خالد مع بعض زملائه إجراءات الغسل والتكفين. سألني إن كنت أود إلقاء نظرة أخيرة فامتنعت عن الجواب، وفهم هو أن السكوت ليس دائمًا علامة رضا.

وحدي، ولا مستقبل.

فقط ماض يطل بوجهه الكئيب على كل لحظة أعيشها، يطل من كل شهادة معلقة في الصالة، من كل صورة لي وله ـ معًا أو على حدة ـ فوق الحائط أو في ألبوم الذكريات، من فراش القطة التي فاضت روحها في نفس الوقت الذي رحل فيه هو هناك بعيدًا في البلاد الباردة، من كل زاوية في المنزل ومن كل مرآة تعكس ملامحي الشبحية وحتى من حومان النورس البعيد الذي يترنم نائحًا ببكائيته الأخيرة.

لعلها بكائيتي أنا، لا بكائيته.

أنا التي لم تذرف دمعة واحدة منذ تلقت الخبر الصادم، رغم أنه كان متوقعًا!

لم أمر بفترة حدادي بعد، ولا أدري متى ستحل.

الزلزال الذي ضرب حياتي بعنف مباغت سوف تمتد آثاره طويلًا على ما يبدو.

يدنو مني خالد، الذي يتصرف ببنوة حقيقية دونما غرض أو نفاق أو مصلحة لا أملك تحقيقها له أو لغيره.

ـ رحل آخر المعزين.

يقولها ملقيًا بنفسه على المقعد بجواري، فأهز عصاتي

وأقول بسخرية أشد مرارة من قهوتي:

- وأولهم أيضًا.

نظر فيَّ وقال بلهجة عميقة:

- لا تبدين على ما يرام يا دكتورة.

رفعت عصاتي في غضب وضربته بها ضربًا هينًا على كتفه وأنا أهتف:

- لو أظهرت تجاهي مزيدًا من الشفقة فلا تلومن إلا نفسك يا فتى.

- هوني عليك يا دكتورة عصمت.

- وإياك أن تطلب مني طلبًا كهذا مرة أخرى، لا تنطق بمزيد من كلمات التهوين البائسة وإلا انصرف الآن غير مأسوف عليك، ولتكن أنت آخر المعزين.

ران الصمت، إلا من بكائية نورس وحيد عند الأفق الأزرق القريب.

لم ألحظ التردد في عيني خالد إلا عندما قال:

- في الحقيقة، لا أدري إن كان الوقت مبكرًا على قول هذا أم لا، لكن...

سألته ولاحظت التردد الذي يلتهم عينيه وشفتيه:

ـ قول ماذا؟ مزيد من كلمات المؤازرة الحمقاء؟

ـ كلا، لكن، الدكتور نعمان رحمه الله...

سألته واللهفة تلتهم عينيّ وشفتيّ:

ـ ماذا عنه؟

ـ لا شيء. في الحقيقة، إنه، إمم، هو...

ـ تحدث دون لعثمة.

نطقت بها في صرامة المعلمة القابعة في أعماقي، فانتصب ظهر التلميذ الجالس أمامي، واعتدل لسانه بغتة وقال:

ـ لقد ترك عندي قبل السفر أمانة أوصلها إليك يا دكتورة في حال ما إذا...

هذا أغرب من أن يكون حقيقيًا.

ـ وصية؟

هز خالد كتفيه:

ـ لا أدري، إنه مظروف مغلق.

ـ أين هو؟

تنحنح خالد ووضع يده في جيب سترته ليُخرجها بمظروف أبيض متوسط الحجم مغلق بشريط لاصق شفاف، اختطفته من يده في سرعة.

هناك كتابة بقلم فلوماستر ثخين على المظروف من الخارج، هو خط نعمان في كتابة الأرقام اللاتينية كما أحفظه جيدًا.

صف من الأرقام أجهل ماهيته، أكثر من عشرة أرقام متراصة جانبًا بما لا يحمل معنى أو تفسيرًا ما.

ورق المظروف الأملس ينساب في نعومة فوق الجسم الصلب في الداخل. جسم صلب يبدو أنه شريط كاسيت مثلًا.

فككت الشريط اللاصق لأتبين أن ما في الداخل شريط كاسيت بالفعل، مكتوب عليه بنفس القلم الفلوماستر «إلى العزيزة عصمت».

هو خط نعمان الرديء في كتابة العربية كما أحفظه جيدًا.

- وصية صوتية؟

همهمت كأني أسأل نفسي. فهز خالد كتفيه وقال كأن الأمر لا يعنيه:

- يبدو هذا.

هذا أغرب من أن يكون حقيقيًا، حقًّا!

بدأت الأسئلة تتناسج وشاحًا من الحيرة والغموض، وبدأت اللهفة تستبد بي طاغية عاتية لسماع صوت نعمان من جديد، ذلك الصوت الذي ظننتني لن أسمعه مجددًا ما بقي لي من سنوات لا أظنها سوف تطول.

كان خالد مهذبًا ولماحًا في الوقت نفسه، فنهض قائلًا وهو يضرب براحتيه ركبتيه:

- أستأذنك الآن.

ولم ألح عليه في البقاء.

ناديت أم محمود لتوصله حتى الباب الخارجي وطرت نحو حجرتي، لو كان الطيران هو أن أبلغها في عشر دقائق كاملة، ثم إني غلّقت الأبواب وهيئت له.

أصبحت وحدي مع المسجل وشريط الكاسيت.. ونعمان.

دارت البكرتان داخل الجهاز، وأرهفت سمعي لألتقط كل ما يمكن سماعه. حتى الصمت الذي يصاحب بداية الشريط كان له وقع مختلف عن كل صمت سمعته في بداية أي شريط من قبل طوال حياتي.

ثم جاء صوت نعمان، أخيرًا:

ـ كيف حالك يا عصمت؟

ابتسمت في حنين مباغت، وشملتني رعشة قوية اهتزت لها كل خلايا وجداني.

هو صوته، رنين نبرته الهادئ ثم سعاله المجنون كأنه سيلفظ رئتيه من فرط قوته، ثم:

ـ معنى وجود هذا الشريط في حوزتك الآن، وسماعك له في هذه اللحظة أنني قد مت بالفعل. يا للدهشة، أموت ومع هذا يمكن أن أنقل لك ما أريد قوله. أموت. أنتهي. لا يعود لي الحق في مزاحمة أحد بأحقيتي في أن أكون هنا، بينكم من جديد. ومع هذا يمكنك أن تستمعي إلى صوتي المخزَّن على شريط ممغنط، حتى لو بأثر رجعي. إنها عبقرية التكنولوجيا التي تتيح لنا أن نقتنص اللحظة التي تمر، نجمدها، نخزنها بحذافيرها. لقد قال أحدهم ـ لعله «صامويل باتلر»: إن كل التقدم مبني على رغبة غريزية عالمية في أعماق كل إنسان لكي يحيا بأكثر مما يمكنه الحصول عليه عادة. التقدم يمكننا بأن نحظى بالكثير من الخبرات مقارنة بأعمارنا، فإن لم يستطع أن يطيلها بشكل طولي فإنه يضيف إليها التجارب التي تطيل منها بشكل عرضي. انظري لكل هذه الصور التذكارية التي نحصل عليها، لكل أشرطة الفيديو التي تخزن

فيها لحظاتنا السعيدة والتعسة، لكل كلمة نكتبها ونطبعها وننشرها، أليست كل هذه أشياء تضيف إلى سنواتنا المزيد؟ أحيانًا أتخيل أنه إذا قدّر لإنسان أن يسجل كل حياته على شريط فيديو من لحظة ميلاده إلى لحظة وفاته، فإن ذلك يضيف له حياة واحدة أخرى على الأقل. الحياة التي عاشها، هذه واحدة، والحياة الأخرى المسجلة على الشريط. حياتان متطابقتان هذا صحيح لكنهما حياتان في كل الأحوال، حتى لو لم تمكنه أي منهما من قهر ذلك الغول الخرافي العتيق الذي نسميه الموت. الموت، هه، إنني أجهل ماهيته قطعًا كما يجهله كل الأحياء. لم يعد أحد من العالم الآخر ليخبرنا بطبيعة هذا الغامض الأكبر الذي نسميه موتًا، والذي أقف على أعتابه الآن، هنا، وحيدًا في غرفتي بالمستشفى التذكاري الضخم لمرضى السرطان، في جنيف.

لا بأس يا عزيزي نعمان، ثرثر كما تحب، أما أنا فسأكتفي بالصمت.

- أصارحك القول بأنني فكرت في تسجيل شريط فيديو بالصوت والصورة بدلًا من تسجيل صوتي كسيح كهذا، لكني أشفقت عليك من مغبة ما سترينه يا عزيزتي. إن الوقت والسرطان قد أتيا عليّ، ولم يتركاني إلا حطامًا كريهًا. تساقط شعر رأسي، وانهارت أسناني، وهزل جسمي،

واسودت خطوط جلدي المكرمشة، النهاية قادمة ما بين لحظة وأخرى وليس لي إلا انتظارها صاغرًا، وفي جلوسي هنا وحيدًا أفكر كثيرًا فيما مضى، وأحاول تقييم نتائج عمري فلا أرى أمامي سواك يا عصمت.

لا بأس يا عزيزي، ثرثر كما تحب، أما أنا فسأكتفي بالصمت، و...

ـ أسائل نفسي أمام المرآة كل يوم عن كل ذلك الوقت الطويل الذي عشناه معًا، عن الحياة التي صهرتنا فردين في بوتقة واحدة، عن الزواج الذي عشناه، والأسرار التي أخفاها كل منا عن الآخر، والقرابين التي قدمناها في دأب مخلص دون كلل من أجل الاستمرار، أسائل نفسي: هل كان ما بيننا حبًّا؟ هل أحب أيٌّ منا الآخر حقًّا؟

... والبكاء.

(لا أجرؤ بعد كل هذه السنوات على تسمية ما بيننا بالحب طبقًا لما يكتبه الروائيون وما يصنعه السينمائيون وما يشعر به الرومانسيون).

إنني أعيش لحظات حدادي أخيرًا مع صوتك يا نعمان، ومع كلماتك القاسية التي تنهال من سماعة المسجل كدبابيس حادة تنغرس تحت جلدي بلا رحمة.

ـ لم أصل حتى الآن إلى جواب شاف يعينني على المغادرة في راحة. أشعر أني مدين لك بالكثير يا عصمت، فبدونك ما كنت لأحيا بالنسبة للآخرين على الأقل. أنا أمامهم الآن رجل عظيم، عاش حياته كما ينبغي لرجل علم وزوج أمين أن يعيشها، ناجح في عمله ومخلص لزوجته المحبة. وحدك يا عصمت تعلمين الحقيقة المُرَّة. تعلمين أنني لست أنا الذي يرونه في المرآة اللامعة، وأنني طوال عمري قد عشت وحيدًا منفيًا على الهامش، عازفًا عن المشاركة الفعلية، ومكتفيًا بالغياب، تاركًا إياك تتشرنقين بدورك في لجة العمل والترقي الوظيفي. ربما لم أحبك كما كان يجب أن أفعل يا عصمت، لكنك أثبتّ لي أنك كنت تحبينني طوال عمرك دون الحاجة لأن ينطقها لسانك، صحيح أننا لم نُرزق بأطفال، لكني شعرت دومًا بأني طفلك المدلل. لم تزعجني فكرة الأبوة الناقصة قَطُّ، لأني لم أحتج إليها في كنف أمومتك الذي شملني ويشملني حتى اللحظة، وحتى يواريني الثرى كما أنا واثق يا عزيزتي.

ما الذي تفعله بي يا نعمان بعد موتك؟

ـ ربما تتساءلين الآن يا عصمت عن السبب الذي جعلني أرسل بهذا الشريط إلى خالد أولًا بدلًا من إرساله مباشرة إليك. في الحقيقة هناك بعض الأسباب أعتقد أنها وجيهة:

السبب الأول أني لا أعرف متى سأرحل، وفكرة إطلاعك على الأمر الذي أنتويه قبل أن أرحل فعليًا تبدو مزعجة قليلًا بالنسبة إليّ. لا أريد أن تناقشيني أبدًا في أي نقطة مما سأطرحه عليك بعد قليل، عليك أن تختاري بعيدًا عن أي ضغوط، وعليّ أن أنسحب تمامًا بعد تقديم ما لديّ إليك. ربما كنت أُطل عليك الآن من حالق كما يعتقد البعض أن أرواح الموتى تفعل، لكني لست واثقًا من أي شيء الآن. ستشعرين بي لو أني حولك الآن بالتأكيد. والسبب الثاني هو أن الدكتور خالد له صلة وثيقة بالعرض الذي سأقدمه. والسبب الأخير هو إتاحة الفرصة لك كي تنسحبي من كل شيء، على أن أترك لك ثغرةً للفرار، منفذًا للتراجع. إن فكرة وضعك في مواجهة مباشرة تجعلني أشعر بأن ظلمًا ما سوف يقع عليك، وبأنني قد أحملك ما لا تطيقين، وهو أبعد ما أريده في الوقت الراهن، وما لم أرده طوال عمري دون أن أفلح في منعه.

ما الذي تريد أن تفعله بي أكثر يا نعمان؟

- إنها فرصتي الأخيرة للتعويض يا عصمت، تعويضك عن حياتك التي ضاعت معي، والتكفير عن كل ذنوبي تجاهك. إنها فرصتي يا عصمت أن أمنحك بعد كل هذا العمر فرصة ذهبية لكي تعيشي الحياة مرة أخرى. «حياة جديدة» تمامًا، ومختلفة تمامًا.

«حياة جديدة»؟!

أي معنى يمكن أن يحمله تعبير كهذا يا نعمان؟!

ـ الحقيقة أنني لا أجد مدخلًا مناسبًا حتى الآن، لذا فاعذريني لو بدا حديثي مشوشًا. لقد ترثرت كثيرًا في محاولة لإرجاء مصارحتك مباشرة، لكن هذه اللحظة كانت ستأتي مهما حاولت إرجاءها. في الواقع إن الدكتور خالد، تلميذنا النجيب، هو مَن اقترح عليّ الأمر أولًا، كنوع من علاج أخير لحالتي الميؤوس منها. والفكرة ببساطة تقوم على نظرية علمية ربما كانت من ضروب الخيال العلمي منذ سنوات قليلة، لكنها الآن قد أصبحت في عداد الأمر الواقع وإن كانت تحيطه السرية شبه المطلقة. أتحدث يا عصمت عن عملية زراعة المخ البشري لو كنت يا عزيزتي تفهمين ما أعنيه، وأعتقد أنك تفهمين.

جف نهرًا دموعي بغتة، وقد هبطت عليّ الكلمات كسيل كاسح من القنابل العنقودية شديدة التفجير.

ـ هناك مؤسسة طبية متخصصة تقدم برنامجًا لإعادة زراعة المخ البشري في جسد آخر، هذا البرنامج يحمل الاسم الفاتن الذي ذكرته: «حياة جديدة». كَهلٌ مثلي انتهى تاريخ صلاحيته، وضرب العطب السرطاني أعضاءه حتى ليعجز عن أخذ أنفاسه بسهولة، يعده البرنامج بما هو أكثر من مجرد

العلاج، أعني العودة إلى الشباب والاستمتاع بمباهج الحياة في جسد صحيح معافى لشخص مات بالفعل وتم حفظ جسده بالتجميد. سأكون أنا بهويتي وشخصيتي نفسها، تلك التي عاشت كل تاريخي، وقد أُعيدت زراعتي في هيئة وشخصية ظاهرية جديدة تمامًا، ألا يبدو الأمر فاتنًا وواعدًا يا عزيزتي؟ هل يستطيع شخص مثلي أن يرفض عرضًا مغريًا كهذا؟ وبأي حجة يفعل؟

رباه! هذا كثير على أعصابي!

ارحمني قليلًا ومت في هدوء يا نعمان اللعين!

ـ استعدي للمفاجأة يا عصمت. لقد رفضت العرض رغم إغرائه، والدليل أن الشريط الآن بين يديك وأنني قد مت ودُفنت بالفعل. لكني أمنحك أنت حق الاختيار يا عزيزتي، يمكنك أن تستعيدي حياتك المفقودة من جديد، وأن تبدئي في جسد جديد بداية جديدة لحياة جديدة، بأن يتم زراعة مخك في جسد بشري آخر، تختارينه بنفسك من ألبوم تقدمه لك الشركة في حالة الموافقة وإبرام العقد. إنك أحق مني بهذه العملية، فأنت التي تعبت وكافحت من أجلك وأجلي، وأنت من تستحق مكافأة نهاية خدمة باهظة التكلفة مثل هذه. باهظة هي حقًّا، إذ العملية الجراحية لنقل مخك من جسدك إلى الجسد الآخر سوف تتكلف مليون دولار تقريبًا،

هبطت التكلفة كثيرًا في السنتين الأخيرتين لكنها ظلت باهظة، ومع هذا لا تحملين لها همًّا. هل ترين الرقم المدون على المظروف الذي منحك إياه الدكتور خالد حاويًا الشريط؟

ارحمني قليلًا يا نعمان، فهذا أكثر مما يمكن أن تحتمله أعصابي المشوشة.

- إنه رقم حساب بنكي هنا في سويسرا، وعاء ادخاري منحه لي أبي منذ طفولتي، حصيلته التراكمية الآن تربو على خمسة ملايين يورو بحساب الفوائد طوال سنين عمري، لن أمس مليمًا من هذه الثروة حتى أموت يا عزيزتي، وبما أنك الآن وريثتي الوحيدة فهي من حقك تمامًا. إني أمنحها لك عن طيب خاطر كمكافأة نهاية خدمة كما أسلفت. فكري في الأمر يا عصمت، لا وريث لك أنت الأخرى. لو تركت نفسك هكذا فستلحقين بي قريبًا، وستذهب هذه الثروة التي لا يعلم عنها أحد إلى لا أحد. ربما يكون هذا محفزًا لك على خوض التجربة التي أتمنى من كل قلبي أن تكون تعويضًا مناسبًا عن حياتك التي ذهبت معي سُدى، والتي توشك على نهاية مثل نهايتي، تقترب حثيثًا مهما بدت بعيدة.

ارحمني يا نعماااااااااان!

ارحمني!

ـ تفاصيل التقنية كلها مع خالد، الذي لا يزال مندهشًا من رفضي لإجراء العملية وتحملي لكل هذا الألم هنا وحيدًا. لقد حسمت أمري يا عصمت، عشت حياتي كلها أنانيًا لا أفكر إلا في نفسي، لا أهتم إلا بشؤوني الصغيرة التافهة، ولا أفكر فيك لأنك دائمًا موجودة إلى جواري. الآن أشعر أنني أتلقى عقابًا يليق بذنوبي تجاهك، ولا يسعني إلا أن أقدِّم لك تعويضًا بسيطًا عن حياتك السابقة. فكري في الأمر جيدًا يا عصمت. ليس هناك ما تخسرينه. أريدك أن تتخيلي نفسك شابة تختارين ملامحها وتكوينها الجسدي بنفسك من بين عشرات وعشرات، أن ترسمي صورًا لكل ما ستفعلينه بالملايين التي تركتها لك، وبمدخراتنا القليلة في مصر، أن تضعي خطة لحياة أخرى جديدة تحبينها حقًّا، لعل ذلك يكون صك غفران لي، وراحة في قبري عندما تحلق روحي حولك الآن.

كلا، لا ترتدي مسوح الملاك الطاهر يا نعمان!

لست ملاكًا!

ـ كل ما أطلبه منك هو أن تعتني بـ«بوسي» في كل الأحوال، سواء قبلت العرض أو رفضته، هذا لو بقيت حية بعدي.

وجدت نفسي أصرخ في هستيريا عندما بلغ هذا الحد:

- كلااااااا، لستَ ملاكًا يا نعمان! لستَ ملاكًا!

أراهن أن أم محمود تُسائل نفسها إن كان يتعين عليها أن تتصل بالسرايا الصفراء، وهي تسمع صراخي الذي يهز جدران الطابق السفلي:

- أنت شيطان! شيطان مريد! شيطاااااااان!

- أتمنى يا عصمت أن...

وبمنتهى الانفعال أمسكتُ بالمسجل وألقيته بعيدًا، لينفصل قابس الكهرباء، ويدوي صوت الارتطام عاليًا في الجدار أمامي، بينما صدري يعلو ويهبط من فرط الانفعال.

كلا يا نعمان!

إذا كنت مُصرًّا على تقمص دور الشيطان، فلن أرتكب خطيئة «فاوست» أبدًا.

لن أبرم اتفاقًا معك، ولن أهبك روحي مقابل الشباب الأبدي.

لن أفعل ذلك مطلقًا.

بكل ما يجيش به صدري من انفعال مكتوم كإناء بخاري

على الموقد نهضت، أمسكت بصعوبة بقايا المسجل الساقط على الأرض واستخلصت منه الشريط البلاستيكي، ثم إني جذبت بسبابتي وإبهامي الشريط البني الملفوف على البكرتين بداخله إلى الخارج، ومزقته بطاقم أسناني الحاد شر ممزق، كأني مصاصة دماء تروم الحياة عبر وريدين في عنق.

ووقفت ألهث كأني خارجة من معركة، دون أن أفلح في اقتناص شعور بنشوة الانتصار.

- الوغد! نعمان الوغد!

غمغمت بها في وعيد كأني سألقاه يومًا وأنتقم، ثم إني نهضت وأنا أفكر أن ما زال هناك مَن يمكن أن أصب عليه جام غضبي الجارف.

خالد، التلميذ النجيب الذي يبيع إكسير الشباب وعودة الشيخ إلى صباه.

نعم، يمكن أن يكون تقريعه بشدة تعويضًا نفسيًا مناسبًا وإن كان لن يشفي غليلي كلية. هو شريك بصورة أو بأخرى وعليه أن يتحمل.

نهضت دون أن أحمل عصاي المُسندة في مكانها إلى جوار السرير، وفي إسراعي المنفعل إلى باب الحجرة حدث ما

حدث.

سقطتُ على الأرض الخشبية مثل كيس محشو بالقطن.

طرقع مفصل فخذي اليسرى بطريقة أفزعتني، ثم... الألم الرهيب.

وصرخة هائلة هزت جدران الطابق السفلي.

وأخيرًا، فقدان تام للوعي.

وعالم من ظلام أسود دامس.

4

شهران.

المشهد من هنا ثابت تقريبًا: مربع زجاجي تتراءى من خلفه فروع الشجرة الكثيرة المتشابكة والعامرة بالورق الأخضر وأعشاش الطيور التي تغرد في الفجر، حتى إنها توقظني من النوم على ترانيمها الطقسية المبكرة، بانتظام يومي طوال الشهرين الماضيين.

نافذة وحيدة أطل منها على العالم الخارجي، وأفكر.

وأتغير إلى حد الانسلاخ من الجلد القديم.

تضع أم محمود ملعقة الطعام المهروس عديم الطعم والرائحة في فمي، فألوكه ببطء دون اشتهاء، وأنقل بصري من عمق الطبق المستقر فوق الصينية أمام صدري، إلى رداء المستشفى الذي يغطيني حتى ساقي المعلقة إلى أعلى، والتي يحيطها الجبس حتى قمة مفصل الفخذ اليسرى، المفصل الذي تهشم في حادث سقوطي داخل غرفتي قبل شهرين، كما أفصحت الأشعة السينية في جلاء.

عندما سقطت في غرفتي وقتها، رجت صرختي المنزل القائم على البحيرة، أخال أنها هزت سطح البحيرة الساكن دومًا نفسه، فهرعت نحوي أم محمود وحارت ماذا تفعل،

كادت تنهضني لكني حذرتها من مغبة تحريكي في شراسة، وطلبت منها أن تطلب رقم الإسعاف على الفور.

كان ألم الفخذ مبرحًا، لا يطاق، وكان غباؤها هو الآخر لا يطاق وهي تسألني عن رقم الإسعاف، ورغم كل ما أكابده تذكرت النكتة الأمريكية السخيفة التي يتصل فيها الرجل بخدمة الدليل الهاتفي ليسأل عن رقم خدمة 911 للإنقاذ!

من بين ضروسي خرج الرقم ممجوجًا، وجاءت سيارة الإسعاف بعد دهر استمر أكثر من نصف ساعة مت خلالها آلاف المرات، حتى وصلوا بي إلى هنا، وبدأت حرب المسكنات العنيفة.

شهران وأنا طريحة الفراش، تساعدني أم محمود على مهام الحياة البسيطة من أكل ومشرب وتغيير ملابس، أقضي حاجتي في كيس القسطرة الشفاف أو وعاء البلاستيك المقرف، لا أرى إلا النافذة وبعض الزائرين القلائل من أمثال الدكتور خالد الذي يزورني بصفة يومية وأحيانًا أكثر من مرَّة في اليوم الواحد، حتى إني نسيت مسألة تفريعه تمامًا في خضم الألم والمعاناة التي لا تقهرها أعنف المسكنات أحيانًا.

تأتي الورود وتبقى حتى تذبل، تأتي بلا بطاقات، باقة يومية وحيدة لا أهتم بالسؤال عن صاحبها، ليكن من يكون

فالمهم هو الحقيقة التي أحاول صيدها من بين فكي خالد في صعوبة:

ـ هل هناك أمل؟

ـ يفكر الدكتور صالح، رئيس قسم العظام، في إجراء عملية تبديل للمفصل المتهتك بآخر معدني، ولكن...

لكن!

مفهوم طبعًا.

التئام كسور المفصل عملية صعبة أصلًا، خصوصًا لو خرج الرأس من تجويفه في عظمة الحوض، فما بالك بعظام امرأة مثلي بلغت سن اليأس منذ زمن طويل، وجفت منابع الإستروجين لديها تاركة عظامها نهبًا للأندروجينات المفترسة للكالسيوم.

هرمونات الأنوثة تهب الحياة، وهرمونات الذكورة تطحنها طحنًا، الأنثى تهب الحياة، والذكر يمتصها في طيش لا يعرف الهوادة، مفهوم بالطبع.

ـ في النهاية، هل هناك أمل؟

يمط خالد شفتيه، ينكس رأسه وينظر إلى الأرض.

ـ أمل ضعيف، مفهوم بالطبع.

أقولها محاولة التظاهر بالتماسك، وأنظر إلى باقة الورد الجديدة التي لم تذبل بعد بجواري، وأتذكر تأملات «أمل دنقل» على فراش الغرفة رقم 8:

وسلالٌ من الوَردِ

ألمحُها بين إغفاءةٍ وإفاقة

وعلى كُل باقةٍ

اسمُ حامِلها في بِطاقة

هذه لا تحمل بطاقة أو اسمًا، تحمل فقط شبابًا ووعدًا بالحياة.

«حياة جديدة».

تطول أيامي هنا في المستشفى.

يهاجم الألم دون استئذان، ويتباعد الأمل في الشفاء والنهوض من جديد، ويتطاول ظل التهديد بأن أعيش ما تبقَّى لي من الحياة في هذا الجحيم.

فجأة، لا يبدو العرض الذي قدَّمه لي نعمان قبل موته ـ أو بعده ـ على هذا القدر من الجنون واللاأخلاقية.

فجأة يبدو ملاكًا رحيمًا لا شيطانًا يريد روحي في مقابل

الخلود.

فجأة أتعاطف مع موقفه وأحبه أكثر مما يمكن أن أتخيل، وأشتاق إليه شوقًا لم أعرفه من قبل.

أتذكر صوته على شريط الكاسيت الذي لم يعد موجودًا:

ـ التفاصيل التقنية كلها مع خالد.

لكن، كيف أسأل خالد؟

بأي كلمات أوجه له السؤال؟

أسأل أم محمود أولًا:

ـ أين شريط الكاسيت الممزق الذي كان في غرفتي عندما سقطت؟

تجيبني:

ـ موجود يا دكتورة، لن أرمي شيئًا دون الرجوع إليك كما أمرتني مرارًا.

ليس هذا ما أريده.

ـ والمظروف؟

ـ والمظروف أيضًا موجود، لملمت كل شيء ووضعته في درج الكومود المجاور لسريرك.

أطمئن، وأحاول التلميح لخالد في زياراته المتكررة.

- هل تريدين أن تقولي شيئًا يا دكتورة؟

- لا شيء.

وأصمت.

تبًا لضميري!

لكني بعد موجة ألم رهيبة أضرمت النيران في فخذي اليسرى، انهارت آخر حصون مقاومتي:

- خالد.

- إني معك هنا يا دكتورة، هل تريدين حقنة مخدر أخرى؟

- لا، لكن، نعمان...

- ماذا عنه؟

كنت ألهث، وقطرات العرق تنهال من مفرقي إلى عيني وشفتي، لذا لم أكن قادرة على تكوين جملة طويلة ومفيدة.

بعض الاختصار يفيد أكثر.

- «حياة جديدة».

وجم خالد للحظات ليست قليلة، قبل أن يتراجع بظهره إلى

مقعده، ويحدق فيَّ مليًا بينما أعض على شفتي في مقاومة يائسة.

ـ المظروف الذي أعطيته إياي كان يحوي شريط تسجيل، أخبرني فيه نعمان كل شيء قبل أن...

ولم أقوَ على الإكمال.

هز خالد رأسه:

ـ مفهوم طبعًا.

هكذا بدأ كل شيء بدايته الحقيقية.

شرح لي خالد تفاصيل البرنامج الجراحي الذي لم أكن أحتاج إلى شرح له بعد ما قام به نعمان مشكورًا بالتفصيل في تسجيله الصوتي.

أحضر لي خالد نشرات دعائية كثيرة يلمع فوق ورقها المصقول شعار «حياة جديدة» بلغات العالم كلها، مع وعود لا نهائية بالسعادة والمتعة والحرية والانطلاق والشباب مرة أخرى، حتى الإعلانات المصورة شاهدتها على حاسوب خالد النَّقال، ولم يبقَ إلا أن نتقدم الخطوة الأمامية المرعبة والحتمية.

خطوة التنفيذ الفعلي.

***

في ليلة تعالى فيها شخير أم محمود من فوق الأرض بجواري، حيث تنام المرأة مبكرًا ولا تستيقظ إلا إن ناديت عليها لقضاء حاجة لي. في تلك الليلة أتاني خالد، وكانت النافذة الوحيدة مفتوحة، تهب منها نسائم باردة ألقتها يدَا شتاء لم يحل بعد، وكان الضوء ينعكس من فوق رأسي على ملامح وجهه وهو يدنو من سريري، ويدنو، معطيًا كل شيء إيحاء سحريًا غير واقعي بالمرَّة.

اقترب خالد، انحنى فوقي حتى لفحت أنفاسه وجهي، أمسك بيدي وسألني بصوت لم يكن صوته تقريبًا:

- جاهزة؟

أجبته وأنا أتحامل على نفسي حتى أظل يقظة، بعد جرعة المسكن الرهيبة التي تم تحميلها في أوردتي:

- جاهزة.

- سيأتي مندوب المؤسسة هذا الأسبوع إلى مصر، سيحمل معه الأوراق اللازمة ويحصل على توقيعك. ألا تفكرين في الانسحاب؟

- كلا. سأوقع.

ـ ليكن.

واختفى من أمامي، أو أنني أنا التي سقطت نائمة، ربما مغشيًا عليَّ.

***

في اليوم التالي طلبت من جلال السائق أن يحضر لي بعض الأشياء في صندوق كرتوني من المنزل، وأرسلت معه أم محمود لتعاونه، كان أهم هذه الأشياء قطعًا المظروف الذي يحوي رقم الحساب البنكي السويسري السري الذي أخفاه نعمان عني طوال العمر.

لأتجاوز عن تقييم مشوار حياتنا الآن، ولأشعر بالامتنان نحو نعمان حتى الذروة.

في أثناء غياب الجميع، وأنا وحدي في الغرفة، دخلت متسللة نحوي في خفة، فلم أشعر بها إلا وهي تقفز فوق جسدي المسجى فوق سرير الآلام. كانت قطيطة صغيرة ماءت في وجهي وأخذت تلعقه بلسانها، فيما أنا متجمدة كحجر في مواجهتها، عاجزة عن الإدراك أو حتى الصراخ.

ـ آسف يا تانت.

نداء من جهة الباب، ألتفت على إثره لأراه واقفًا هناك.

طفل صغير في رداء منزلي، عيناه ذكيتان وحادتان، نحيل ورأسه حليق تمامًا، ينظر نحوي ويشير إلى القطيطة التي توقفت عن لعق وجهي وأخذت تنظر إليه بدورها.

- إن «تمارا» شقية جدًا كما ترين.

ابتسمت لمرأى الطفل، وهززت رأسي في تفهم، ثم سألته:

- ما اسمك يا حبيبي؟

أجابني وهو يهبط بيده التي كانت تشير نحوي إلى جواره:

- كريم. جارك في الغرفة المجاورة.

همست في تعاطف:

- مريض؟

هز رأسه بالإيجاب.

- أليس دخول الحيوانات الأليفة إلى المستشفى ممنوعًا لأسباب صحية؟

اقترب مني باسمًا وهو يشير إلى القطة:

- بلى، حاولوا إبعادها عني مائة مرّة، لكنها دومًا تغافلهم وتعود. لتحفظي هذا السر بيننا يا تانت. يبدو أن «تمارا» قد أحبتك من النظرة الأولى.

نظرت إليه أبادله البسمة بأخرى، وعجزت عن إيجاد مزيد من الجمل لأتواصل معه، فهو أحد الأطفال النادرين الذين حادثتهم على مدى عمري الطويل. أستطيع أن أعدهم على أصابع يدي دون أن أبالغ.

ـ هيا يا «تمارا».

حرك سبابته لها فأطاعته «تمارا» الصغيرة، وهرولت نحوه في طواعية عجيبة، ليختفيا خلف الباب المفتوح.

فيما بعد عرفت أن كريم هو ابن رجل على باب الله، يتم علاجه هنا في القسم المجاني من وحش «الليموكيميا» أو سرطان الدم، العلاج هو السبب في تساقط شعر رأسه ونحوله، وهو السبب في صرخاته التي تبلغني من غرفته المجاورة عندما يحقنونه بالعلاج المؤلم، وهو السبب في دفع معاناتي إلى ذروة التوق للانعتاق منها بأي ثمن.

***

في نفس الأسبوع، وصل الدكتور «توم كوارتز» إلى مصر حسبما قال خالد:

ـ الدكتور «كوارتز» هو أحد أعضاء مجلس إدارة المؤسسة، بريطاني الأصل، وأحد أساتذة المخ والأعصاب المتفردين في العالم، سيزورك هنا في المستشفى غدًا لإنهاء الأوراق.

ولم ينسَ أن يسألني للمرة الأخيرة:

- ألا تفكرين في الانسحاب؟

لم أرد، وفهم خالد أن السكوت لا يعني الرضا دومًا، إنه يعني ما يتجاوزه في أحايين أخرى، مثل هذه.

جاء الموعد، ووصل الدكتور «كوارتز» إلى غرفتي.

خمسيني هو، أصلع الرأس، أشيب الشعر، أزرق العينين، ممتلئ القوام، يرتدي بدلة من الصوف الإنجليزي الفاخر ذات ذوق عال وألوان متناسقة، يحمل حقيبة صغيرة من الجلد الطبيعي الأسود، وقد صافحني قائلًا في لهجته الممضوغة كديدن الإنجليز:

- كيف حالك يا سيدتي؟

قلت عكس ما أشعر به:

- بخير.

- أتعشم أن تظلي كذلك في ظل ما نسعى لإحرازه معًا.

وجلس على المقعد إلى جواري ليفتح قفل حقيبته، بينما وقف خالد إلى جواره كالديدبان يراقب كل ما يجري من علٍ.

أخرج «كوارتز» بعض الأوراق، وناولها إليّ مع قلم مُذهب

استله من جيب سترته، ثم هبت العاصفة الإنجليزية الباردة من بين شفتيه:

ـ هل تحبين أن تقرئي كل شيء على انفراد أولًا؟

هززت كتفيّ ـ أو ما تبقى منهما بعد هزالي الرهيب طوال فترة المرض ـ قائلة:

ـ كلا، سأوقع على الفور. قل لي أين فقط.

وقال لي أين، فرسمت توقيعي بيد مرتعشة على صفحات وصفحات وصفحات.

تناول «كوارتز» أوراقه في رزانة، ولاحت بسمة شبحية على محيا خالد سرعان ما تلاشت، في حين أخرج الأول مجلدًا كبيرًا من الحقيبة وناوله إياي:

ـ عليك الآن أن تختاري بنفسك وعاء شخصيتك الجديدة.

تناولت المجلد مبهورة، وتطاير كل إحساس بالألم راودني، وكل إحساس بالقلق طاردني، وكل إحساس آخر حاول أن يقترب من حدود مملكتي.

كنت قد تحوّلت إلى حالة من الانبهار الخام لو جاز الوصف.

هذه لحظة خاصة جدًا، شديدة التميز والتفرد، لحظة اختيار أنا الأخرى.

أنا الجديدة.

فتحت المجلد، وعبرت البوابة المسحورة إلى عالم آخر مليء بالصور الملونة والعيون الناعسة والوجوه الفتية والشفاه والخدود والرموش والنهود والقدود، عالم من الورود التي تنتظر من يقطفها للاستمتاع بمرآها وبعطرها وبشبابها المتجدد حيوية وتألقًا.

***

تَتحدَّثُ لي الزهراتُ الجميلة

أن أعيُنها اتَّسعت ـ دهشةً ـ

لحظةَ القَطفِ

لحظةَ القَصفِ

لحظةَ إعدامِها في الخَميلة!

***

فتيات وفتيات.

الطويلة والقصيرة، الشقراء والزنجية، المراهقة والناضجة، البدينة والرفيعة والمتناسقة، الشرقية والغربية. يمكن لأي من هؤلاء أن تكون أنا القادمة.

دودة الكتب حرامية

***

تَتحدَّثُ لي

أنَّها سَقَطت مِن على عَرشِها في البَساتين

ثم أفاقَتْ على عَرْضها في زُجاج الدَّكاكين، أو بين أيدي المُنادين

حتى اشترَتها اليدُ المُتفضِّلة العابِرة

***

فتيات وفتيات.

من أين أبدأ وكيف يمكن أن أنتهي؟

أي وجه أحب أن أراه في المرآة عندما أصحو من نومي كل يوم حتى أبلغ شيخوختي الأخرى؟

***

تَتحدَّثُ لي

كيف جاءت إليَّ

(وأحزانُها الملكية ترفعُ أعناقَها الخضر)

كي تتمنَّى لي العُمر

وهي تَجودُ بأنفاسِها الأخيرة!

***

وربما عندما أبلغ شيخوختي الأخرى يمكن أن أزرع مخي في جسد آخر، لتبدأ دائرة من الحياة المستمرة التي لا تنتهي إلا عندما يأذن لها خالقها، كأن يصاب المخ بعطب عضوي مثلًا.

عني أيتها الأفكار السوداء، كفاني ما لقيت منك طوال حياتي المملة، اتركيني أبدأ حياتي الجديدة بأفكار أخرى أكثر تفاؤلًا وأقل كآبة.

قتلتني الحيرة قتلًا، لأول مرة أشعر أني أنثى حائرة أمام اختيار متعدد يتطلب وقتًا وحكمة، طوال عمري كنت أستهجن عادات النساء في الوقوف منبهرات أمام عشرات الأحذية والحقائب والأثواب حتى تعثر إحداهن على ضالتها بشق الأنفس. كنت رجالية الطباع، أشتري حاجياتي بسرعة ولا أتوقف كثيرًا أمام التفاصيل. الآن فقط يجرفني تيار الحيرة أمام كل هذا المعروض من فتيات!

الاختيار مصيري، وعيون «كوارتز» وخالد تحدق بي في انتظار لا ينقصه الفضول الإنساني المقيت الذي قتل القط، كما يقول قوم هذا الرجل المتأنق الجالس بجوار سريري.

كنت أقلب صفحات مجلد الصور وأتساءل: لماذا أختار هذه وأترك تلك، أو أختار تلك وأدع هذه؟

ثم تلكأتُ قليلًا عند مجموعة من الصور، وأخذت أنظر إليها في إمعان لا بد أنه قد لفت انتباه الناظرين نحوي، كما لا بد أنه أجج من فضولهما المستعر.

الآسيويات.

ملامحهن مميزة للغاية، العيون الضيقة، عظام الوجنتين البارزة، الأنف المستدير والفتحتان المحددتان كأنهما مرسومتان بالقلم الفلوماستر، والشفتان الممتلئتان العريضتان بامتداد أسفل الوجه، والشعر الناعم في حريرية.

فيهن جمال شرقي غامض، يشع من مصدر خفي كشمس بعيدة مختبئة خلف الغمام.

يقولون إنهن متشابهات حتى إنه يصعب تمييز واحدة عن أخرى، وفي رأيي أن من يقول ذلك إنما يقوله عن استسهال أو عن جهل متسرع وانعدام ذوق.

إن العبقرية الحقيقية في هذه الملامح هي تقاربها إلى هذا الحد، وفي نفس الوقت تعددها وانقسامها إلى ملايين الهيئات والسمات الدقيقة غير المتطابقة، مثل فيروس تحور إلى ملايين الأنواع دون أن يفقد مادته الوراثية الأولية.

أي جمال عبقري يحمله هذا التوحد المتعدد؟

تباطأت حركتي ونظراتي بشدة، حتى تصاعدت سبابتي وأشارت إليها:

- هذه.

سحبا المجلد إلى جهتهما معًا، ونظرا إلى حيث أشرت.

فتاة آسيوية، ملامحها عذبة وبريئة، لو تغاضينا عن جمود الموت في ملامحها.

فتاة تتجلى في سيميائها عبقرية الملامح الآسيوية التي أعتقدها.

- لا بأس.

- هذه هي إذن.

تعليقهما، ثم أمسك «كوارتز» بقلمه المذهب سائلًا:

- هل تريدين أن تطلقي عليها اسمًا معينًا؟ أعني اسمك أنت مستقبلًا يا سيدتي.

لمحت علبة السجائر الفاخرة في جيب سترته لكني لم أهتم، وتساءلت:

- هل يمكن أن يكون اسمًا إنجليزيًا؟

روح الكتب حرامية

- كما تحبين.

ولم أفكر كثيرًا، فما زالت ذكرى نزوة نعمان الأولى تلح على مخيلتي المتعبة، وما زالت صورته معها واضحة تمامًا أمام عيني المنهكتين:

- «جيسيكا».

لأمضي بعُقدي النفسية جميعها إلى حافة النهاية بلا رجعة.

- ليكن، لننتظر ميلاد الآنسة «جيسيكا» قريبًا جدًّا.

قال خالد:

- سوف نحتاج إلى اسم ثلاثي حتى يتسنى للمحامي الخاص بك أن ينقل لها جميع ممتلكاتك.

- ضع أي اسم أوسط واسم عائلة تحبها، المهم أن يكون اسمي الأول هو «جيسيكا».

إصرارا!

نهض «كوارتز» قائلًا:

- لا بأس، سوف ننتظرك في مقر المؤسسة بعد أسبوع واحد على الأكثر للشروع في إجراءات فحص ما قبل الجراحة.

بهذه السرعة إذن.

- إلى اللقاء يا سيدتي. أراك قريبًا.

وقاده خالد إلى الخارج، ثم عاد ليقول بنبرة منخفضة:

- الأمر سيظل سرًّا بيننا، حتى المحامي لن يعرف شيئًا عن «جيسيكا» أكثر من كونها الشابة التي ستنتقل إليها كل ممتلكاتك دون إبداء أسباب. اتفقنا؟

قلت متجاهلة قوله المكرر إلى حد الامتعاض:

- إليك قراراتي الأخيرة كعصمت: أولًا إعفاء أم محمود وأخيها من الخدمة نهائيًّا.

أعلم أنه ستكون هناك دموع وتوسلات وابتزاز عاطفي بمسألة قطع الأرزاق، لكني حسمت أمري مبكرًا ولن أتراجع.

سأبدأ حياتي الجديدة نظيفة تمامًا من كل شوائب الماضي، كلها بلا استثناء.

- عليك أن تبيع سيارتي «البيجو» بأي ثمن، وتخلَّص أيضًا من كل ملابسي ومتعلقاتي وحتى كتبي القديمة، بالذات عصاي التي كنت أتوكأ عليها قبل أن آتي إلى هنا.

قال خالد:

ـ أعلم القرار التالي، لن تحضري حفل التقاعد الذي تنظمه الكلية لتكريمك.

قلت باسمة:

ـ أنت تلميذ نجيب حقًا.

ـ أعلم أنك تريدين نسيان الماضي برمته، ولا ألومك على هذا بالطبع.

ماذا ستفعل إذن لو علمت أكثر؟

ـ الآن أتركك لتنعمي بأيامك الأخيرة قبل الجراحة.

ـ لن أراك حتى وقتها؟

ـ سأراك قبل السفر مباشرة.

ـ إلى حيث لا أعلم أين. هه؟

ـ إنه اتفاق السرية الذي وقعت عليه لتوك.

ـ أعلم. أعلم. أغلق الباب خلفك بإحكام فقط.

خرج خالد، وأغلق الباب خلفه بإحكام.

وحدي، وباقة الزهور البيضاء الواردة صباح اليوم.

أمد يدي إلى داخل الصندوق الكرتوني المجاور للسرير،

الذي أحضره جلال قبل أيام من المنزل، وأخرج منه صورة مؤطرة لنعمان، كانت تحتل صدر الصالة.

أنظر إليها مليًا، وأضمها إلى صدري في حنان.

شكرًا يا نديم الروح.

أقبّل الصورة، وأقرر أن أنام محتضنة إياها هذا المساء.

أميل نحو باقة الزهور، وأقطف زهرة أشم عبيرها، وأمد يدي إلى الصورة مبتسمة كأني أهديها إلى نعمان.

ودون أن أنتبه، تجرح شوكة في ساقها يدي.

وتتلوث صورة نعمان بنقاط الدم!

***

كُل باقة

بين إغماءة وإفاقة

تَتنفّس مِثلي ـ بالكاد ـ ثانية.. ثانية

وعلى صَدرها حملت ـ راضيةً ـ

اسمَ قاتلِها.. في بطاقة!

***

عندما نمت ليلتها، لم توقظني زقزقة عصافير الشجرة في الفجر كما تفعل كل يوم، كأنها جميعًا قد رحلت بلا رجعة، أو كأنها جميعًا تعتصم بأعشاشها.

في صمت رافض!

5

دلفت سيارة الأجرة الفارهة من طراز «المرسيدس» إلى القرية السكنية الصغيرة المطلة على البحيرة، وتوقفت أمام واحد من منازل الصف الأول المطلة على الشاطئ مباشرة، ليطفئ سائقها الكهل أنوارها الأمامية، ثم ينظر إليّ في جلستي المنكمشة على الأريكة الخلفية، سائلًا:

ـ هل هذا العنوان الصحيح يا آنسة؟

ابتسمت في عذوبة وأنا أقول بصوتي الرقيق الذي لم آلفه بعد:

ـ هو، أشكرك.

هبط الرجل ليُنزل حقيبتي من خلفية السيارة، وإذ أضاء مصباح السقف مع تكة انفتاح الباب، استطعت أن ألقي بنظرة أخرى على وجهي الجديد في المرآة التي تتوسط الزجاج الأمامي.

وجه فتاة آسيوية لم تتجاوز الثامنة عشرة على الأكثر، لكنها تتحدث العربية بطلاقة امرأة كانت على استعداد لتوديع العالم منذ أسابيع قليلة ماضية.

سافرت مع خالد في طائرة طبية خاصة بمؤسسة «حياة

جديدة» إلى مكان أجهله، كل ما استطعت الحصول عليه لم يكن أكثر من جملة مقتضبة قالها والطائرة تحلق عاليًا:

- بقعة ما في قلب آسيا.

قدمي في الجبس، وقلبي القديم يرجف، وعقلي مشتت إلى مليون قطعة ومتناثر كشظايا النجوم على صفحة الليل السوداء، أما مخي فقد نقلوه إلى جسد هذه الفتاة التي تهبط من السيارة الآن، يلفح الهواء الشتوي البارد وجهها/وجهي فتلملم أطراف معطفها الثقيل، وتتأمل بعينيها الضيقتين زوايا المنزل المهجور الغارق في السكون، وتبتسم/أبتسم.

كل شيء يبدو جديدًا وقديمًا في الوقت نفسه، رأيته ولم أره من قبل، كأني ولجت أعتاب حلم لا أدري كيف بدأ وإلى أين ينتهي.

يضع السائق الكهل الحقيبة الوحيدة أمام باب المنزل، وينظر إلى ارتفاعه وحجمه، ثم يعدل من وضع القبعة الرسمية فوق رأسه، وتدفعه حداثة عمري/عمرها إلى جرأة السؤال المندهش:

- هل تسكنين في هذا المنزل كله وحدك؟

تتسع بسمتي/بسمتها، وأجيبه/تجيبه:

- أجل.

يحدق في انعكاس القمر والأضواء البعيدة على الوجه الصغير، وينعقد لسانه.

- هل يبدو الأمر غريبًا إلى هذا الحد؟

أسأله، فتنفك عقدة لسانه عن:

- أعني أنك صغيرة السن جدًّا على وضع كهذا، إنك أصغر من أصغر بناتي. ولم أقابل في حياتي فتاة مثلك تأمن على نفسها السكن وحيدة.

في هذه لديه حق، فكرت في هذا وتوصلت إلى حل ما بيني وبين نفسي:

- لن يستمر الحال على هذا طويلًا، سيأتي من يرافقني فلا تقلق.

لو كنت عصمت الآن لنهرته وزجرته وأنبته على دس أنفه في ما لا يعنيه، لكني الآن «جيسيكا» الصغيرة المقبلة على الحياة والتي لا تطيق أن تؤذي مشاعر أحد.

ودعني السائق بعد أن اطمأن على إغلاق الباب على نفسي بإحكام، وسمعت صوت دوران المحرك في الخارج وأنا ألقي بجسدي الصغير على الأريكة في حرية لم أعرفها منذ زمن

بعيد، أو ربما لم أعرفها طوال عمري أصلًا.

وداعًا يا عصمت، وداعًا إلى الأبد.

ألقيت بنظرة شاملة على المكان الخاوي كأنه قاع مقبرة، رأيته بعيني «جيسيكا» مختلفًا بشدة، لكم هو واسع ورطب ومقبض ومغطى بالعناكب والغبار والكآبة، وكان قراري الأول بيني وبين نفسي/نفسها أن عليَّ البحث عن مكان آخر للسكنى.

لن أترك هذه المدينة، فأنا أعشقها وستعشقها «جيسيكا» الجديدة التي هي أنا بالتالي، لكني تشاءمت من ريح هذا المكان الكئيبة، أريد مكانًا آخر أقل اتساعًا وأكثر حيوية، أريده عاليًا أستطيع رؤية المدينة كلها من خلاله، كفاني من الشرفة ومن النوارس ومن البحيرة ومن قهوة الغروب منزوعة الكافيين طول السنين الماضية، أريد أن أبتلع كل الكافيين الموجود في العالم داخل جوفي/جوفها لو كان هذا ممكنًا.

في ركن بجوار الباب رأيت بعينيها الصندوق الكرتوني الذي أحضره لي جلال في المستشفى ثم أعاده إلى هنا قبل سفري إلى الشرق الأقصى، والذي يحوي ألبومات الصور وإطارات الشهادات التي كانت معلقة على الحائط مع بعض الأشياء الأخرى الحميمة.

أو التي كانت حميمة.

نهضت وأخرجت صورة نعمان التي نامت في أحضاني ليلة توقيع العقد، سأحتفظ بهذه فقط وأول ما أفعله غدًا عند صحوي من النوم سيكون التخلص من كل هذه الروبابيكيا.

هذا هو قراري الثاني!

عصمت لن تحتاج لأي منها مرة أخرى، عصمت انتهت بالنسبة للعالم كله، سيتولى خالد إشاعة نبأ انتقالها للعلاج والإقامة في الولايات المتحدة الأمريكية، وسينسى الجميع أمرها بالتقادم، ولن ينتبهوا إلى أمر الطالبة الجديدة التي وفدت إلى الكلية من الولايات المتحدة الأمريكية أيضًا حاملة اسم «جيسيكا»، والتي ستنتظم في صفوف طلاب السنة الرابعة بمجرد أن ينتهي الدكتور خالد من إجراءات تسجيل دخولها ودفع الرسوم الشرعية وإكراميات ما تحت الطاولة من أجل أن يتم كل شيء بالسرعة المطلوبة.

نعم، سأعود طالبة في كليتي التي أنشأتها تحت مظلة هويتي الجديدة!

أي متعة تنتظرني هناك؟!

بل أي متع بانتظاري في شسوع هذه الحياة الجديدة التي

أستقبلها بذراعين مفتوحتين وآمال بعرض الكون؟!

الجوع.

قرصني الجوع، وعندما فتحت الثلاجة امتعضت وتذكرت النظام الغذائي المقيت الذي كنت أسير عليه في أواخر أيامي كعصمت، ألقيت بكل محتويات المطبخ من حبوب قمح جافة ومعلبات صحية في صندوق المخلفات الحميمة، وهرعت إلى الهاتف لأطلب وجبة دجاج ساخن بالشطة، ثم فتحت التلفزيون على إحدى قنوات الأغاني الفضائية وأخذت أتابعها في شغف.

لم أكن أعرف أو أتوقع أن تكون التفاهة ممتعة إلى هذا الحد.

بقدرة قادر لم تعد الإيقاعات السخيفة سخيفة، ولا الكلمات المبتذلة مبتذلة، ولا ملابس المغنيات سيئة، ولا إكسسوارهن كذلك، حتى إني أخذت أدقق في التفاصيل وأنوي شراء بعض الحاجيات المشابهة فور نزولي إلى القاهرة غدًا أو بعد غد، عندما يُحضر لي خالد مفاتيح سيارتي «الجراند شيروكي» الجديدة التي أوصته عصمت بشرائها لي فور عودته إلى هنا قبلي.

لا بد أن أعيش حياتي جيدًا، لا بد لـ«جيسيكا» أن تعوض

عصمت عن كل شيء لم تفعله في حياتها، لا بد أن أترك لكل رغباتي كفتاة في ريعان الصبا العنان، وألا أبخل على نفسي كما أوصاني نعمان نفسه قبل أن يرحل.

مضى ما مضى، وما هو آت آت.

ألقيت في صندوق المخلفات أيضًا مجموعة أسطوانات وشرائط الموسيقى الكلاسيكية التي كانت تغسل أذنيْ عصمت في أوقات التجلي، لن أحتاج لها وأنا أرقص في خفة فراشة على نغمات الأغنية التي لم تبدُ سيئة كما بدت قبل أسابيع:

مشتاقة.. يا حبيبي.. مشتاقة

والغربة.. سرّاقة

فين عيونك.. فين؟

صوتي لم يكن سيئًا أيضًا، لا يدوي في أذني الجديدتين غليظًا مشروخًا كصوت عصمت في أواخر أيامها، لا أتذكر أن صوت عصمت كان رقيقًا ناعمًا يومًا ما، لا أتجنى عليها لكني لا أدعي الموضوعية أيضًا.

المجد للعود الأخضر الغض والموت للتجاعيد الكريهة.

تناولت طعامي بشهية، وجعلتني نظرات الشاب الذي تولى

توصيل الطلب إلى هنا أفكر في الأمر مرة أخرى وبجدية أكبر: يجب ألا أسكن وحدي حتى لا أكون نهبًا للأطماع الغريزية التي يثيرها وضعي الجديد كفتاة وحيدة تملك الكثير من الجمال والنقود.

نظفتُ إحدى غرف الطابق الثاني دون عناية، وبعد نوم قصير أيقظتني طرقات على باب المنزل في وقت مبكر من النهار. دقت خطواتي فوق سلم المنزل الخشبي بإيقاع راقص، ولم أنتبه إلى أني أفتح الباب بثياب المنزل إلا عندما قابلتني بسمة خالد المتأملة في إعجاب:

- صباح الخير أيها الجمال الآسيوي.

احمر وجهي/وجهها خجلًا:

- معذرة، لم أعتد على حياة فتاة صغيرة بعد. امنحني وقتًا.

تناولتُ المبذلة من الحقيبة المفتوحة في صدر بهو الطابق السفلي وارتديتها بسرعة، وخالد يدخل عبر الباب المفتوح من خلفي قائلًا:

- لو أني أجهل كونك أستاذتي القديمة فلربما وقعت في غرامك من النظرة الأولى.

قلت ملتفتة نحوه ببسمة عذرية يتوّجها الخفر:

- ومن قال إنه يمكن أن أقبل بكهل مثلك؟

ضحك وهز كتفيه:

- إنك تتأقلمين على حياتك الجديدة بسرعة خارقة حقًّا يا دكتورة.

- كف عن مناداتي بهذا اللقب، من اليوم أنا «جيسيكا». «جيسيكا» فقط.

- ليكن يا آنسة «جيسيكا»، تفضلي.

كان يحمل مفتاحًا في يده ينتهي بميدالية تحمل شعار سيارات «الشيروكي» المعروف، فطِرتُ أخطفه من يده، ثم هرعت إلى الباب الخارجي لأراها تقف أمام الباب في انتظاري، بلونها البصلي اللامع، كمهرة أصيلة تنتظر فارسها، بالأحرى فارستها.

- خالد. هل قدتها إلى هنا بنفسك؟

- أجل.

- خسارة، كنت أتمنى أن أكون أول من تضع قدميها فيها!

- لا بأس، أعتقد أنك أول من سيضع قدمه أو يده في هذه الأشياء.

نظرت إليه فوجدته يخرج مظروفًا منتفخًا من جيبه يناوله إياي، فسألته مستغربة:

- ما هذا؟

- أوراقك: هويتك الشخصية الجديدة، وجواز سفرك الأمريكي، وبطاقات الائتمان المختلفة برصيد يتجاوز المليوني دولار. كل شيء كما طلبته تمامًا.

تناولت المظروف قائلة في بسمة امتنان:

- أشكرك، لقد أتعبتك معي حقًّا.

تأمل في ملامحي/ملامحها لبرهة، قبل أن يقول محاولًا التغلب على ذهوله:

- لقد جاء اختيارك لمظهرك الخارجي الجديد موفقًا إلى حد لم أتخيله يا دكتـ... أعني يا «جيسيكا». إني أكاد ألا أتعرف على أي من ملامح الدكتورة عصمت القديمة، وهي لعمري نتيجة مدهشة، بالذات بالنسبة إليّ!

قلت وبسمتي/بسمتها تأخذ بعدًا سحريًا متألقًا ألمحه في انعكاسي/انعكاسها في مرآة الصالة البعيدة:

- أنت لم تر شيئًا بعد. إن أمامي يومًا حافلًا لا أنوي تضييع ثانية واحدة منه.

وانطلقت نحو الحقيبة أنتقي منها ما يصلح ملابس مؤقتة للخروج، فسألني خالد:

- إلى أين؟

- سأذهب إلى القاهرة للتنزه والشراء، هل تحب أن ترافقني؟

- كان هذا ليسعدني، ولكن أمامي عمل كثير كما تعلمين، أقله متابعة عملية تقديم أوراقك كطالبة جديدة لدينا.

- صحيح. هل تسير الأمور على ما يرام؟

- حتى الآن لا توجد عراقيل. لو سارت الأمور بهذا المعدل سيمكنك الانتظام في الدراسة رسميًا بدءًا من الأسبوع القادم. رغم أني لا أجد لهذه الرغبة مبررًا حتى الآن.

- لا تشغل بالك برغباتي، فالكثير منها سيكون بغير مبرر. حاول أن تعتاد على جنوني. بالمناسبة، هل تعرف أين يمكنني العثور على أم محمود؟

اندهش، وسألني:

- ألم تعفِها من العمل قبل سفرنا رغم توسلاتها العنيفة بأن تظل معك حتى لو قمت بتخفيض راتبها؟!

وجمت للحظة، ثم قلت:

وانطلقت نحو الحقيبة أنتقي منها ما يصلح ملابس مؤقتة للخروج، فسألني خالد:

- إلى أين؟

- سأذهب إلى القاهرة للتنزه والشراء، هل تحب أن ترافقني؟

- كان هذا ليسعدني، ولكن أمامي عمل كثير كما تعلمين، أقله متابعة عملية تقديم أوراقك كطالبة جديدة لدينا.

- صحيح. هل تسير الأمور على ما يرام؟

- حتى الآن لا توجد عراقيل. لو سارت الأمور بهذا المعدل سيمكنك الانتظام في الدراسة رسميًا بدءًا من الأسبوع القادم. رغم أني لا أجد لهذه الرغبة مبررًا حتى الآن.

- لا تشغل بالك برغباتي، فالكثير منها سيكون بغير مبرر. حاول أن تعتاد على جنوني. بالمناسبة، هل تعرف أين يمكنني العثور على أم محمود؟

اندهش، وسألني:

- ألم تعفِها من العمل قبل سفرنا رغم توسلاتها العنيفة بأن تظل معك حتى لو قمت بتخفيض راتبها؟!

وجمتُ للحظة، ثم قلت:

ـ أجل، حدث هذا. كنت قاسية معها بشدة لا أفهم لها مبررًا. أعني أن الدكتورة عصمت كانت شديدة القسوة معها. الآن أشعر أني بحاجة إلى رفيق سكن، فمن غير المعقول أن تعيش فتاة في مثل سني وحيدة. أليس كذلك؟

ـ بلى، ولكن سأحاول العثور على عنوانها رغم صعوبة هذا. ولو لم تكن هي فسـ...

قلت في عناد:

ـ أريدها هي، وستعثر عليها يا خالد.

ابتسم قائلًا:

ـ الدكتورة عصمت تجاهد للطفو على السطح رغم كل شيء.

هززت كتفي، وعادت البسمة الساحرة تطفو على وجهي:

ـ لا تُتح لها الفرصة لكي تفعل إذن. وبالمناسبة أيضًا، حاول أن تجد لي منزلًا آخر مساحته أقل بحيث يكون ارتفاعه شاهقًا، في أعلى برج بالمدينة. ولا يهم السعر.

انعقد حاجباه:

ـ وماذا ستفعلين بهذا المنزل؟

ضممت ملابسي إلى صدري، وقلت مخرجة له لساني في مشاكسة صبيانية:

ـ ليس هذا من شأنك.

ودعتني بسمته وعيناه اللتان لا تصدقان بعد أنني الدكتورة عصمت، تلك التي كانت الحياة أضيق بالنسبة إليها من ثقب إبرة، فأصبحت الآن أكثر اتساعًا من مجرة درب التبانة.

***

نهبث سيارتي أسفلت الطريق السريع إلى القاهرة، سرعتي الجنونية لفتت أنظار كل من يقودون على الطريق، فاستدارت نحوي الكثير من الأعناق، وتجلى ذهول في العيون الشاخصة التي اكتشفت أن من تقود فتاة صغيرة لا شاب طائش لم يربه أهله جيدًا.

ليس اكتشاف هذا سهلًا من مجرد نظرة خاطفة، فشعر رأسي ما زال قصيرًا وإن كنت أنوي إطالته إلى نهايته مستقبلًا، المشكلة أن الوقت لم يمر بما يكفي منذ أزالوا الشعر في سبيل فتح الجمجمة وزرع مخي ـ أنا «عصمت» داخل جسدي ـ أنا «جيسيكا».

لقد بدأ المرح يا عزيزتي «جيسيكا» فاغترفي منه حتى الامتلاء، اضغطي دواسة الوقود بكل قوتك واصرخي مع

نغمات البرنامج الموسيقي المندلعة عبر راديو «الإف إم» في صخب.

يا هووووووووووووووووو.

من مجمع تجاري إلى آخر، من متجر ملابس إلى محل إكسسوار، من معرض أحذية وحقائب إلى توكيل عالمي شهير للعطور، شراء، شراء، شراء، وأكياس تتكدس في حقيبة السيارة الكبيرة وتتناثر في غير نظام على الأريكة الخلفية والمقعد المجاور للسائق.

تناولت طعامي في أفخم مطعم للكباب والكفتة، وطلبت أغلب أصناف قائمة الطعام، أكلت آيس كريم وفطيرة بالقرفة، وعببت من مشروب الكاراميل الذي أعشقه، اشتريت أحدث جهاز هاتف محمول وخطًّا فوريًا شغلته دون تأخر وهاتفت خالد في سعادة، دخلت إلى فيلم أجنبي في السينما وتناولت كيسًا كبيرًا من الفشار وعلبتين كاملتين من المياه الغازية، وبكيت في مشهد فراق البطل للبطلة، تعرضت لمعاكسات الشباب المتسكعين في الشوارع فرسمت لهم وجهًا غاضبًا متأففًا وابتسمت مغتبطة بيني وبين نفسي، عرجت على متجر شهير للحلي والمجوهرات وابتعت لي بعض الأساور والعقود والداليات، وأعطيتهم بطاقة ائتماني في فخر بينما أجرب أسورة جديدة من الذهب الملون أمام

مرآة المتجر الكبيرة، وعندها... عندها لاحظت ذلك الجرح في رسغي الأيمن/رسغها الأيمن. الجرح الملتئم الذي يمكن الاستعانة به في كتب الطب الشرعي كمثال نموذجي لما يمكن أن ينتج عن محاولة انتحار بواسطة موسى حاد.

كلا، ليس هذا جرحًا عرضيًا وأنا أعرف ما أقول، كنت من المتفوقات في علم الطب الشرعي كما في سائر العلوم الأخرى، وزاوية الجرح وطوله وطريقة التئامه الدالة على عمقه وطبيعة حوافه، كلها عوامل تؤكد أن صاحبة هذا الجسد قبلي قد أقدمت على الانتحار بهذه الوسيلة المريعة: قطع شريان الرسغ.

فجأة، أشع ضوء قوي أمام عيني رأيت فيه اللحظات الأخيرة من حياة عصمت، قبل دخولها غرفة العمليات مباشرة.

***

كان «توم كوارتز» يقف إلى جوار سريري مرتديًا بدلة إنجليزية فاخرة أخرى، وأنا أترنح فوق حبل الحد الفاصل بين الواقع والحلم، عندما انحنى نحوي وقال:

- استعدي يا دكتورة عصمت، عندما تفيقين لن تكوني أنت التي تعرفينها الآن.

قالت الدكتورة عصمت العجوز في وهن:

- سأكون «جيسيكا».

انفتح باب الغرفة بغتة ودخل سرير مدفوع على عجلات تصر فوق السيراميك، واستدارت عصمت العجوز لتنظر إلى الجسد المغطى فوق السرير، جمال آسيوي نائم برأس حليق مرسوم فوقه بقلم أماكن الفتح الجراحية في عناية هندسية.

قال الدكتور «كوارتز»:

- سأكون بجوارك في غرفة العمليات فلا تقلقي، إن جراحينا من أمهر الكفاءات في العالم كله.

سألت بوهن أشد:

- أين خالد؟

- سيتابع كل شيء على شاشة خارج غرفة العمليات المزدحمة بما فيه الكفاية. كنت أتمنى لو كانت لديّ المهارة اللازمة للقيام بالعملية بنفسي، لكني لست بهذه الكفاءة للأسف.

قالها «كوارتز»، ثم ملأت ملامحه الباسمة مجال رؤيتي القريب وأضاف بلهجة غريبة:

- سأكون بجوارك، فلا تقلقي!

***

وسقط السوار من يدي أمام المرآة في محل المجوهرات، ولم أدر بنفسي إلا وأنا أنظر إليها ـ إلى «جيسيكا» الذاهلة في المرآة في جذع، ثم أهرع نحو العاملة التي تجلب لي علبة من الخواتم حتى أنتقي منها، فأنتزع بطاقتي الائتمانية من يدها، وأهرول نحو الخارج بينما عيناها تتابعاني في دهشة متسائلة.

قدت السيارة في طريق العودة بتهور أكبر حتى إني بلغت المنزل في وقت قياسي، وفي غرفتي بالطابق الثاني، بين الأكياس والأثواب والحاجيات المتناثرة في كل مكان، اتجهت إلى الشرفة المطلة على البحيرة من أعلى، ورأيت شابًا وشابة يسيران معًا يحتضن كل منهما كف الآخر في رومانسية يسترها سواد الليل.

لحظتها تأكدت بيني وبين نفسي أني لم أشعر بالسعادة الموعودة بعد.

مَن الذي قال «إن السعادة هي الإحساس الذي تحصل عليه عندما تكون مشغولًا لدرجة لا تستطيع معها أن تحزن»؟

لا أذكر مَن، إلا أنه لم يكن مخطئًا قَطُّ في رأيي.

مر اليوم سريعًا، لكني لن أقضي أيامي وحيدة، ولن أترك لنفسي مجالًا للانغماس في خواطر قلقة حول جرح الرسغ الأيمن وهوية الفتاة التي أحتل بمخي جسدها الآن، لأني أعرف أن هذا لن يوصلني إلى شيء، لتكن قد انتحرت أو حاولت الانتحار وأنقذوها، لتكن من تكون، وليكن موتها قد تم بأي طريقة، تعددت الأسباب والموت واحد، الحقيقة الوحيدة الآن أنها قد أصبحت أنا، وأنا قد أصبحت هي، اختفت عصمت واختفت فتاة من قلب آسيا لتظهر «جيسيكا»: كائن جديد تمامًا ومختلف تمامًا عن الاثنتين.

كان له الحق كل الحق في الحياة والاختلاط بالآخرين.

الآخرون...

عذرًا يا سيد «سارتر»، ليس الآخرون جحيمًا كما صرخ بطل مسرحيتك «جلسة سرية»، فالجنة ليست جنة عندما تعيش فيها وحيدًا، حتى آدم لم يستطع أن يحتمل وحدته، فخرجت حواء من ضلعه لتؤنسه، فما بالك بالأخيرة التي لم تعتد على حياة الوحدة من الأصل سواء في الجنة أو خارجها؟

أمسكتُ بالهاتف وطلبت الرقم الوحيد الذي أعرفه، رقم خالد الذي رد عليّ ضاحكًا:

- مكالمتان في يوم واحد، لعلي محظوظ حقًّا.

- ليتني كنت في مثل سعادتك.

- ما الأمر؟! هل كل شيء على ما يرام؟

- هل عثرت على أم محمود؟

- ليس بعد، لكن اطمئني، لقد أوصيت أكثر من طرف بالبحث عنها ولن يمضي وقت طويل حتى...

قاطعته:

- وإجراءات قبولي في الكلية؟

- أخبرتك في الصباح أنه...

- هل يمكنني الذهاب من الغد؟

- بالطبع، ولكن وجودك لن يكون بصفة رسمية.

- لا يهمني هذا كثيرًا، أحتاج فقط إلى بعض ثاني أكسيد الكربون. أنت تفهم ما أعنيه.

- إنك لا تحتملين الوحدة، ظننت أن الدكتورة عصمت قد...

صرخت فيه في غضبة غير مبررة:

- لا تنطق اسمها مرة أخرى، لقد ذهبت إلى غير رجعة. هل

تفهم؟

وأغلقت الخط في وجهه.

لقد أخبرته في الصباح أن يستعد لجنوني في أي وقت وأي هيئة، المهم أني غدًا سأكون بين الطلبة في الكلية، عدة ساعات ستمضي بطيئة لأني فقط أريدها أن تمضي، عدة ساعات ولن أكون وحدي ثانية.

نمت وأنا أشاهد التلفزيون، وفي الحلم، كان وجه «توم كوارتز» يحتل كل المساحات وهو يميل نحو وجهي هامسًا:

- سأكون بجوارك، فلا تقلقي.

ثم يتراجع، لأتبين أنه يحمل في إحدى يديه رأس عصمت المقطوع، وفي اليد الأخرى رأس من تدعى الآن «جيسيكا».

وفي المرآة القريبة، استطعت أن أرى عنقي، دونما رأس فوقه.

6

كلما غفوت يوقظني كابوس، وبعد ليلة أرق ليلاء تسلل الضوء الرمادي الشاحب عبر خصاص الشرفة أخيرًا، فارتديت ثيابي الجديدة في حماس مبالغ فيه كأني أهرب من شيء ما، وكنت أول طالبة تدخل إلى الكلية، وتجلس في الكافتيريا في انتظار الآخرين.

طلبت كوبًا من القهوة المُرَّة، وجعلت أحتسيها بغير شهية وأنا جالسة أجول ببصري فيما حولي، أكاد لا أصدق أني أنا من أنشأت كل هذا في حياتها الأولى بوجه عصمت.

يبدو وجودي اليوم بوجه «جيسيكا» الفتي مجرد فصل آخر من رواية عبثية، أو مشهد فانتازي في سياق فيلم مهرجانات.

رويدًا رويدًا، بدأت السيارات تزداد حول «الجراند شيروكي» البصلي الواقفة وحيدة في المرآب الذي تشرف عليه الكافتيريا، وبدأ الطلاب يتجمعون تحت المظلات ويعلو صياحهم بالمزاح والمناقشات، مع بعض المرضى الذين أتوا من المستشفى التعليمي القريب ليبتاعوا بعض الحاجيات لأنفسهم أو لذويهم.

وأنا وحدي، أنتظر إشارة بدء تدفعني إلى قلب المعترك

الطلابي، لأجد نفسي واحدة منهم.

كيف؟

سأنتظر.

ازداد الصخب من حولي وشعرت بالنعاس، تذكرت أن الكوابيس لم تتركني أنام الليل جيدًا، فنهضت أطلب كوب قهوة آخر من البائع الواقف عند منضدة الكافتيريا، وانتبهت عندها إلى أني أقف بجوار شاب أعرفه.

(كان هو الفتى الذي رأيته يعزف الجيتار على الطوار، وعن قرب تمكنت من فهم مفتاح شخصيته قبل حتى أن يفتح فمه).

(بعينيه الملونتين وشعره الطويل وذقنه الحليق).

كلا، لم يكن ذقنه حليقًا هذه المرَّة، وإنما نامٍ في إهمال، وإن كان شعره لا يزال طويلًا في غير ترتيب، وإن كانت عيناه لم تفقدا ألوانهما بعد بطبيعة الحال.

ابتسمتُ للمفارقة، منذ أسابيع كنت أنا الدكتورة التي تختبره وتضع له درجة الرسوب بضمير مستريح لكي يتعلم درسًا ما، وتحلله نفسيًا بامتعاض «عجائز الفرح» على أنه الفتى المدلل الذي يتسامح مع نفسه إلى حد الفساد، والآن

أقف إلى جواره وأنظر إليه دون أن ينتبه هو لكوني أفعل، ودون أن يتصور أنني أنا التي كانت تتلذذ بتعذيبه منذ فترة ليست طويلة.

ماذا كان اسمه؟ «طارق» أم «ياسر»؟

تبدو فكرة اقتحامه غير جذابة، بالذات وهو شارد عني وعن كل ما حوله.

عندما استدار حاملًا ما طلبه بين يديه قرأت في عينيه الحمراوين إرهاق سهر طويل، ولاحظت كدمة زرقاء في طريقها للاختفاء قرب عينه اليسرى، وتجمدتُ لوهلة طويلة نسبيًا بحاجبين منعقدين كنت قد رسمتهما بعناية أمام المرآة هذا الصباح وأنا أنظر إليه، لم أفق إلا على نداء البائع والكوب الورقي في يده يضوع منه البخار الساخن:

- القهوة يا آنسة.

يا للغرابة، ما الذي يحدث لي ولحكمي القديم على الأشياء؟!

أكاد أجزم بخطأ شعوري الأول تجاه هذا الفتى. أكاد أكون واثقة أنه ليس ذلك الوسيم الذي يتيه فخرًا بوسامته، وليس ذلك المدلل الذي يدفعه التدليل الزائد إلى حب نفسه والغفران لها وعدم الميل لإهانتها. لقد كنت مخطئة، أعني أن

عصمت كانت مخطئة، وكانت تبسط الأمور إلى حد التسطيح، أقولها بكل ثقة رغم أنه لا دليل على ما أقول، فأنا لا أعرف عن الفتى شيئًا ولا أذكر اسمه حتى.

يبدو أن حياتي الجديدة تُغير من نظرتي إلى الأمور دون أسانيد واضحة، وهو ما لا أشعر براحة كبيرة تجاهه، خصوصًا أني لا أجد سببًا وجيهًا لخفقان قلبي المضطرب الآن وأنا أراقبه من بعيد، يجلس وحيدًا، وبجواره حقيبة الجيتار الجلدية السوداء الكبيرة مستندة بحافتها على المقعد وبقاعدتها على حشائش الأرض الخضراء، أما هو فعاقد ساعديه وناظر في المجهول.

ما الذي يحدث لي؟

لم أدرِ كم تجمد الزمن، لكني أدري أنني رأيت كل شيء.

رأيت الفتى الآخر الذي نادى باسمه بجوار سيارتي «الجراند شيروكي»:

ـ طاااااريييييق.

رأيته ينظر نحو جهة النداء وعرفت طبعًا أن اسمه ليس ياسر، ورأيته ينهض سائرًا عندما أشار له الفتى الآخر أن يقترب، ورأيت الفتى الثالث يقترب من المقعد الشاغر من الجهة الأخرى وعلى وجهه سمات التآمر العابث.

هذا الفتى الثالث أعرفه أيضًا، لقد كان أول من اختبرتهم في ذلك اليوم الذي لم يكن بعيدًا.

(الطالب البدين الذي رأيته يتظارف عند دخولي للكلية، وكان يرتدي المعطف الأبيض وعلى رأسه نفس القبعة التي رأيته بها في الخارج).

ماذا كان اسمه؟ «مؤمن» أم «أمين»؟

لم يكن يرتدي المعطف الأبيض الآن، لكنها نفس القبعة ونفس الملامح ونفس الميول العدوانية التي قرأتها في عينيه يومها من الوهلة الأولى.

إن نظرتي نحو هذا الفتى لم تكن خاطئة على أي حال، لو كان في هذا تخفيف عليّ أو تهوين من شأن ما حدث، فما حدث هو أنني رأيته يقترب من المقعد الذي كان طارق يجلس عليه، وبحركة خفية مد يده ليُسقط حقيبة الجيتار الجلدية السوداء على الحشائش الخضراء، ثم مع سابق الإصرار وكامل الترصد اخترقت قدمه الثقيلة علبة الجيتار الخشبية التي أصدرت صوت تحطم ممتزج بتمزق الأوتار المؤلم، كأنها قلوب حية تنخلع من مستقرها في جنبات صدور منفجرة.

التفت الجميع نحو مكان الجريمة، طارق والفتى الذي كان

يحادثه ـ قرأتُ في عينيه هو الآخر لمحة تآمرية متواطئة مع نظرة الفتى البدين ـ وجميع من كانوا في الكافتيريا والمرآب تقريبًا، واخترق طبلة أذني هتاف طارق الملتاع:

ـ مؤمن؟ ما الذي تفعله؟!

ورأيت مؤمن ـ لم يكن اسمه «أمين» كما هو واضح ـ يتظاهر بالبراءة مع مسحة لا تخفى من السخرية السيكوباثية:

ـ «أوبس». يبدو أنني قد خطوت فوقه بالخطأ. تقبل عذري يا شقيق.

هرع طارق ركضًا نحو الجيتار، واحتضن بقاياه كما تحتضن الأم طفلها بعد أن صدمته سيارة على قارعة الطريق، وغامت سماء عينيه الملونتين بدموع على وشك الانهمار.

أضاءت أمام عيني في سطوع البرق صورته وهو يبكي بعد أن خرج من لجنة الامتحان، وتذكرت امتعاضي من بكائه وقتها فامتعضت من نفسي بأثر رجعي، وتأججت النيران في دمي، إذ أنهض وأتجه نحو مؤمن، الذي كان يهز كتفيه ويتحدث كأنه بريء بالفعل:

ـ لا تترك حاجياتك ملقاة هكذا في طريق السير يا صديقي،

واهتم بأمرها أكثر.

كان طارق يهتز انفعالًا وهو يغمغم بصوت سمعته بالكاد:

ـ لو تعرف كم كلفني هذا الجيتار! لو تعرف!

اكتسبت نبرته تعاطف الواقفين الناظرين في صمت، فعاد مؤمن يقول:

ـ صدقني لم أنتبه إلى أنه في طريقي عندما...

ـ كاذب!

دوى هتافي بها في صرامة، والتفتت نحوي كل العيون التي تموج بانفعالات مختلفة على الفور، ما بين دهشة، تساؤل، غضب، حماس، استنكار، رغبة في الفهم، ولا مبالاة.

سألني مؤمن وهو يشير إلى صدره بإبهامه المكتنز، في لهجة مفعمة بالاستهجان:

ـ هل تتحدثين إليّ يا آنسة؟

كان طارق ينظر نحوي بعينيه المنكسرتين كأنهما تطلبان نجدة ما، فيما أقول مشيرة إلى مكان جلوسي أتناول القهوة:

ـ أجل، أتحدث إليك. فما من كاذب هنا إلا أنت يا صاح. لقد رأيت كل شيء من هناك.

عقد الفتى البدين ذراعيه الضخمتين أمام صدره قائلًا:

ـ ومَن تكونين حتى يهتم أحد بالاستماع إليك أصلًا؟

الوغد! لو كنت في موقع قوتي الأول الآن لفصلته من الكلية عشر مرات على الأقل، ولو حدثني رئيس الجمهورية بعدها شخصيًا من أجل إرجاعه لَما فعلت. لكني الآن، مجرد...

ـ طالبة جديدة معكم في الكلية.

قلتها من بين أسناني وأنا أشيح بوجهي ويدي كأني أنفي عن نفسي تهمة ما، فأتاني الرد الوحيد المتوقع:

ـ ططظ!

ثم ضحك ساخرًا وهو يبتعد واضعًا ذراعه فوق كتف الفتى الآخر، أما طارق فقد كان يهتز كالريح محتضنًا الجيتار المحطم داخل حقيبته، وهو لا يزال على حافة الانفجار في البكاء الثاكل، بينما بدأ المتحلقون في الانفضاض إلى شؤونهم بعد أن أتم مؤمن رغبته المريضة في «صنع مشهد» كما يقول الغربيون. إنها عين الرغبة التي اجتاحتني دون غرض أو مرض، وأنا أمد يدي إلى ذراع الفتى وأساعده على النهوض، مما حبس دموعه خلف قناع من الجمود، أو قل الذهول.

- انهض، ولا تستسلم.

قلتها في صرامة متجهمة، وأنا أمد كفي وأسوي ثيابه وأنفض عنها الغبار بنفسي، وانتبهت إلى أني أمارس دورًا أموميًا لم يدعني إليه أحد، فتوقفت عما أفعل وتنحنحت مدارية حرجي، ثم مددت يدي مصافحة إياه:

- عذرًا، لم أعرفك بنفسي بعد. اسمي «جيسيكا».

صافحني بنفس الذهول، أو قل الجمود، وقد كان كل هذا كافيًا لصنع المشهد الذي أريده لكني تماديت أكثر، فأمسكت بحقيبة الجيتار الساقطة أرضًا، وقبضت كفي الأخرى على معصم طارق، ثم جذبته خلفي سائرة بخطوات واسعة نحو مكتب العميد:

- يجب أن نسرع إلى هناك ونشكو إليه فورًا.

***

هكذا كان المشهد ملهمًا بحق، فريدًا من نوعه إلى حد الجنون: فتاة بوجه آسيوي مليح تمسك بحقيبة جيتار وتجرجر خلفها أحد الطلبة المستسلمين لها من معصمه حتى تبلغ مكتب العميد بالفعل، فتقابل هناك السكرتيرة التي لم تكن تصلح لتثبيت زر في قميص الدكتورة عصمت، وتهتف

بها دون وعي:

ـ أين عزت؟

ينعقد حاجبا السكرتيرة المرسومين بقلم حواجب رخيص، وتحاول أن تتأكد مما سمعته وهي تنظر إليّ وإلى حقيبة الجيتار وإلى طارق:

ـ مَن؟!

أنتبه إلى أني لم أعد الدكتورة عصمت التي يُبجلها الجميع خوفًا من تجاوزات شيخوختها غالبًا، واحترامًا لتاريخها الطويل أحيانًا، فأعدل من قولي بعض الشيء:

ـ أعني العميد. أريد مقابلة العميد الآن.

تخاطبني اللعينة في جفاء روتيني:

ـ ما السبب؟

ـ شكوى.

ـ ومَن تكونين؟

ـ طالبة. أعني باعتبار ما سيكون. سأكون طالبة رسميًا بعد أيام قليلة.

ـ للأسف الدكتور عزت مشغول وهو في العموم لا يقابل

الطلبة.

لو أني كنت أقل اندفاعًا وفكرت في الأمر قليلًا لربما غيرت رأيي قبل أن أقف موقفًا كهذا.

ـ لو أن لديك شكوى ما يمكنك كتابتها وسأضعها في ملف البريد ليطلع عليها فيما بعد.

لكن ما حدث قد حدث ولن يمكن إعادة الزمن إلى الوراء، وهذه المتأنقة لا تعرف مع مَن تتحدث لمجرد أن مخي قد انتقل إلى جسد آخر.

ـ كلا، لن أكتب شيئًا.

قلتها في تصميم، وتذكرت قول الإنجليز: «إنك إن أطلقت النار على الملكة فمن الأفضل لك أن تصيبها في مقتل!».

ـ وسأقابل العميد الآن، شئتِ أم أبيتِ.

وبمنتهى السرعة استدرت نحو الباب المغلق، وأنا ما زلت قابضة بكفي على معصم طارق الذي بدا أشبه بطفل هادئ لا يملك من أمر نفسه شيئًا، واقتحمت المكتب بحركة رعناء مكرِّرةً ذلك المشهد الخالد في تراثنا السينمائي والتلفزيوني حتى اليوم.

السكرتيرة تحاول اللحاق بي منادية بكل الألقاب الممكنة

«يا آنسة، يا فتاة، أنت يا...»، وبالطبع لا حياة لمن تنادي، وفي النهاية أقف متجمدة أمام الباب المفتوح وعزت (بصلعته اللامعة وبسمته الأكثر لمعانًا وأناقته الفاضحة التي تكاد تعشي بصر من ينظر إليها مباشرة) ينظر نحوي من وراء مكتبه مستغربًا ومتسائلًا:

- ما الذي يحدث؟

صوت السكرتيرة من ورائي:

- حاولت منعها ولم أستطع، هل أنادي الأمن يا دكتور عزت؟

كل هذا مكرر لحد الإعياء، غير أن عزت حاول أن يخرج عن النص المحفوظ بإضافة بعض الإثارة عندما هتف في حزم مستاء:

- طبعًا، وليخرجهما رجال الأمن من هنا على الفور.

ثم عاد لميراث المحفوظات العتيد:

- إنها ليست وكالة بلا بوّاب!

هل يجب أن يكون هناك بوّاب لكل وكالة؟ سؤال أضعه بكل المحبة أمام كتّاب الحوار الدرامي الذين أشبعونا بهذه الجملة. لا أذكر أني سمعتها على أرض الواقع طوال حياتي

المديدة الأخرى، لكن هذه ـ كما يقول البعض ـ قصة أخرى.

هتفت محاولة أن أتدارك الأمر:

ـ لا حاجة لذلك، أردت فقط أن أضع هذا أمامك يا دكتور.

وانهلتُ بحقيبة الجيتار على المكتب بكل ما في الجسد الضئيل الذي أحتله من قوة، فتحطمت ذراعه الخشبية داخل الحقيبة، وبهتَ عزت لما يجري، فيما أتابع طرق الحديد ساخنًا، دون أن تعاونني نبراتي الرقيقة على أن يكون لصياحي الوقع المرعب الذي أرومه:

ـ لو كنتَ عاجزًا عن السيطرة على ما يجري بين الطلبة من مشكلات، بحيث يتحول الحرم الجامعي نفسه إلى شريعة الغاب التي يلتهم فيها القوي الضعيف، فلا أقل من أن تحترم مقعدك الذي تجلس عليه، وترحل!

ثم إني اقتربت أكثر من حافة مكتبه، ولا بد أنه رأى انعكاسًا ما لوجه عصمت على ملامحي الآسيوية الغاضبة، وقلت مشيرة نحوه بسبابتي:

ـ عندما كانت الدكتورة عصمت تجلس فوق هذا المقعد كان بابها مفتوحًا للجميع، وكانت جزءًا من عالم الطلبة لأنهم هم عماد الكلية الحقيقي. حقًّا، إنك تسير على قواعدها بممحاة كما أخبرتُكَ آخر مرة!

واندفعتُ أغادر حجرة المكتب، تاركة إياه يضرب أخماسًا في أسداس، ينظر إلى السكرتيرة مشيرًا إلى الباب وهو يسأل في جزع:

ـ مَن هذه؟!

فتهز الأخيرة كتفيها في جهل، وبينهما طارق في وضع لا يُحسد عليه أبدًا.

***

عدتُ إلى سيارتي، أغلقتُ الباب على نفسي بعنف وحرَّكتها إلى الخلف ضاغطة دواسة الوقود بكل قوة ثم الكوابح بقوة أكبر، فالتفتت نحوي الأنظار من جديد.

يبدو أني مضطرة إلى الاعتذار للسيد «سارتر»، إن الآخرين جحيم لا يطاق بالفعل.

في سرعة من النوع الذي ينتهي بكارثة كنت أقود السيارة نحو بوابة الخروج، وحلت الكارثة بسرعة لم أتوقعها، أو للدقة كادت أن تحل، عندما كنت قاب قوسين أو أدنى من أن أصدم تلك المرأة السمينة المحجبة ذات العباءة السوداء.

ضغطت الكوابح بشدة صرت لها العجلات المحتكة بالأسفلت، وهبطت في سرعة أعاون السيدة ـ التي سقطت

أرضًا دون أن تصاب لحُسن الحظ ـ على النهوض، فقط لأكتشف أنها...

ـ أم محمود؟

نظرت نحوي المرأة في غباء وهي تتحامل على نفسها واقفة، ثم سألتني لاهثة:

ـ هل تعرفينني يا ابنتي؟

كدت أضحك.

ابنتها؟! وأنا التي كنت منذ أسابيع قليلة أكبرها سنًا بكثير، مع خالص الشكر لمؤسسة «حياة جديدة» المحدودة!

ـ أجل أعرفك جيدًا، الدكتورة عصمت هي من أخبرتني عنك.

لم تدقق المرأة ذات العقلية البسيطة في كلامي، فحتى لو كان هناك من أخبرني عنها، كيف يمكن أن يجعلني ذلك أتعرف عليها؟

لقد أشرق وجهها ببسمة طيبة وهي تسألني في إخلاص:

ـ الدكتورة عصمت! كيف حالها؟ وأين هي الآن؟

ـ سافرت ولن تعود، لكنها أوصتني بك خيرًا. إنني أقيم في

منزلها الآن، وأريدك أن تعودي لكي تمارسي مهام عملك في المنزل. ما رأيك؟

ـ من عيني.

كانت مصادفة غريبة هونت عليّ نكد اليوم قليلًا:

ـ لكن، ما الذي تفعلينه هنا يا أم محمود؟

ـ ابن أختي مريض يُعالج هنا منذ شهور في القسم المجاني، و...

تذكرت، كانت قد طلبت مني أيام كنت عصمت أن أتدخل لعلاجه على نفقة الدولة، لكني وبمنتهى الصفاقة والقسوة صددتها، وهو ما لا أسامح عليه نفسي الآن كـ«جيسيكا»:

ـ آه! نعم... الدكتورة عصمت طلبت مني أن أهتم بالأمر. ما اسمه؟

ـ مَن؟

ـ ابن أختك المريض.

أعطتني اسمه، فهاتفت خالد على الفور وأمليته إياه، واندهش هو لمطلبي وأنا أقول:

ـ أريدك أن تهتم به، وأن تنهي إجراءات علاجه على نفقة

الدولة، لو تطلبت حالته علاجًا مكلفًا فسأتحمل تكاليفه كاملة في أكبر مستشفى خاص بالبلاد أو خارجها.. «أوكيه»؟

- هل هو مهم بالنسبة إليك لهذه الدرجة؟

- أكثر مما يمكنك أن تتخيل.

كانت المرأة واقفة بجواري لا تكاد تصدق ما تراه وتسمعه، أما خالد فقد طمأنني:

- سأهتم به، لا تقلقي، ولكن...

ثم إنه سألني:

- هل أنت السبب في الارتباك والفوضى التي تعم مكتب العميد الآن؟ أم أن هناك من تحمل ملامح آسيوية غيرك في الكلية؟

أجبته في غموض واضح:

- أراهن أنك ستعرف كيف تلملم الأمور. إن عزت وغد، والأوغاد ينسون الإهانة بسرعة لأنهم معتادون على تلقيها. أليس كذلك؟

أجابني ضاحكًا:

- بلى، ولكن لا تعتمدي على قدراتي الخارقة في كل شيء.

انتهت المكالمة وأنا أنظر إلى أم محمود باسمة، وانتبهت لحظتها إلى نفير السيارة التي تسد عليها سيارتي الطريق، فقلت لها ملوحة بسبابتي:

ـ سأنتظرك من اليوم لو كان هذا ممكنًا.

ثم اتخذت مقعدي وأغلقت الباب بينما سؤالها يلاحقني:

ـ لا تؤاخذيني، ما هو اسمك يا ابنتي؟

كيف سأخبرها بنطقه الصعب؟

ـ «جي جي». يمكنك أن تناديني بـ«جي جي».

وانطلقت بي السيارة.

***

في صباح اليوم التالي هبطتُ منها أمام كافتيريا الكلية حاملة حقيبة أخرى تأخذ هيئة الجيتار، حقيبة أكبر حجمًا ذات لون بني، وتحوي جيتارًا كما لا يحتاج المرء إلى عبقرية فذة حتى يدرك هذا، واتجهت حاملة إياها إلى طارق الجالس على أحد المقاعد العريضة وسط بعض الفتيان معطيًا ظهره لي، ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أقتحم جلستهم وأوقف حديثهم وأناول الحقيبة إلى طارق:

ـ تفضل.

وجم الجميع، ونظروا إليّ في استغراب لكني لم أهتم. لقد بلغت من العمر في حياتي الأولى على الأقل ما هو كفيل بإعفائي من أي حرج ممكن.

- ما هذا؟

- خمن.

تناول الحقيبة من يدي الممدودة، وفتحها ليفاجأ وينبهر:

- رباه! هذا أغلى أنواع الجيتارات على الإطلاق.

قلت باسمة، ومتجاهلة مغزى نظرات الفتيان نحوي:

- لا يغلو عليك، لكن عليك أن تهتم بهذا أكثر، وأن تعرف كيف تدافع عن نفسك إذا تعرض لك أحد بالمضايقة.

رفع إليّ عينين ممتنتين:

- أشكرك يا «جيسيكا».

قلت بعينين أكثر امتنانًا وضيقًا:

- من الجميل أنك لا تزال تذكر اسمي. والآن، ألن تعزف عليه شيئًا؟

وجلست إلى جواره مباشرة، فتبادل الشباب نظرات فيها آلاف المعاني التي لم يكن أي منها يروق لي، لكني كبرت على

الاهتمام بهذه الصغائر حتى لو كان مظهري الخارجي لا يشي بذلك.

عزف طارق لحنًا جميلًا، وطرت مع همسات الأوتار المتجانسة الممتزجة بصوته الناعم الحنون، وبينما هو مندمج في العزف والغناء، كانت هي تتمسح بفرائها الناعم عند قدمي أسفل المقعد.

ذهلت لمرآها، وحملتها بين يدي هاتفة باسمها الذي لم أنسه بعد:

ـ «تمارا»!

(في أثناء غياب الجميع، وأنا وحدي في الغرفة، دخلت متسللة نحوي في خفة، فلم أشعر بها إلا وهي تقفز فوق جسدي المسجى فوق سرير الآلام).

هي القطيطة الصغيرة التي زارتني في أثناء إقامتي الجبرية ـ أعني إقامة عصمت ـ للعلاج البائس من كسر رأس عظمة الفخذ، أستطيع تمييز ملامحها وعينيها وشواربها دون أدنى نسبة خطأ. خبيرة مثلي عاشت عمرها مع زوج يرعى القطط في حماس جنوني يمكنها أن تتعرف إلى قطة رأتها مسبقًا بمجرد النظر، لقد كانت فوق صدري تمامًا تلعق وجهي/وجهها حتى أخذ...

(آسف يا تانت).

حتى نهضت فجأة حاملة القطيطة معي، وهرولت في سرعة نحو المستشفى القريب تتابعني العيون المكبوتة، وكان طارق قد توقف عن الغناء لتنهال تعليقات الفتيان السخيفة تجاهه وتجاهي من وراء ظهري المبتعد.

داخل المستشفى مررت بالغرفة التي كنت مقيمة فيها قبل أسابيع، هنا على ذلك السرير كنت أموت في الثانية الواحدة عدة مئات من المرَّات، وها أنا ذا قد عدت داخل جسد آخر، لأتذكر تلك الأيام بكل النفور وكل الرغبة في الابتعاد عن هنا فورًا.

سأبتعد لكن يتعين عليّ أن أعيد «تمارا» إلى صاحبها أولًا.

(طفل صغير في رداء منزلي، عيناه ذكيتان وحادتان، نحيل ورأسه حليق تمامًا).

على سريري القديم الآن يرقد مريض آخر لا تهمني رؤيته، وقد تجاوزت الغرفة في سرعة ووقفت أمام باب الغرفة المجاورة المغلق. كدتُ أطرقه غير أن الممرضة التي خرجت أولًا نظرت إليّ متسائلة:

ـ نعم؟

لم ألقِ بالًا إلى جلافتها، وسألتها في تلعثم مرتبك:

ـ هـ... هناك شخص. أعني طفل صغير. كان اسمه كريم على ما أتذكر، وكان يُعالج في هذه الغرفة من...

قاطعتني بنفاد صبر:

ـ البقاء لله.

صحت في رعب:

ـ ماذا؟ مات؟!

هزت رأسها في إيجاب، ومن قلب الدوار الذي اعتراني سألتها:

ـ منذ متى؟

أجابتني وهي تنصرف:

ـ منذ بضعة أيام.

واختفت، بل اختفى كل شيء من أمامي بغتة.

(فيما بعد عرفت أن كريم هو ابن رجل على باب الله، يتم علاجه هنا في القسم المجاني من وحش «الليموكيميا» أو سرطان الدم).

لم يبقَ في هذا الكون كله سواي، و«تمارا» بين يدي،

ودموعي تنهمر دون أن أستطيع وقفها فوق وجنتي.

انطلقت صرخات الطفل المريض الذي لم أره إلا مرة واحدة في حياتي كلها ترميني بحجارة من سجيل، طاردتني حتى المنزل، أقضت على مضجعي ولم تخفت قليلًا إلا عندما قررت أن أدفع تبرعًا كبيرًا لجمعية خيرية متخصصة في علاج سرطان الأطفال، وكان خالد كالمعتاد هو من تولى تنفيذ المهمة عني.

أما «تمارا» فقد أصبحت طفلتي الجديدة في المنزل الذي لم يعد مقبرة، تقيم أم محمود معي الآن، وما زال مخطط انتقالي لمكان آخر ساريًا فور عثور خالد على هذا المكان المنشود. إنه لن يستطيع القيام بكل شيء في وقت واحد، طلباتي كثيرة وهو ليس مدير أعمالي الخاص، هو في النهاية طبيب محترم وجراح ماهر، جدوله مزدحم على الدوام، ويتحرك بوازع أخلاقي ليخدم أستاذته دون مقابل.

سألتني أم محمود:

- عذرًا يا آنسة «جي جي»، ألن تحتاجي سائقًا خاصًا يريحك من عناء القيادة؟

أعرف ماذا تعني:

- ألم يعثر جلال على عمل آخر بعد؟

- كلا، ووراءه كوم لحم!

يا لجمل الحوار المكررة، شكرًا يا كتاب الحوار الدرامي الأجلاء.

- سأصرف له راتبه الشهري القديم دون الحاجة لأي من خدماته.

ولم تصدق المرأة الطيبة نفسها، كما لم تكن عصمت لتصدق أيضًا.

الثروة التي ألقى بها نعمان ضخمة، وأنا لم أتعب في جنيها، كما لم يتعب نعمان رحمه الله هو الآخر.

كل هدفي الآن أن أحاول إسعاد من أعرفهم بها على الأقل.

أتصور هذا هدفًا جليلًا، ولا أتصور أن أحدًا يخالفني وجهة النظر، وعلى المتضرر اللجوء برأسه إلى أقرب حائط!

***

انتظمتُ أخيرًا طالبة بصفة رسمية في كلية الطب، وتوطدت علاقتي بطارق من النظرات المتباعدة إلى الجلسات المطولة وتبادل الحوارات الجانبية وحدنا، تكرر ظهورنا معًا بكثرة داخل الكلية، وقد حدثني الفتى عن حياته كثيرًا، ليثبت لي كم كانت نظرة عصمت متجنية تجاهه.

سألته يومًا عن الجرح الذي يشق شفته السفلى طوليًا:

- ألا تنتبه حتى لا تصاب بهذه الحوادث العرضية المستمرة؟

ابتسم في سخرية مريرة:

- ومَن أخبرك أنها حوادث عرضية؟

خفق قلبي في عنف:

- ماذا تعني؟

- أعني أنها بفعل فاعل.

- مَن؟

تنهد في حرارة، ثم انطلق:

- لا أعرف لِمَ أصارحك أنت بالذات بكل شيء؟ لكني أشعر أني اقتربت منك كثيرًا في الأيام الماضية حتى أخال أنني أعرفك منذ زمن بعيد.

- إنك لم تصارحني بشيء بعد.

- إنه أبي.

شهقت:

- يضربك؟

- بقبضته أحيانًا، وبالحزام أحيانًا، ويضرب رأسي في الحوائط والأبواب عندما يستبد به الغضب، ولعمري فهو يغضب لأتفه الأسباب الممكنة.

اتسعت عيناي:

- وأنت في هذه السن؟

- هو رجل عسكري صارم، وأنا ابنه الوحيد من زوجته الأولى التي تُوفيت وأنا بعد في المدرسة الابتدائية، من يومها ولا يوجد من يدافع عني. زوجة أبي مهتمة أكثر بالدفاع عن أبنائها.

أكاد أفقد وعيي:

- والكدمة الزرقاء التي رأيتها حول عينك يوم أن تحطم الجيتار، هي أيضًا بسببه؟

هز رأسه إيجابًا، ثم قال دون أن يبدو عليه سمت الرقة المعتاد، بل كان يضع فوق ملامحه قناع غل دفين وجد أخيرًا متنفسًا للخروج:

- كل كوارث حياتي كانت بسببه، بدءًا من دخولي القسم العلمي في الثانوية إلى التفوق الذي ألقى بي في هذه الكلية

رغمًا عني. أتذكر بشاعة ما لقيته من لكمات يوم واتتني الجرأة لأصارحه برغبتي في دخول معهد «الكونسرفتوار». هو الذي ملأ لي استمارة مكتب التنسيق بنفسه يومها، وأصر على دخولي مجال الطب تحقيقًا لحلمه القديم الذي اختطفته حياة الجيش، وبدأ يلاحق رغباتي الموسيقية متوعدًا إياها بالإبادة التامة. لا أستطيع أن أدندن بلحن عفوي في المنزل وإلا كان يومي أغبر. أما الجيتار فأخفيه في غرفة المهملات فوق سطح المنزل، ويكاد قلبي يتوقف إذا صعد لقضاء أمر مخافة انكشاف الأمر وتحوله إلى مذبحة.

نظرت إليه في شفقة وأنا أكاد أبكي، لم أكن أدري أني كنت مخطئة في أمره إلى هذا الحد، وأخذت الخواطر في رأسي تطرح الحل المجنون تلو المستحيل.

- معنى هذا أنك لا تهوى دراسة الطب؟

سألته وأنا أعرف الإجابة.

- الحق أني أمقتها، ولا أطيق رائحة الأدوية والمطهرات، وينفطر قلبي لمشهد إنسان يتألم. منذ أسابيع كنت أخوض امتحانًا مع الدكتورة عصمت، أنت لا تعرفينها بالطبع لأنها سافرت إلى أمريكا في رحلة علاج سوف تطول، المهم أنها طلبت مني توقيع الكشف على امرأة حامل لا تشكو من

شيء، فقط جاءت للمتابعة كما تقضي قواعد الرعاية الصحية الأولية. لست بارعًا في أي فحص إكلينيكي وأتحاشى تمامًا أن أحتك فعليًا بأي مريض أو مريضة طوال فترة الدراسة. تقدمت من السيدة التي كشفت عن بطنها وارتعشت يداي وأنا أؤدي الفحص، ولأنها المرَّة الأولى التي كنت أؤديه فيها رغم أني أحفظ خطواته عن ظهر قلب، إلا أنني شعرت بأن السيدة تألمت قليلًا عندما لامست كفي بطنها في محاولة بائسة لتحديد ارتفاع مستوى الرحم ومعرفة عدد أسابيع الحمل، وجهها المتألم جعلني أفقد البقية الباقية من تركيزي ولا أجيب عن أي سؤال تالٍ، وظللت أيامًا طويلة أبكي بحرقة عندما أتذكر هذا الوجه الذي كنت سببًا في جعله يتألم.

رباه!

وأنا التي فهمته خطأ لحظتها، وتصورت أنه كان يبكي بسبب الرسوب المهين!

لكم كنت قاسية عليه، ولكم يخفق قلبي الشاب الآن، بحبه!

الحقيقة العارية أنني أحبه بالفعل، وأريد إنقاذه مما هو فيه بأي وسيلة، بأي ثمن.

- لنتزوج يا طارق.

صعقه ما سمعه، ونظر نحوي برد فعل عفوي مستنكر:

- ماذا؟!

- لديَّ ثروة ضخمة، وأملك من الحرية ما يعينني على التصرف كيفما أحب، كما أنني أسكن وحدي في مكان شاسع. زواجنا سيمكنك من الخروج عن سيطرة والدك المتسلط، ومن الهروب من قبضته الباطشة، سيُعطيك أيضًا حرية الاختيار في أن تبدأ حياتك مرة أخرى كما تحب، قبل أن تضيع منك بقيتها الباقية، يمكنني أن أنتج لك أغانيك في شريط كاسيت مثلًا، فما رأيك؟

أراهن أنه عرض لا يمكن رفضه، لكنه لم ينبس لحظتها ببنت شفة، الأمر الذي جعلني أنهض قائلة في حسم عملي:

- لا ترد الآن. خذ وقتك في التفكير ويوم تقرر أن تفعلها ستجدني بانتظارك.

حاول أن ينطق بشيء، لكن لسانه لم يطاوعه. المفاجأة كانت صادمة إلى أقصى حد كما هو واضح.

- أعلم، يحتاج الأمر لكثير من الشجاعة. كما أخبرتك، خذ وقتك، ولنلحق الآن بموعد المحاضرة التي ستبدأ في غضون دقائق.

***

في أيامي الأولى كطالبة كنت نجمة المحاضرات والمعامل دون منازع، ودون أدنى مجهود في الاستذكار والتحصيل. إنني الدكتورة عصمت صاحبة نصف القرن من الخبرة الطبية والأكاديمية قبل أن أكون «جيسيكا» ذات التسعة عشر ربيعًا والوجه الملائكي البريء. أكثر من مرَّة صححت معلومة ما لمحاضر أو معيد، أكثر من مرة أديت تجارب معملية صعبة من المرَّة الأولى بدقة قصوى، أكثر من مرة حاول الأساتذة المغتاظون حصاري بأسئلة تعجيزية فأفحمتهم بإجابات لامعة، وكان لا بد أن يلفت هذا نظر الطلبة الأوائل والمتفوقين الذين شعروا بأني جئت خصيصًا لسحب البساط من تحت أقدامهم، ولسرقة الكاميرا المتوجهة إلى وجوههم التي أدمنت نشوة البراعة، واسألوني أنا عن هذه النشوة.

على صعيد آخر، لم أكن أرى طارق إلا شاردًا، يفكر في عرضي دون شك، ودون قدرة على فتح الموضوع مرة أخرى، إلا أنه كان قد لجأ إلى نوع آخر من الرومانسية: ورود وخطابات وشرائط كاسيت مسجل عليها أغانيه أجدها في حقيبتي أو جيب معطفي الأبيض أو أسفل ماسحة زجاج «الجراند شيروكي» الأمامية. جعلني هذا أعيش سنوات مراهقتي المسروقة، وأكد إصراري على التمسك بالفتى، فقط

عندما يجد في نفسه الجرأة كي يرحل معي إلى آخر بلاد العالم دون التفكير في النتائج.

على صعيد ثالث، وجد مؤمن في شخصيتي التي هاجَمتْه بعنف يوم تحطيم الجيتار فريسة مثالية لمضايقاته المريضة، تلاحقني تعليقاته السخيفة بصوت مرتفع وتعبيرات سوقية كلما كنت أتحدث مع طارق وحدنا، كلما التقت عينانا رسم لي وجهًا منفرًا. لم يكتفِ بهذا القدر من استثارة كراهيتي، فوجدته يومًا بعد نهاية محاضرة قد أفسد طلاء سيارتي من الجانبين باستخدام آلة حادة مثل مطواة أو سن مفتاح، وما أكد لي أنه هو، ذلك الحرف المرتسم بوضوح فوق حقيبة السيارة باستخدام نفس الآلة: «M».

عند هذا الحد كان قد دفعني إلى الحافة، فسألت طارق:

- هل يأتي مؤمن إلى الكلية في سيارة؟

- أجل، ها هي ذي.

وأشار لي إلى سيارة «هوندا سيفيك» من طراز الثمانينيات، فما كان مني إلا أن توجهت إليها وأفرغت إطاراتها الأربعة من الهواء.

والبادي أظلم!

استمتعت برؤيته هو وأقرانه يفكون الإطارات ويحملونها لملئها بالهواء دون أن يتصور أحدهم أنني أنا الفاعلة، ملامحي كانت أكثر براءة من أن تشي بشيء وأنا أتجه إلى قاعة المحاضرات لأتألق بقوة كعادتي.

بعد نهاية المحاضرة اقتربت مني فتاة أعرفها.

(فتاة هذه المرَّة، يبدو أنهم أخبروها أنني أحب سماع التاريخ المرضي بالعربية فبدأت تلاوته عليَّ في تنسيق أنيق).

ماذا كان اسمها؟ «أمينة» أم «أماني»؟

ـ مرحبًا. أنا أماني الأولى على الدفعة في العام الماضي.

اسمها ليس «أمينة» كما هو واضح.

ـ أهلًا.

خاطبتُها في تحفظ، ولم يكن معرفة سبب اقترابها مني صعبًا.

ـ أردت فقط أن أعرف المصادر التي تعتمدين عليها في المذاكرة.

باعتبارها أولى الدفعة فإن تفوقي الواضح لا يهدد مركزها المتقدم فقط، وإنما أيضًا يُشعرها بإهانة شخصية لا تُغتفر.

قلت وأنا أهز كتفي في بساطة:

ـ لا مصدرًا بعينه، من كل بستان زهرة كما يقولون.

ـ كنت أريد أن أسألك في نقطة غامضة لو كنت تملكين الوقت.

قلت معتذرة في زيف سافر:

ـ لا أملك الوقت الآن للأسف، ربما فيما بعد. لكن أخبريني، هل أنت الأولى على الدفعة حقًّا؟

قالت في لهجة دفاعية جادة كأنها تلقت صفعة غادرة:

ـ راجعي شؤون الطلاب وتأكدي بنفسك.

ـ ليس الأمر أني لا أصدقك، لكن، ألم تضع لك الدكتورة عصمت درجة النجاح بالكاد في الاختبار الأخير؟ سيهدد هذا ترتيبك هذا العام حتمًا.

افتر ثغر أماني عن بسمة ماكرة، وقالت ناظرة إلى طارق الذي كان لا يزال يجلس بين الفتيان في المدرج:

ـ لقد أخبرك بهذا إذن. ألم يخبرك أيضًا أنها قد وضعت له درجة الرسوب؟

تحولت أنا إلى اللهجة الدفاعية:

ـ أخبرني، لكنه لم يدعِ الحصول على مركز متقدم في ترتيب الأوائل.

تجاهلت الفتاة ما في عبارتي من تعريض بها، ثم قالت:

ـ لقد أخبرك في الحالتين بنصف الحقيقة فقط، فقد تمت إعادة الاختبارات في اليوم التالي ونجحنا جميعًا. وأنا حصلت على الدرجة النهائية التي أستحقها عن جدارة.

انعقد حاجبي، وانتقل إليّ الشعور بتلقي صفعة غادرة:

ـ وماذا عن اختبار الدكتورة عصمت؟

ـ كانوا يحاولون إرضاءها فجعلوها تقوم باختبارنا، لكنهم ألقوا بالأوراق التي سودتها في سلة المهملات فور أن غادرت الكلية. بالله عليك، كيف يمكن لامرأة في مثل سنها وحالتها الصحية أن تكون جهة تقييم موضوعي؟ هذا ما قاله لنا العميد عندما صعدنا لنشكو إليه ما فعلته بنا في غرفة الامتحان، بل واعتذر لنا جميعًا أيضًا.

الأوغاد!

إنه إخلال صريح بقواعد المهنة، وخرق لكل الأعراف السائدة في مجتمع الجامعة أو أي مجتمع آخر يُفترض أن يحترم الصغير فيه الكبير.

ـ أخبرني، لكنه لم يدعِ الحصول على مركز متقدم في ترتيب الأوائل.

تجاهلت الفتاة ما في عبارتي من تعريض بها، ثم قالت:

ـ لقد أخبرك في الحالتين بنصف الحقيقة فقط، فقد تمت إعادة الاختبارات في اليوم التالي ونجحنا جميعًا. وأنا حصلت على الدرجة النهائية التي أستحقها عن جدارة.

انعقد حاجبي، وانتقل إليّ الشعور بتلقي صفعة غادرة:

ـ وماذا عن اختبار الدكتورة عصمت؟

ـ كانوا يحاولون إرضاءها فجعلوها تقوم باختبارنا، لكنهم ألقوا بالأوراق التي سودتها في سلة المهملات فور أن غادرت الكلية. بالله عليك، كيف يمكن لامرأة في مثل سنها وحالتها الصحية أن تكون جهة تقييم موضوعي؟ هذا ما قاله لنا العميد عندما صعدنا لنشكو إليه ما فعلته بنا في غرفة الامتحان، بل واعتذر لنا جميعًا أيضًا.

الأوغاد!

إنه إخلال صريح بقواعد المهنة، وخرق لكل الأعراف السائدة في مجتمع الجامعة أو أي مجتمع آخر يُفترض أن يحترم الصغير فيه الكبير.

تركت الجامعة وقد فسد يومي وتعكر مزاجي. وكما لا تأتي المصائب فرادى، فإنه لا يأتي ما يفسد عليك يومك إلا وتليه سلسلة أخرى من المعكرات المزاجية، التي قد تفضي لتغيير مسار حياتك الجديدة تمامًا، وقد تلقي بك في عمق هوة لم يكن ليخطر لك على بال ما ستلاقيه فيها من حدثان.

قالت أم محمود فور أن أغلقت باب المنزل خلفي:

ـ هناك طرد وصلك قبل قليل يا ست «جي جي».

باستغراب رددت خلفها:

ـ طرد وصلني قبل قليل؟!

أشارت إلى مظروف كبير يرقد في سلام خادع فوق منضدة الصالة القريبة، وقالت:

ـ ها هو ذا.

اتجهت إليه، جلست أمامه أتأمله في هدوء لا يخلو من ريبة، قبل أن أحمله وأمزق طرفه، وأطالع ما يحويه.

الغريب أنه لم يكن هناك اسم لمرسِل فوقه، أما محتواه فكان أغرب: شريط فيديو (VHS) بلا ملصق يصف محتوياته.

التصرف المنطقي التالي هو أن أضع الشريط في فم جهاز

الفيديو أسفل التلفزيون، وأضغط زر المثلث «Play»، وأتابع بعينين ذاهلتين ما يجري على الشاشة أمامي، محاولةً إقناع نفسي بأن الأمر ربما لا يكون بهذا السوء الذي يبدو عليه ظاهريًا.

7

كادر ثابت مأخوذ عبر كاميرا فيديو منزلي قديمة ذات طراز تناظري «analogue» كما يبدو من رداءة الصورة، يصور الكادر جانبًا من غرفة ضيقة يغلب عليها طابع الفقر وتعمُّها الفوضى، وعلى طرف سرير خشبي منخفض أجلس أنا بملابس منزلية تستر وتكشف معًا، وأتحدث للكاميرا بلغة لا أفقه منها حرفًا واحدًا ذا معنى.

إنها أنا الجديدة، أعني القديمة، «جيسيكا» قبل أن تصبح «جيسيكا»، أو صاحبة الجسم الذي أحتله الآن بهوية عصمت الأولى قبل أن تختفي و...

ما كل هذا الارتباك؟

كانت الفتاة الآسيوية الضئيلة والبريئة والرقيقة تتحدث إلى الكاميرا في هدوء، تقول كلامًا كثيرًا لا بد أنه بلُغتها الأصلية، هذا قبل أن تموت وتتجمد توطئة لدخولي إلى عالمها الغامض الذي لا أزال أجهل عنه كل شيء.

انهمر شلال من الأسئلة: مَن الفتاة؟ ماذا تقول؟ من أين هي وبأي لغة تتحدث؟ أين صوّرته؟ ومتى ولماذا؟ أكثر من ذلك، كيف وصل هذا الشريط إليّ؟ مَن أرسله؟ وكيف استدل على عنواني الجديد وهويتي الجديدة هنا في مصر؟ ما الذي

يريده مني أو منها؟ هل يحاول إبلاغي شيئًا ما لا أعرفه ولا أفهمه؟ وكيف يمكنني أن أتصرف حيال هذا التدخل السافر غير المتوقع في حياتي الجديدة؟

تناسلت الأسئلة بسرعة خارقة وأفضت كلها إلى طريق واحد مسدود: لا إجابة.

طوال عشر دقائق كاملة تحدثت الفتاة ـ التي هي أنا حاليًا ـ مخاطبة الكاميرا. في عينيها الضيقتين يلوح حزن غريب، وآثار بكاء. ثم أظلمت الشاشة لثانية أو أقل، قبل أن تنطلق الإلكترونات لتضرب سطح الشاشة بعد انتهاء التسجيل.

وكنت أنا تمثالًا متجمدًا أمام التلفاز، أحاول فهم ما لا يمكن فهمه!

قضيت بقية اليوم كالملتاثة، أعيد الفُرجة على التسجيل مرارًا وتكرارًا، ربما أكون قد شاهدته لمائة مرة أو أكثر قليلًا عندما أيقنت أن الوحيد الذي يمكن أن يفيدني في هذا الالتباس هو خالد، دون سواه.

كيف فاتتني هذه الفكرة البسيطة من البداية ولم تضرب تفكيري إلا قرب منتصف الليل؟

طوال ساعات الليل الأسود وأنا أعيد الفُرجة على الشريط كلما انتهى، وأحاول في الوقت نفسه الوصول إلى خالد دون

جدوى، هاتف المنزل والعيادة يرنان طويلًا قبل أن ينتهي الرنين من تلقاء نفسه، هاتفه المحمول هو الآخر رنَّ طويلًا بلا مجيب، قبل أن ترد عليّ الرسالة المسجلة بأن الهاتف الذي طلبته ربما يكون مغلقًا، قرب أذان الفجر بقليل.

هل يهرب مني خالد؟

تساءلت وأنا أتابع نفسي ـ باعتبار ما كان ـ على الشاشة، واكتشفت أن حقيقة أخرى بسيطة قد فاتتني: إنني لم أرَ خالد منذ أكثر من أسبوع الآن، ولم أهاتفه طوال هذا الأسبوع إلا مرة أو مرتين على الأكثر، مكالمة أو اثنتين من النوع العادي، تلك التي تنسى فحواها بمجرد أن تنتهي.

كان يزورني كثيرًا في البداية، ويحرص على الاطمئنان المستمر عليّ سواء وأنا عصمت أو «جيسيكا». يبدو أن حياتي الجديدة قد أخذتني في دوامات بعيدة حتى إني لم أشعر بالتنائي طوال هذه الفترة، ويبدو أنه كان لديه ما يكفيه من المشاغل هو الآخر، أو ربما يكون لا وعيي قد صور لي أن في ابتعادي عنه مزيدًا من الحرية والانطلاق.

يجب أن أصل إليه بأي وسيلة، هو الوحيد الذي يمكن أن يفيدني، هو الوحيد، ويقيني يزداد كلما أوغل الليل أكثر نحو مطلع الفجر، وكلما فشلت في العثور عليه.

فكرت في الذهاب إلى منزله، لكني في اللحظة التالية اكتشفت حقيقة أكثر عبثية: لا أعرف له عنوانًا سواء الذي يخص المنزل أو العيادة، لا أملك إلا أرقامًا لهواتف ترن وترن بلا مجيب!

يا لي من ألمعية!

طوال هذا الزمن الفائت لم يحلّ قَطّ ظرف مناسب لأسأله عن عنوان أجده فيه وقتما أحتاجه، والحق أني لم أكن أتصور قَطّ أن تأتي لحظة أحتاج إليه فيها بهذا القدر وبهذا الإلحاح.

انقضت الليلة النابغية وأنا بين التلفزيون أعيد الفرجة على الآسيوية المتحدثة للمرة الألف أو المليون، أحاول فك طلاسم حديثها من انفعالاتها، وأفكر في الاستعانة بمترجم متخصص بعد أن أعرف لهذه اللغة كنهًا، وبين الهاتف الذي لا يجيب، حتى قررت في النهاية أن أنسحب إلى الخارج.

سألتني أم محمود والنعاس يلتهم عينيها وصوتها:

- هل أعد لك فنجان القهوة المعتاد؟

أخبرتها وأنا أقبض على مزلاج الباب دون أن أزجج حاجبي قبل الخروج كما أفعل دومًا:

- كلا. اهتمي فقط بإفطار «تمارا» عندما تصحو من النوم.

سأذهب إلى الكلية وآخذ الشريط معي، سأبحث هناك عن خالد حتى أجده، وأسأله عن مغزى هذا العبث الذي أفسد عليّ مسار حياتي إلى مدى لم يتضح بعد. سيكون لدى خالد جواب شافٍ بكل تأكيد، أو أن هذا ما أرجوه.

عندما أوقفت «الجراند شيروكي» في مرآب الكلية أمام الكافتيريا كان هناك مشهد آخر صنعه مؤمن بالاشتراك مع طارق، صوت صياحهما واضح وإن كانا لا يظهران أمام ناظري بنفس الوضوح، فتجمع الطلاب الجماهيري حولهما محاولًا فض النزاع المحتدم يخفيهما تمامًا.

يستحق الأمر أن أهبط إلى هناك أولًا لكي أفهم ما يحدث، ويستحق الأمر أيضًا أن أخترق الجموع نحوهما لأرى المشهد غير المتوقع بالمرَّة: طارق يمسك بتلابيب مؤمن في عنف ويصيح فيه بمنتهى القوة:

- أنت كذاب أشر، وفوق هذا وغد زنيم.

يقول مؤمن في استسلام عجيب، متخفيًا وراء بسمة لزجة:

- ربما أكون وغدًا، لكني لست كذابًا. إن دليلي على ما أقول في يدي.

يده التي يتحدث عنها تقبض على أسطوانة ليزر ينعكس شعاعها فوق وجهي، ثم يستدير نحوي وتتسع بسمته وتصبح أكثر لزوجة عندما يقول:

ـ ها هي السنيورة قد حضرت بنفسها، يمكننا أن نسألها ونقطع الشك باليقين.

يصيح فيه طارق:

ـ اصمت، عليك اللعنة!

تساءلت عاقدة حاجبيّ غير المزججين:

ـ ما الذي يحدث هنا؟ وما هذا الذي تريدون سؤالي عنه؟

كاد مؤمن أن يتحدث، غير أن طارق ترك تلابيبه فجأة واختطف الأسطوانة من يده هاتفًا:

ـ لا شيء، يمكنك الابتعاد الآن وسأفهمك ما يجري فيما بعد.

قلت في تحدٍّ، فحركات الصبية الذين يستعرضون رجولتهم المبكرة تخنقني الآن أكثر من أي وقت مضى:

ـ أريد أن أفهم كل شيء الآن. ما هذه الأسطوانة التي في يدك؟

ضحك مؤمن وقال يلكزه في كتفه:

ـ أخبرها أيها الليث. هيا.

صاح بي طارق في عصبية:

ـ كفى فضائح. ابتعدي الآن وسنتحدث فيما بعد.

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أمسك بمعصمه، وأبادله الهتاف العصبي بآخر أكثر منه عصبية:

ـ بل الآن.

أفسح لنا الجمع المحيط مجالًا للعبور، وصوت مؤمن يدوي خلف ظهري وهو يشير إلينا قائلًا:

ـ انظروا، كل ما تفعله يقول إنها هي، هي دون غيرها.

وأسفل شجرة جانبية كنت أواجه طارق أخيرًا، وأخطف الأسطوانة من يده كما خطفها هو من مؤمن، سائلة إياه في حنق:

ـ والآن، هلّا أخبرتني ما قصة هذه الأسطوانة؟

هتف بي في غضب وهو يشير إلى الأعناق المشرئبة نحونا من بعيد:

ـ هل كان يجب أن تمسكي بيدي هكذا أمام الجميع؟ ألا

تعرفين أننا نعتبر هذا خطأ وسلوكًا مشينًا، هنا في مصر؟

صحت فيه:

ـ لا تُغير الموضوع.

ثم رفعتها أمام عينيه:

ـ الأسطوانة، ولنتحدث عن أخلاق القرية فيما بعد!

تنهد طارق، وحاول السيطرة على انفعالاته، ثم مسح وجهه بكفيه قبل أن يقول:

ـ مؤمن. إنه ينشر أكاذيب سامة حولك، ويحاول تشويه سمعتك دون وازع من ضمير أو أخلاق.

ـ ماذا فعل؟

سألته فأشار إلى الأسطوانة مجيبًا:

ـ إنه يدعي أنه قد وجد موقعًا إباحيًا على شبكة الإنترنت خاص بالفتيات الآسيويات يحوي مجموعة صور لك في أوضاع مشينة!

لم يخطر لي هذا على بال قَطُّ!

ـ حقًّا؟

نطقتُ بها في ذهول، فحاول طارق أن يهون من الأمر

قائلًا:

- إنه أفّاق مدعٍ. إما أنها واحدة تشبهك، فالآسيويات تتشابهن كثيرًا بالنسبة للعيون غير الخبيرة، وإما أنه قد ركّب وجهك على أجساد أخرى. إنها حيلة معروفة للنيل من الفتيات الشريفات على الشبكة.

سألته وأنا أخفض يدي الممسوكة بالأسطوانة:

- هل رأيت الصور بنفسك؟

هز طارق كتفيه قائلًا دون أن ينجح في إخفاء رائحة المرارة المنبعثة منه:

- كلا، ليس بعد.

يجب أن أرى بنفسي إذن. قلتها لنفسي وتركته متجهة إلى سيارتي على الفور، تلاحقني العيون ما بين ساخرة ومشفقة، والتعليقات تنغرس في لحمي رماحًا ذات نصال مسمومة:

- لدينا خادمة فلبينية تشبهها.

- إمكانيات هذه أكبر بكثير، ألم تشاهد الصور؟

- ملامح ملائكية وميول شيطانية. سبحان الله.

وغيرها كثير.

شعور مميت، أن تمشي عاريًا أمام الناس دون ورقة توت.

شعور دفعني للفرار بأسرع ما أستطيع داخل سيارتي، بعد أن لمحت المكتوب فوق غبارها بإصبع أحدهم، ربما يكون مؤمن، وربما يكون سواه من الأوغاد: «asianbeauty.com» (الجمال الآسيوي دوت كوم)، إنه عنوان الموقع المزعوم على الشبكة دون ريب، وقد مسحته بيدي قبل أن أتحرك في سرعة، ضاغطة دواسة الوقود في رعونة.

داخل السيارة كنت أجاهد لكبت دموعي ومشاعري. أحاول مهاتفة خالد من هاتفي المحمول دون جدوى. أرتعد من فرط الإهانة ومن شعوري بالازدراء الرهيب لنفسي، أن سمحث لامرأة مثلي كانت قد بلغت من العمر أرذله بخوض تجربة بشعة كهذه.

عند أول متجر إلكترونيات توقفت، وابتعت جهاز كمبيوتر ذا مواصفات متقدمة بسعر باهظ، بالإضافة إلى كتاب عن شبكة الإنترنت حتى أفهم مبادئها، فرغم كل شيء لست إلا عجوزًا في زي شابة، وعقلي لم يكن على دراية بهذه الأمور البسيطة كأبناء اليوم.

في المنزل كان أول ما فعلته أن وضعت الأسطوانة داخل الجهاز، وأخذت أتفقد محتوياتها في لهفة وجلة، لأكتشف أن

مؤمن اللعين كان على حق رغم كل شيء!

لم تكن الأسطوانات ذات السعة الكبيرة (700 ميجا بايت) تحوي إلا ملفًا صغيرًا بلغة الـ«HTML» الشهيرة المستخدمة لنشر المواقع على شبكة الإنترنت، لا يتجاوز حجمه الـ«230 كيلو بايت». لست خبيرة تقنية، لكني عرفت هذه المعلومات الأولية من الكتاب الذي اشتريته. المهم أن الملف كان يحوي صفحة مأخوذة عن أحد المواقع الشبكية، تحمل اسمًا كبيرًا في البداية بحروف إنجليزية «Kasia Teen»، مع اثنتي عشرة صورة متراصة في ثلاثة صفوف عرضية بحيث يحوي كل صف منها أربع صور، وللأسف بنظرة محايدة فهذه الصور تخصني أنا، أعني أنها تخص صاحبة الجسد الذي أحتله الآن بمخي، وهي صور تبعث على الحرج والاشمئزاز والنفور، وتجعل مني ـ في حياتي السابقة ـ محض جارية في سوق نخاسة العصر الحديث، أعني هذا النوع من المواقع المبتذلة على الإنترنت.

كلا، ليست صور فتاة أخرى تشبهني، أنا أجيد التمييز بين الملامح الآسيوية المختلفة، ولا يمكن أن أسقط في فخ التشابه. وكلا أيضًا، شبهة التلاعب بالصور رقميًا عن طريق لصق رأسي على جسد آخر غير واردة بالمرّة. صحيح أني لست خبيرة جرافيكية، لكن هذه صور أصلية من زوايا لا

يمكن التلاعب بها، ثم إني أدرى بجسدي الجديد من غيري. وثالثًا، من أين يمكن أن يحصل أحدهم على صوري حتى يتلاعب بها؟! وكيف يمكن أن ينتج التلاعب صورة قريبة للغاية كهذه التي في أقصى اليسار لأعلى؟!

هذه أنا بكل تأكيد، و«Kasia» هذا هو الاسم الذي كنت أحمله في حياتي السابقة، أم أقول الاسم الذي كانت هي تحمله في حياتها السابقة؟!

لم تخلُ الصفحة من إثباتات على صحتها واستبعاد تزييفها، كالإعلانات الصغيرة التي تروج لمنتجات إباحية ومواقع إنترنت أخرى قبيحة من ذات النوع المتناثرة أعلى وأسفل الصفحة، وكالتنويه الذي يصاحب المواقع الدعائية من هذا النوع بأنك لو اشتركت في هذا الموقع عن طريق الدفع فسترى أكثر مما يمكنك أن تراه هنا، مع وصلة ظاهرة واضحة للموقع الأصلي المأخوذ منه عينة الصور: «asianbeauty.com».

لكني رغم هذا أوصلت خط التلفون ببطاقة الفاكس وولجت إلى عالم الإنترنت، وكان أول ما كتبته في خانة العناوين هو العنوان المذكور، والمختص بالجمال الآسيوي.

بالرغم من شعوري بوضاعة ما أفعله عندما ارتسمت على المتصفح صفحة الموقع الرئيسية، إلا أن رغبتي في سبر

أغوار الحقيقة جعلتني أجازف بوضع رقم إحدى بطاقات ائتماني داخل قسيمة الاشتراك بالموقع من أجل الحصول على مزية الإبحار داخله كيفما أحب. وبالبحث وجدت ركنًا كاملًا لـ«Kasia» هذه، مع طن من الصور المزرية، في ملابس وأماكن وهيئات مختلفة، تضرج لها وجهي بحمرة الخجل، وأخذت أبحث عن أي معلومات تخص الفتاة، فلم أجد إلا وصفًا خليعًا متهتكًا لها، مع إشارة عرضية لكونها قد تجاوزت الثامنة عشرة بقليل!

هذا كل شيء، مع خالص الشكر لرفيقي الكتاب العزيز.

أرسلت ببريد إلكتروني للقائم على الموقع أسأله إمدادي بمعلومات عن الفتاة نظير أي مبلغ يطلبه، وبعد ساعتين فحسب جاءني رد منه على صندوق بريدي الإلكتروني الذي أنشأته لهذا الغرض خصيصًا (خالص الشكر لرفيقي العزيز مرة أخرى!)، يخبرني فيه بأنه كان يتمنى أن يفعل، لكنه لا يملك أي معلومات، فالقائمون على هذا النوع من المواقع لا يتصلون مباشرة بالعارضات المحترفات، وإنما يتعاملون مع وسطاء ـ بمعنى آخر سماسرة، وبمعنى أكثر صراحة قوادين ـ ومن يستطيع مساعدتي في الاتصال بهم مسافر في الخارج إلى أجل غير مسمى. كان يتهرب في وضوح، ولم يكن أمامي حل آخر سوى المحاولة مجددًا مع خالد، بعد أن بلغت

الأمور هذا الحد من الفظاعة.

بعد عدة محاولات مع هواتفه المختلفة جاءني رده أخيرًا على الهاتف المحمول، فلم أشعر بنفسي إلا وأنا أصرخ به في حدة عاتية:

- أين أنت؟! صار لي يومان وأنا أحاول أن أكلمك دون أن ترد!

- ماذا حدث؟!

شعرتُ أنه يحادثني في برود، أو لعله مرهق بعد يوم حافل، المهم أن هذا لم يشغل بالي كثيرًا في خضم ما أعانيه منذ البارحة.

- أنت لا تعرف ما الذي أعانيه منذ البارحة، وصلني شريط فيديو مسجل عليه حديث للفتاة التي كانت تملك هذا الجسد قبلي بلغة لا أفهم منها حرفًا واحدًا. واليوم، اليوم عثر أحد الطلاب على موقع إباحي فيه كمٌّ وافر من صوري البورنوجرافية تحت اسم «كاسيبا».

- وهذا يضايقك، أليس كذلك؟!

مزيد من البرود، أو لعله الإرهاق، ربما الملل، لكني من جديد لم أشغل بالي كثيرًا.

- ما الذي تتوقعه؟! ما الذي يجري هنا يا خالد؟!

- ليتني أعرف!

- مَن هذه الفتاة التي أعطيتموني جسدها؟! أريد أن أعرف على الأقل حتى أستريح.

- العقد الذي يتضمن توقيعك فيه بند صريح يكفل للمؤسسة إخفاء هذه النقطة بالذات عنك.

إنه برود، ليس إرهاقًا وليس مللًا وليس تهربًا، هو برود سافر لم أعتد عليه منه قبل الآن، وقد أثار هذا أعصابي بشدة لم أتوقعها.

- أنت وعقدك ومؤسستك اللعينة. ماذا أفعل الآن وكل طلبة الكلية قد رأوا صور الفضيحة؟! أين أختبئ لو ظلت طرود كشريط الفيديو هذا تطاردني؟!

- لا شأن لي بهذا كله. يمكنك أن تفعلي ما تشائين دون الرجوع إليّ من اليوم. سافري وجِدي لك مكانًا آخر ومجتمعًا مختلفًا تندمجين فيه لو كانت هذه النصيحة تفيدك.

- خالد، ماذا دهاك؟! لماذا تكلمني بهذه الطريقة؟!

- من اليوم أنت ستتولين مسؤولية نفسك. إن ورائي مشاغل لا تنتهي ودوري معك قد انتهى منذ عدت بجسدك

الجديد إلى هنا. لا تحاولي الاتصال بي في الأيام القادمة لأني مسافر، سأحضر مؤتمرًا في كوبنهاجن يستغرق أيامًا، أتعشم فيها أن تكوني قد وصلت إلى سلامك النفسي المنشود.

لهجته الجديدة باغتتني، كأني كنت في انتظار هذا منه هو الآخر، وأنا التي ظننت أن عدم رده على مهاتفاتي هو أسوأ ما يمكن أن ألاقيه من جهته.

- إلى اللقاء، يا عزيزتي «جيسيكا».

وأغلق الخط دون أن ينتظر ردًّا مني.

هذا مفهوم، أنا الآن «جيسيكا» التافهة التي تعيش حياتها الجديدة، لا الدكتورة عصمت الجديرة بالتبجيل والاحترام.

هذا ما فعلته بنفسي، وما أودت إليه حماقتي.

تجمدت نظراتي فوق الهاتف المحمول الذي أنزلته من فوق أذني غير مصدقة ما سمعته، وبوغت بالتفصيلة الدقيقة عند التحام عظام رسغي الأيمن بكفي، تلك التفصيلة التي أطلت برأسها في الوقت المناسب، أو أن هذا ما توهمته.

(بينما أجرب أسورة جديدة من الذهب الملون أمام مرآة المتجر الكبيرة، وعندها... عندها لاحظت ذلك الجرح في

رسغي الأيمن/رسغها الأيمن. الجرح الملتئم الذي يمكن الاستعانة به في كتب الطب الشرعي كمثال نموذجي لما يمكن أن ينتج عن محاولة انتحار بواسطة موسى حاد).

محاولة انتحار. هذا يبدو منطقيًا.

أسرعت أشغل شريط الفيديو للمرة العاشرة بعد المليون الثامن، وأرهفت سمعي جيدًا لكل الرطانة التي لا أفقه منها شيئًا، غير أني استطعت أن أخلص إلى نتيجة ما، فقد نطقت الفتاة باسمها في مواجهة الكاميرا عند بداية حديثها، كأنها تقول عبارة على غرار:

- اسمي هو كاسيا (شيء ما)، وأنا في كامل قواي العقلية أعلن أني على وشك الإقدام على...

محاولة انتحار. هذا يبدو منطقيًا بشدة.

هذه رسالة إذن تشرح فيها الفتاة على مدى عشر دقائق دوافعها لارتكاب الجريمة في حق نفسها، ثم تُظلم الشاشة وتنحر الفتاة رسغها الأيمن، لتموت في هدوء أليم.

قد تكون ترجمة ما يُقال على الشاشة مفيدًا في معرفة هويتها السابقة، غير أني أشك في كونه مفيدًا في معرفة هوية المرسل وغرضه. أفكر الآن في طريقة أسهل من العثور على مترجم للحصول على معلومة مؤكدة.

إنها شبكة الإنترنت مرة أخرى، مع الشكر الجزيل لكتابي العزيز.

في محرك البحث «Google» كتبت على لوحة المفاتيح كلمة «Kasia» فوجدت عشرات الآلاف من الوصلات التي تقودني لصفحات تحتوي على الاسم، ضيقت النطاق أكثر وكتبت كلمتي «suicide+Kasia» (الاسم بجوار كلمة انتحار)، هنا خرجت بعشرات الصفحات فقط، وبضغط الوصلات بدأت الصفحات تنفتح أمامي، ولم يمضِ كثير من الوقت حتى كنت أحرز نصرًا آخر في طريق بلوغي قلب الحقيقة.

على صفحة رديئة التصميم كان العنوان الكبير واضحًا، بجوار صورة غائمة لأحد شوارع مدينة آسيوية يتجمهر فيها الناس حول عربة إسعاف أمام مبنى متواضع: «انتحار عارضة إباحية مراهقة في منزل قديم بوسط المدينة».

الخبر المكتوب بإنجليزية ركيكة يروي باختصار قصة ما حدث:

انتحرت فتاة ماليزية شهرتها «كاسيا المراهقة»، تعمل عارضة إباحية على موقع إنترنت تجاري، تاركة خلفها رسالة مسجلة على شريط فيديو تشرح فيها دوافعها للانتحار،

قائلة بأنها قد تعبت من حياة الخطيئة وتخاف انتقام أهلها وتسألهم أن يسامحوها. جاء بلاغ انتحارها في المنزل 22 بشارع السلطان إسماعيل للشرطة الماليزية من مجهول، وانتقلت الشرطة للموقع المذكور على الفور، لكنهم لم يعثروا على الجثة، وإن كانوا قد عثروا على الشريط الذي يصورها تترك رسالتها الأخيرة قبل الانتحار.

هذا كل شيء إذن، والخبر المنشور في الجريدة الماليزية الصادرة بالإنجليزية يوفر عليّ مشقة العثور على مترجم، ويضع أمامي خطة شبه متكاملة للتحرك.

يجب أن أعرف كل شيء، ربما تبدو مسألة صعبة لكنها ليست بمستحيلة.

انتزعني من براثن خواطري صوت الطريق على زجاج الشرفة من الخارج، وجعلني أشهق لرؤيتي من يشير إليّ بيده من هناك، تحت ستار الظلام.

- طارق؟!

ندت عني في دهشة، وأنا أتوجه وأفتح باب الشرفة بينما هو يتحدث إليّ بمنتهى الحرج، دون أن تواتيه الجرأة على الخطو إلى داخل الغرفة:

- آسف «جيسيكا». أعلم أنه ليس الأسلوب المناسب

لمقابلتك. لكن، أنا أدور حول المنزل منذ الظهيرة ولم أجد طريقة أخرى تمكنني من رؤيتك. لقد لاحظت أن هناك سيدة كبيرة تعيش معك وخفت أن تمنعني من رؤيتك إذا ما...

قاطعتُ ثرثرته المرتبكة:

ـ كيف عرفت مكاني أصلًا يا طارق؟!

ازدرد ريقه في صعوبة، وقال ماسحًا بكفه عرقًا وهميًا فوق جبهته:

ـ تبعتك من الكلية عندما غادرتها، وشاهدتك عندما ذهبت لشراء الكمبيوتر و...

لم يجد ما يكمل به عبارته، ولم أجد في نفسي الجرأة لدعوته إلى الدخول ولا الرغبة في طرده، في النهاية لست سوى امرأة شرقية خجولة لكني أحبه وأحتاج إليه في الوقت نفسه.

أي حيرة؟! وأي تناقض؟!

ـ «جيسيكا»، لقد أتيت كي أخبرك أنني موافق على عرضك!

سألته في غباء لم أصطنعه:

ـ أي عرض؟!

- عرض الزواج. قلت لي أن أخبرك عندما أجد في نفسي شجاعة لقبوله. هيا نترك هذا العالم ونذهب بعيدًا يا «جيسيكا»، كفانا ما لقينا منه حتى اليوم.

ليتك أتيت مبكرًا يومين اثنين فقط يا طارق، إذن لتغيرت أشياء كثيرة، لكن الآن...

- لا أستطيع يا طارق.

- ماذا؟!

- أمامي مهمة لا تحتمل التأجيل، رحلة اكتشاف للذات بكل ما يحمله التعبير من معنى.

قطب طارق قائلًا:

- «جيسيكا»، لست أفهمك.

- ولا أنا أفهم نفسي يا عزيزي، لذا لا تجهد نفسك.

ثم إني نظرت في عينيه مباشرة لأتابع:

- لكن، إليك عرضي البديل، أن تنتظرني حتى أعود.

قال في صدق:

- سأنتظرك.

- هنا في منزلي، يمكنك الانتقال والعيش هنا مع أم محمود

الخادمة، بعيدًا عن قسوة أبيك وتحكمه في خيوط دميته الصغيرة التي هي أنت، سأترك لك نقودًا تكفيك، وكل ما عليك أن تعتني بقطتي «تمارا». فما رأيك؟

تردد لوهلة، فخرجت إليه في الشرفة، ووضعت يدي على كتفه مشجعة:

- لا يحتاج الأمر إلى تفكير. لقد قلت إنك ستنتظرني وأنا أصدقك.

- وإلى أين ستسافرين؟

أعطيته ظهري، ونظرت إلى صورة الشارع الآسيوي التي لا زالت تعلو شاشة الحاسب الآلي في غرفتي، قائلة في تحدٍّ وتصميم:

- إلى مكان بعيد، بعيد، في قلب آسيا. فهناك، هناك فقط، سأتمكن من البحث عن الحقيقة الغائبة، وربما العثور عليها أيضًا.

8

عشر ساعات متواصلة من ركوب الهواء على مقعد نصف مريح، ثم حطت الطائرة أخيرًا في مطار «كوالا لامبور الدولي».

لا تستغرق إجراءات المطار وقتًا طويلًا بالنظر إلى أن دخول البلاد لا يحتاج إلى تأشيرة، ومن المطار إلى وسط المدينة استغرقت المسافة نصف ساعة تقريبًا.

كنت قد استطعت الحصول على سيارة مريحة أقلتني إلى شارع السلطان إسماعيل مباشرة، وهناك اخترت أقرب الفنادق إلى مكان الحادث، وقد ساعدني سائق سيارة الأجرة، الشاب طيب القلب الذي يتحدث إنجليزية مضعضعة، على إيجاد الفندق ذي النجوم الأربع، نظير حفنة متواضعة من الدولارات.

لم أكن أحمل إلا حقيبة صغيرة، حشوتُ فيها بعض الحاجيات الضرورية، لذا فبمجرد أن اقترب مني الحمّال أمام بوابة الفندق ولاحظ ضآلة ما أحمله، تراجع إلى وقفته الأولى مكتفيًا بالمراقبة من بعيد، ولم أعره أنا التفاتًا إذ عرفت طريقي إلى الداخل في سرعة، وحصلت على غرفة مريحة نسبيًّا، نمت فيها عددًا قليلًا من الساعات، قبل أن أفيق مع أول ضوء للنهار، ومع فنجان القهوة الصباحية المُرّة

كنت أفكر بعمق وجدية فيما سأفعله، إن كان هناك بالفعل ما يمكن أن أفعله.

في خلفية أفكاري المشوشة راحت الأسئلة تطل برؤوسها لتشوش أفكاري أكثر:

ما الذي جاء بي إلى هنا؟ أي جنون قادني للسفر؟ وأي حماقة أقدِمُ على ارتكابها بالنبش في ماضٍ لم أشارك فيه، ولا يقبل عقل أن أنتمي إليه لأنني عشته بهوية مختلفة، ومخ آخر؟

غير أني سادرة في الطريق الذي لم أرسمه، ذلك الذي لا أستطيع عنه رجوعًا، ولم أكُ أملك إجابات شافية فاكتفيتُ بتجاهل المنطق البسيط، وبالتفكير في الخطوة التالية.

ليس أمامي إلا أن أهبط وأسأل عن المنزل رقم 22.

ما الذي يمكن أن تقودني إليه معاينة المكان الذي ارتكبت فيه «كاسيا» جريمة انتحارها؟

لا أدري، إنهم لم يعثروا على جثتها هناك، ويمكنني على الأقل أن أبدأ من هذا الخيط الغامض.

لكنني كنت متفائلة أكثر من اللازم على ما يبدو، فبالرغم من أن المنزل رقم 22 كان يقع خلف الفندق مباشرة، إلا أنه

كان مغلقًا ومهجورًا: النوافذ المشرعة متآكلة الطلاء يعلوها غبار، ومن خلفها ظلمات القبور الساكنة. طرقتُ الباب المتداعي مرارًا وتكرارًا ولم يرد أحد. لا يوجد غفير ولا من أستطيع سؤاله عن أي شيء. الشارع كله يبدو مهجورًا والسكان ندرة، ولا أحد يسير أو يجلس أمام الأبواب، أو يطل من خلف النوافذ والشرفات. وقبل أن أستسلم لخاطر التسلل الذي عنَّ لي في إلحاح، جذبتُ نفسي جذبًا إلى الفندق، وأنا أفكر في ما يمكن أن يحدث لو أن أحدهم رآني أتسلل إلى مسرح جريمة قديم.

ستكون النهاية الحتمية أن تستضيفني الشرطة إلى أجل غير معروف حسبما أتصور.

لن يصلح التهور الآن، إن بعض التعقل قد يفيد أحيانًا.

في الطريق عائدة إلى الفندق، أضاءت الدنيا أمامي بالأبيض والأسود، وبعيدًا عن أني شاهدت صورة قديمة للشارع على موقع الإنترنت، وبغض النظر عن ظاهرة شوهد من قبل «déjà-vu» الشهيرة، فما من تفسير لذلك الذي رأيته، وسمعته، وشممته، وأحسسته، علميًّا على الأقل.

***

سائرة بين فتاتين لهما ملامح آسيوية مختلفة، وكنت

أجملهن بلا منازع.

نضحك حتى تهتز الأرض تحت أقدامنا، مقبلات على الحياة الحلوة بسني أعمارنا الغضة.

تميل نحوي إحداهن وتهمس في أذني مشيرة إلى آخر الشارع المسدود.

وفي آخر الشارع المسدود أراه، واقفًا كفارس يبتسم وهو يدخن سيجارته الأثيرة.

أبتسم في خفر وهو يومئ لي.

ثم بحركة ذات مغزى، يشير نحو المنزل رقم 22!

***

أفزعني المشهد حتى الثمالة، فهرولت في بقية الطريق القصير إلى الفندق، وصعدتُ نحو غرفتي على الفور، لأجد في انتظاري مفاجأة أخرى.

كدت أصرخ عندما رأيته في الداخل، يقف في منتصف الحجرة مرتعدًا وممسكًا بمفتاح يحمل شعار الفندق، نفس الشعار المطرز على الجيب العلوي لزيه الرسمي.

هو الحمّال الذي رأيته بالأمس وقد عزف عن مساعدتي نظرًا لصغر حجم حقيبتي، هو بملامحه السمراء وشعره

الفاحم شديد النعومة الذي خط الشيب أسفل فوديه فحسب، ولم يدُر في رأسي لحظتها إلا تفكير سوداوي أخرق من نوع أنه إما يريد سرقتي وإما اغتصابي وإما... إلى آخر قائمة الجرائم الممكنة، فأوشك صراخ الفزع الرهيب على أن يفلت مني، غير أن هتافه الهامش جعلني أبتلع حنجرتي:

ـ «كاسيا»!

تبعها بكلمات لم أفقه منها حرفًا، كان يتحدث بالماليزية أو الهندية أو الصينية أو الأردية أو أي لغة شبيهة بلا ريب، المهم أنه نطق بالاسم السحري الذي جعلني أبتلع صرختي لأسأله بإنجليزية ذاهلة:

ـ انتظر. هل تعرفني أيها السيد؟

صمت الرجل وأخذ يتفرس في ملامحي بقوة، قبل أن يستخدم إنجليزيته المتواضعة في القول:

ـ «كاسيا»؟! هل أنت «كاسيا» حقًّا؟!

هززت رأسي أن نعم وأنا أسيطر على أنفاسي في صعوبة، وأفكر في أن القدر سخي معي لأقصى حد لو كان هذا الرجل يعرف عنها شيئًا، وما دام يعرف اسمها القديم فهو يعرف بضعة أشياء أخرى بكل تأكيد.

«كاسيا»، الاسم السحري!

انطلق الرجل يرطن بلغته وقد أشرق وجهه، فأوقفته براحتي وعدت أتحدث بالإنجليزية:

- معذرة أيها السيد، لكني لا أفهم شيئًا من هذه اللغة. حدثني بالإنجليزية لو كان هذا ممكنًا.

بهت الرجل واستغرق لحظة يتأملني قبل العودة لإنجليزيته المتواضعة:

- «كاسيا»، ماذا حدث لك؟! ألا تعرفينني؟!

من المفترض أن أعرفه إذن، لكني هززت رأسي بالنفي في رفق وأنا أجاهد للتحكم في خفقات قلبي الواجف، وإذا بالرجل يقول في أسى:

- رباه! يبدو أن خبر انتحارك لم يكن صحيحًا. لقد اختفيت وفقدت الذاكرة إذن. إنك لا تذكرينني ولا تستطيعين التحدث بلغتك الأصلية كما أرى.

- أجل، هذا صحيح. لقد فقدت ذاكرتي!

فقدان الذاكرة عذر عبقري حقًا، وعبقريته الحقيقية أنه جاء في وقته تمامًا، فمسألة أنني امرأة مصرية تجاوزت الثمانين وتحتل بمخها جسد فتاة آسيوية تحت العشرين

نتيجة عملية جراحية معقدة هو أمر يستغرق كثيرًا من الإسهاب في التفسير أولًا، وأجده عصيًا على التصديق بعض الشيء ثانيًا.

نظر الرجل نحوي في إشفاق، قبل أن يشير إلى صدره قائلًا:

- أنا «كومار». ألا تذكرين هذا الاسم؟

كلا بكل أسف، إنه لا يقرع أي أجراس كما يقولون.

- «كومار» الهندي، صديق خالك «كازين» منذ سنوات الطفولة، لقد حملتك على ذراعي هذه وأنت بعدُ طفلة رضيعة.

- خالي؟

إن لي خالًا إذن، وهذا الرجل يعرفه. يا له سخاء قدري لم أتصور أن يبلغ هذا الحد إطلاقًا.

قال «كومار» بمزيد من الأسى:

- لقد نسيتِ كل شيء كما أرى، حتى «كازين» لم يعد له مكان في ذاكرتك، لكن هل نسيتِ أمك أيضًا؟ تلك التي لم تذق للراحة أو للسعادة طعمًا منذ غادرت المنزل إلى حيث لا يعلم أحد أين.

ـ أمي؟

ثم أضاءت الدنيا بالأبيض والأسود.

***

ينفتح الباب الخشبي بغتة، وأندفع منه صارخة في ألم.

أسقط على الأرض بين شهقاتي ودموعي.

يقف عند عتبة الباب رجل بوجه آسيوي متجهم، لا يعرف الرحمة. ومن خلف كتفه يرتفع نواح امرأة لن تعرف للراحة أو للسعادة طعمًا منذ لحظتها.

ـ لا مكان لساقطة مثلك بيننا.

يهتف بها الرجل بلغته التي أفهمها.

ثم يلقي بحقيبة صغيرة في وجهي.

يتناثر ما فيها من أغراض فتاة صغيرة فوق الأرض الحجرية.

ثم ينغلق الباب في صفقة عنيفة.

***

ـ خذني إليهما.

أقولها فور اختفاء الرؤيا الخاطفة، أهتف بها في رجاء، فيبتسم الرجل الهندي الطيب ويقول:

ـ سيعيد هذا الحياة لقلب «آرينا» المسكينة، أمك.

ها هو الطريق نحو الحقيقة قد أصبح على مرمى حجر، أو أقرب.

ـ يجب أن أعتذر عن اقتحامي لغرفتك بهذه الصورة مستخدمًا المفتاح الرئيسي، لو علم رؤسائي هنا لخربوا بيتي، لكني لم أصدق عيني عندما رأيتك تدخلين الفندق بالأمس.

لم يكن سبب إعراضه عني إذن مجرد صغر حجم حقيبتي. كان يرى منتحرة تعود إلى الحياة فشلّته المفاجأة عن تقديم يد العون لها كما تقتضي أبسط مهام وظيفته أن يفعل.

ـ والآن، هلمي بنا إلى الحي الصيني.

أنا من أصول صينية إذن، سليلة صناع معجزة هذا القرن.

نعم، إن الصينيين معجزة حقيقية، يكفي أنهم ظاهرة عددية لم تتكرر، فمن بين كل خمسة من كل سكان العالم ستجد هناك واحدًا صينيًا، والأدهى أنهم قوم مسالمون عازفون عن الاندماج في المجتمعات الحديثة، يفضلون

التشرنق داخل تجمعات سكنية وتجارية خاصة بهم يُطلق عليها الحي الصيني (تشاينا تاون) في أمكنة مختلفة من بقاع العالم القديم والجديد، ستجد هذه الأحياء في الأمريكتين وفي أوروبا وفي أستراليا ومتناثرة على خريطة آسيا بشكل ملفت للنظر، وقد اعتبرتها أكثر الحكومات نوعًا من «الجيتو» المنعزل لأقلية تتزايد باطراد فعملت على منعها وإبادتها، بينما استفادت حكومات أخرى أكثر ذكاء من هذه المناطق في جعلها مراكز سياحية وتسوقية جذابة. هذا بالإضافة إلى معجزة الصين الاقتصادية في النمو الحديث، والتي يمكن أن أتحدث عنها طويلًا دون أن يضيف هذا لمصيري الغامض شيئًا من الوضوح، كما يمكن لتداعي أفكاري أن يعرض أمامي مشاهد كاملة من فيلم «الحي الصيني» لـ«جاك نيكلسون» في سيارة الأجرة التي أقلتني بصحبة «كومار»، فأنا من الجيل الذي عاصر روعة فيلم كهذا.

وصلنا إلى الحي الصيني، ودفعت لسائق السيارة أجره بالدولار، ابتهج الأخير وتجمد وجه «كومار» الذي فكر أن الموضوع ليس مجرد فقدان للذاكرة، إن فيه نقودًا كثيرة أيضًا، لكنه تقدمني على أي حال.

- اتبعيني.

سرت خلفه محاولة تخزين كل شيء في شبكية عيني التي

تشاهد ما حولي للمرّة الأولى كعصمت، غير أن الوضع ليس كذلك بالتأكيد بالنسبة لـ«كاسيا»، أما «جيسيكا» فهجين من هذه وتلك، مستسلمة في إذعان لعبث التيار، تتقاذفها ـ مثل طيور «أمل دنقل» ـ فلوات الرياح.

الحي الصيني هنا في كوالا لامبور عبارة عن شارع عريض، تمتد الزينة ذات الطراز المعماري المميز للشرق الأدنى في سمائه الدانية، وتتراص على جانبيه المتاجر التي يُباع فيها كل ما يمكن تصوره: ملابس، وأحذية، وحقائب، وساعات، وألعاب أطفال، وعطور مقلدة، وحتى أقراص الدي في دي المقرصنة المصورة من صالات السينما أو المنسوخة عن أصول أخرى، تباع هنا بأثمان زهيدة.

فجأة أضاءت الدنيا بالأبيض والأسود.

***

ورأيته.

الفارس المبتسم وهو يدخن سيجارته الأثيرة.

يقف بجوار قائم خشبي تُعرضُ عليه أغلفة الأسطوانات الحديثة.

وبجواره آخر ضئيل الحجم يساوم زبونًا على سعر عدد من

الأسطوانات.

الفارس ينظر إلى نهاية الشارع.

حيث أبرز في ملابس مدرسية زرقاء، على ظهري حقيبتي.

وفي يدي علبة من حليب الأرز أشربها في تلذذ.

فيما تميل صديقتي على أذني، وتهمس.

ثم تعلو ضحكاتنا البريئة.

أما بسمة الفارس، فلم تكن تنطوي على أدنى قدر من البراءة.

وإنما على أكبر قدر من الرغبة الدفينة.

الآثمة!

***

ـ ها هو ذا.

أفيق على هتاف «كومار»، إذ توقف مشيرًا إلى متجر ضئيل محشور بين المتاجر، ثم تابع:

ـ لحُسن الحظ أننا أتينا مبكرين قبل زحام الظهيرة. ها هو محل خالك، وها هو خالك واقف بجوار الملابس المعروضة. هيا، اذهبي إليه.

أنظر إلى حيث يشير، ويقشعر بدني بشدة.

الرجل الصيني الذي داهمتني رؤيته.

(يقف عند عتبة الباب رجل بوجه آسيوي متجهم، لا يعرف الرحمة).

(لا مكان لساقطة مثلك بيننا).

هو بملامح ملونة أكثر وضوحًا، يعلق ثوبًا في مشجب بحيث يظهر واضحًا للعيان، ثم يهرش في شعر رأسه الذي يبدو أشبه بالدبابيس السوداء والبيضاء، ويشرد للحيظات في تأمل الملابس الكثيرة المعلقة بالأعلى.

- تعال معي.

أقولها لـ«كومار»، فيقول في حرج:

- أخشى أن يكون الأمر خصوصيًا. أنا لا أحب الدخول في هذه المتاهات العائلية.

- تعال معي!

كررتها كالمشدوهة، وجذبته من يده خلفي حتى توقفنا أمام الرجل الشارد في تأمل معروضاته.

- «كازين».

ناداه «كومار» بنبرة خافتة، فالتفتت عيناه نحونا أخيرًا، وتوقفت فوق ملامح وجهي بكل ما يمكن أن تحمله لفظة «كراهية» من معنى.

لم أستطع النطق بكلمة، وتولى «كومار» الحديث، مشيرًا نحوي وذاكرًا اسم «كاسيا». في الغالب كان يقول ها هي «كاسيا» قد عادت بعد أن ظنناها انتحرت، وإنها فاقدة للذاكرة، لذا فهي لا تفهم ما أقوله الآن ولا تستطيع التحدث إلا بالإنجليزية ولا تعرف أي شيء عما حدث لها.

في الغالب كان يقول كل هذا، دون أن ترتفع العينان الضيقتان الكارهتان للخال «كازين» عن وجهي، وفي النهاية نطق بشيء ما مشيحًا عنا، ومشيرًا بإبهامه إلى جهة قريبة، قبل أن يعطينا ظهره ويواصل ما كان يفعله.

سألت «كومار»:

ـ ماذا قال؟

فأجابني في حرج:

ـ يقول إنه لا يريد أن يراك. وقد طلب مني أن أصحبك إلى أمك «آرينا» التي تلازم فراش المرض في المنزل. ربما أعنتِها على الشفاء، فهي لا تردد إلا اسمك ليل نهار.

قلث وأنا أنظر إلى الرجل الذي أعطاني ظهره:

ـ كأنه لم يفرح لرؤيتي أعود حية.

هز «كومار» رأسه قائلًا في أسف:

ـ كان هذا متوقعًا!

ثم أشار إليَّ أن أتبعه إلى المنزل القريب.

ربما جلبتْ «كاسيا» العار لهذه العائلة بعملها في صناعة البورنو، وربما كان هذا سبب طرد خالها لها ونعته إياها بالساقطة، وربما طارد الإحساس بالذنب «كاسيا» حتى انتحرت، وحصلت مؤسسة «حياة جديدة» على جسدها بطريقة ما. قصة بسيطة لا تستحق عناء السير خلف أذيالها، لكني أشعر أن الأمور ليست بهذه البساطة التي تبدو عليها، خصوصًا أن هناك أشياء كثيرة لم يتم تفسيرها بعد، مثل أن هناك من يريد إقحامي الآن في القصة لسبب أو لآخر.

ـ هذا هو المنزل. أتعشم ألا تُفرِح رؤيتك «آرينا» إلى درجة مفارقة الحياة!

المنزل.

(ينفتح الباب الخشبي بغتة، وأندفع منه صارخة في ألم).

هو نفس المنزل. «كومار» يطرق الباب وتفتح لنا شابة

صغيرة، تتسع عيناها عند رؤيتي، تندفع لاحتضاني وأنا ذاهلة عن كل شيء. أنظر إلى «كومار» كأني أستنجد به، تبلل دموع الشابة كتفي، ويحاول «كومار» التهوين من حرارة اللقاء قليلًا. يخاطب الشابة ويفهمها أنني فقدت ذاكرتي بلغة مفهومة لكليهما، ثم يستدير نحوي قائلًا بالإنجليزية:

- هذه ابنة خالك، «راشكا».

أحييها بإيماءة وأخاطبه:

- قل لها إنني فقدت الذاكرة.

- لقد فعلت!

أدخلتنا «راشكا» بترحاب بالغ إلى باحة المنزل الناضحة فقرًا وعفونة، وشممت رائحة الطعام الصيني المقيتة آتية من جهة المطبخ، فمنعت نفسي من التقيؤ بصعوبة، في حين تقدمت «راشكا» نحو باب غرفة مفتوح، ورفعت عقيرتها بالهتاف المستبشر، لتقول شيئًا من قبيل إن «كاسيا» قد عادت أخيرًا من عالم الأموات يا أماه!

كنا قد بلغنا الباب عندما أنهت نداءها، واستطعت من موقعي أن أميز المرأة التي أوهنها المرض في استلقائها على السرير، وهي تحاول النهوض بوجه يضحك ويبكي في نفس الوقت، هاتفة نحوي بكلمات كثيرة استطعت أن أميز فيها

اسم «كاسيا».

وضع «كومار» يده على كتفي قائلًا في حث هامس:

ـ إنها تريدك أن تقتربي.

للحظة فكرت في الهروب من كل هذا والعودة إلى المنزل، والبحيرة، والنوارس، وأم محمود، وطارق، و«تمارا»، لكن مشهد الأبيض والأسود تجلَّى أمام عيني فجأة.

***

كنت أبكي وأنا أخبرها بالأمر.

وكانت أمي تلطم خديها ولا تدري ما الذي يمكن أن تفعله.

تسألني:

ـ ليلى تعرف؟

أهز رأسي بالإيجاب فتعاود المرأة لطم خديها.

ثم يدوي غلق الباب في الخارج كرصاصة تخترق صدري.

تشهق أمي قائلة:

ـ خالك أتى. يا للمصيبة!

وأجهش أنا بالبكاء أكثر، عندما يظهر وجه خالي «كازين»

عند الباب.

***

حيث أقف الآن.

تقدمتُ من المرأة المريضة ـ أم «كاسيا» ـ في بطء. عندما بلغتُ طرف سريرها احتضنتني وأخذت تقبل وجهي وهي تبكي وتهتف بما لا أفهمه. عند الباب كان «كومار» يمسح دموعًا هزمته، وكانت «راشكا» تهتز في نواحٍ عنيف، بينما سيطر عليّ أنا شعور بالانفصال التام عن هذا الواقع العبثي الذي أعيشه ولا أعيشه.

استطعتُ تخليص نفسي من بين يديها في صعوبة، وأخذت هي تحدثني منتظرة إجابات ما، فهتفتُ في «كومار»:

ـ أخبرها يا «كومار» أنني فقدت الذاكرة، وأنني في حاجة لأن أعرف منها كل شيء.

تقدم «كومار» وخاطبها بلغتها فنظرت إليّ في تعاطف، وقالت شيئًا من قبيل إن الأهم هو كوني بخير، وفي النهاية جمعتنا الجلسة شبه العائلية بجوار سريرها، لتبدأ هي في رواية ما لديها، بينما «كومار» يؤدي دور المترجم الأمين على الوجه الأكمل.

قالت المرأة المريضة إنني ابنتها الوحيدة التي تبقت لها في هذا العالم بعد أن هجرها زوجها دونما سبب منذ سنين بعيدة، كانت الخلافات قد احتدمت بينهما حتى أدت إلى أن خرج الرجل يومًا من المنزل ولم يعد، ومن يومها إلى الآن لا أحد يعلم عنه شيئًا، ربما يكون قد هاجر إلى بلاد أخرى، ربما يكون قد مات، سُجن، تزوَّج، المهم أنها تولت عناء تربيتي وحدها، هنا في منزل خالي، البائع في الحي الصيني، الذي فتح لها ولي ذراعيه بكل المحبة والشهامة.

(أتذكر أبي بلا وجه.

يتبادل السباب مع الدتي بصوت عال، ثم يدفعها فتسقط على الأرض.

يخرج صافقًا الباب خلفه.

وأنا عند باب حجرتي.

ممسكة بدُميتي.

أبكي بحرقة).

من أعماق هذه التربة الفقيرة القذرة نبتت زهرة «كاسيا» العطرة المبللة بالندى. كانت الأم تساعد الخال في العمل من أجل تأمين اللقمة والدراسة والكساء والدواء. و«كاسيا»

كانت محط أنظار الجميع في الحي الصيني. كانت تملك هذا النوع من الجمال الذي لا بد أن يجلب المشكلات. كل أسبوع تحدث مشاجرة على الأقل بسببها. عشرات يحاولون التقرب منها في الطريق من وإلى المدرسة. كانت «كاسيا» تقاوم الجميع إلا أن حصون مقاومتها سقطت في يُسر أمام هجمات «ميور» المحنك الأريب في عالم النساء.

(وفي آخر الشارع المسدود أراه، واقفًا كفارس يبتسم وهو يدخن سيجارته الأثيرة.

أبتسم في خفر وهو يومئ لي).

«ميور» كان الشاب الوسيم الطويل القامة والعريض المنكبين الذي يعمل في بيع الأسطوانات المقرصنة في الحي الصيني، والذي يحلم بالغناء والشهرة والنجومية في حين لا يملك بالكاد إلا قوت يومه، والذي اعترض طريق «كاسيا» واستغل قرابته بصديقتها المقربة ليلى من أجل أن يصل إلى قلبها، وقد كان.

(الفارس المبتسم وهو يدخن سيجارته الأثيرة.

يقف بجوار قائم خشبي تُعرضُ عليه أغلفة الأسطوانات الحديثة).

ثم جاء نبأ اللعنة محمولًا على لسان «كاسيا» إذ تخاطب

أمها.

(كنت أبكي وأنا أخبرها بالأمر.

وكانت أمي تلطم خديها ولا تدري ما الذي يمكن أن تفعله).

«ميور» استطاع أن يغرر بـ«كاسيا»، وهي الآن حامل منه!

(ثم بحركة ذات مغزى، يشير نحو المنزل، رقم 22!).

علم الخال «كازين» بالأمر من همسات السوق وغمزات الشباب بائعي الأسطوانات أصدقاء «ميور»، وتأكد له الأمر عندما رأى دموع الأم والابنة، فغلى الدم الشرقي في عروقه، وألقى بـ«كاسيا» وملابسها خارج المنزل دون أن يؤلمه ضميره.

(لا مكان لساقطة مثلك بيننا).

اختفت «كاسيا» بعدها تمامًا، والغريب أن «ميور» وليلى قد اختفيا من الحي الصيني أيضًا، وانتهت القصة بالنسبة إلى الأم بعد عدة شهور، عندما أتت الأنباء أن «كاسيا» قد انتحرت، ولم يتم العثور على جثتها حتى الآن!

هكذا يتضح كل شيء، ويتسع الضوء الأبيض والأسود أمام عيني.

***

بطني منتفخ، وأنا أصرخ من آلام المخاض.

تميل ليلى ممسكة بذراعي وتقول:

- تماسكي، سنصل إلى المستشفى بعد دقائق.

الماء والدم يغرقان نصفي الأسفل.

و«ميور» يقود السيارة المتهالكة، مدخنًا في هدوئه القاتل.

***

ليست الفضيحة بالنسبة إلى أهل «كاسيا» إذن هي العمل في موقع إنترنت إباحي، إنه الحمل سفاحًا، لعلهم لا يعلمون شيئًا عن المصير الأسود الذي لقيته بعد أن طُردت من المنزل، ولعلهم لا يفقهون معنى كلمتي إنترنت أو بورنو من الأصل.

معنى هذا أن «كاسيا» قد حملت إذن، ومعنى ما أراه بالأبيض والأسود أنها أنجبت بالفعل.

وصارت أمًّا.

***

تقترب مني ليلى، حاملة قطعة صغيرة من اللحم الأحمر تصرخ طالبة الرضاع.

أنظر إليها باسمة في إنهاك دون أن أقوى على التكلم.

تقول ليلى:

- انظري إليه. ألا يشبه «ميور» كثيرًا؟

***

رباه! هذا أبعد مما كنت أتصور بملايين السنين الضوئية!

أنا أم؟!

أنا - سواء كنت «كاسيا» أو «جيسيكا» أو عصمت - أملك امتدادًا جينيًا لي في هذا العالم؟!

مفهوم أنني بعد أن طردني خالي قد ضاق الحال بي فغرقت في مستنقع الرذيلة والإباحية، لكني لم أتصور أن أكون وقتها حاملًا، وأن هناك طفلًا ما قد أنجبه رحمي.

يجب أن أفهم أكثر.

يجب أن أفهم.

قلّبت أصابعي في حقيبة يدي وأخرجت كل ما فيها من دولارات وجنيهات وعملات أخرى وضعتها على الطاولة المتسخة، بجوار السيدة المريضة التي أنجب رحمها جسدي، فتعلقت الأنظار بالنقود في سهوم، وسألت الأم فترجم

«كومار»:

- ما هذا؟!

- بعض النقود لتساعدها على العلاج. سأرسل لها بالمزيد عندما أعود إلى الفندق.

ترجم لها «كومار» فانعقد لسان المرأة، ولم تدرِ ماذا تقول.

نهضت قائلة:

- هيا يا «كومار»، سنعود إلى الحي الصيني.

نهض يسألني:

- لماذا؟

- يجب أن أعرف طريق «ميور». لا بد أن أعثر عليه.

تفكيري البديهي: ما دام هو والد الطفل فلا بد أنه يعرف عنه كل شيء، على الأقل سوف يعرف إن كان لا يزال حيًا أو...

قال «كومار»:

- لكنه مختف منذ اختفيت أنت.

- لا بد أن أحدًا من أصدقائه القدامى يعرف طريقه. فكر يا «كومار».

فكر «كومار»، ثم تفتقت قريحته:

ـ نجم الدين. لقد كان شريكه في بيع الأسطوانات قبل أن يختفي «ميور» وينفرد نجم الدين بتجارتهما المشتركة.

(وبجواره آخر ضئيل الحجم يساوم زبونًا على سعر عدد من الأسطوانات).

ـ هلم بنا إذن.

وعدنا إلى الحي الصيني الذي ازدحم بالسياح، لكننا عرفنا طريقنا إلى نجم الدين في سرعة، وقد أذهله مرآي كما أذهل كل من رآني هنا حتى الآن.

ـ «كاسيا»؟!

هتف بها نجم الدين، فأومأت برأسي وقلت:

ـ أجل. أين «ميور» يا نجم الدين؟

تحدثث بالإنجليزية لكن اسم «ميور» أوضح السؤال تمامًا، ومن باب الاحتياط ترجم «كومار» سؤالي، فهرش الفتى الضئيل في ذراعه وقال هازًّا كتفيه بإنجليزية ضعيفة:

ـ لا أعلم. لقد اختفى منذ...

قاطعته في صرامة:

ـ نجم الدين.

نظر الفتى نحوي، ورأى أصابعي ممتدة بحفنة وافرة من الدولارات:

ـ خذ، ربما ينعش هذا ذاكرتك.

انفرجت أساريره وهو يخطف الورقات الخضراء من يدي قائلًا في بسمة كلبية:

ـ رأيته منذ فترة قريبة يؤدي فقرة فنية في صالة ديسكو لا تبعد عن هنا كثيرًا. يمكنني اصطحابكما إلى هناك الآن نظير مبلغ مماثل.

عرجنا على آلة سحب نقود ومنحته ثلاثة أضعاف المبلغ الذي طلبه، فأسرع بنا إلى هناك.

إلى حيث ينتظرني كثير من الإجابات عن أسئلة مفتوحة كالسماء.

9

وصلنا ـ «كومار» ونجم الدين وأنا ـ إلى صالة الديسكو وظلال العصر تتعملق على أسفلت الشارع أمامنا، وهناك رأيت صورة «ميور» بسترة جينز تكشف شعيرات صدره، وعلى رأسه منديل بألوان العلم الأمريكي مع نظارة شمسية تخفي عينيه، وبجوار صورته صورة لليلى ترتدي ملابس ضيقة من الجلد الأسود، معطية ظهرها المكشوف للمصور في وضعية إغراء شهيرة، وكانت الصورتان معلقتان على لوحة كبيرة مكتوب عليها بالماليزية إعلان عن حفل يحييانه كل ليلة هنا في هذه الصالة، كما يمكن الاستنتاج بسهولة.

تولى «كومار» التحدث والسؤال عنهما، فأجابه أحد المسؤولين عن الأمن أن السهرة اليومية تبدأ في العاشرة مساء، وقبلها لن يمكننا الدخول إذ الصالة مغلقة حتى وقتها، فكرت أن أدفع له حتى يلين معنا أكثر، لكنَّ نجم الدين همس لي ألا أبعثر نقودي إذ الصالة خاوية على عروشها بالتأكيد في هذا الوقت من اليوم، والأفضل أن أعود في الليل حتى أقابل «ميور» الذي أثبتت الصور وجوده الفعلي.

وجهة نظر معقولة، رغم أني لا أعرف كيف سأصبر طوال هذه الساعات حتى العاشرة.

تركَنا نجم الدين وعاد إلى الحي الصيني، واتخذت مع

«كومار» الطريق إلى الفندق في سيارة أجرة وكان هو ينظر في ساعته قائلًا في توتر:

ـ لن أندهش لو فُصِلتُ من عملي، فقد تغيَّبت لساعات طويلة دون سبب.

قلت وأنا أمد يدي إلى حقيبتي:

ـ لا تقلق.

وأخرجت دفتر شيكات، ثم ملت عليه أسأله:

ـ كم يكفيك؟

انعقد حاجباه وهو يسألني:

ـ من أجل ماذا؟!

هززت كتفي قائلة في بساطة:

ـ إنك لن تساعدني مجانًا، اعتبره تعويضًا عن أضرار العمل، مكافأة تستحقها عن جدارة، أجرًا لعملك معي بالساعة، أي شيء، خمسة عشر ألف دولار تكفيك؟

(الثروة التي ألقى بها نعمان ضخمة، وأنا لم أتعب في جنيها، كما لم يتعب نعمان رحمه الله هو الآخر. كل هدفي الآن أن أحاول إسعاد من أعرفهم بها على الأقل).

ظل «كومار» ينظر إليَّ كأنه يحاول أن يفهم، فعدلت عرضي إلى:

- ثلاثون؟ خمسون ألف؟ مائة ألف دولار لو أحببت!

(أتصور هذا هدفًا جليلًا ولا أتصور أن أحدًا يخالفني وجهة النظر، وعلى المتضرر اللجوء برأسه إلى أقرب حائط!).

ظل «كومار» صامتًا كأنه يحاول فك طلاسمي، فبدأت أحرر الشيك قائلة:

- سأوقعه على بياض وأترك لك وضع الرقم الذي تحب. ما رأيك؟

قطعت الشيك من الدفتر وأعطيته له، فما كان منه إلا أن قطَّعه نصفين وألقى به من الشباك المجاور له.

نظرت إليه أنا في صمت هذه المرَّة، وسألته:

- ألا تريد نقودًا؟

قال:

- لقد صحبتك طوال النهار لأنك ابنة أخت صديق عمري، لا انتظارًا لمكافأة ما.

- لكنك فرطت في فرصة عظيمة قد لا تتكرر أبدًا.

ـ أعتقد أن كثرة الأموال تجلب من الهموم أكثر مما توفر الراحة. إنني مستعد للبحث عن عمل آخر إذا فصلوني من الفندق، عمل في حدود إمكاناتي وفي نطاق أجري الحياتي المعتاد، لكني لست على استعداد لاستقبال ثروة هابطة من السماء دون تعب. صدقيني، لقد رأيت أناسًا ينهارون في سبيل جمع الثروة ثم في سبيل الحفاظ عليها، ولست أريد أبدًا أن أكون واحدًا من هؤلاء!

صحبني حديثه الهادئ حتى غرفتي، وظل يتردد في ظلمات عقلي بصدى عميق، عميق.

حاولت النوم دون جدوى، حتى دهمني الأبيض والأسود.

***

وكنت جالسة بوجه مضرج بالحمرة، في وضع تصوير مخجل.

يهتف بي «ميور»:

ـ انظري إلى هنا.

ثم يسطع فلاش الكاميرا في وجهي.

ويشير إليّ «ميور» من وراء العدسة بإبهامه:

ـ هيا، الوضع التالي.

***

نهضتُ في فزع، هربتُ إلى شرفة الغرفة كأني أحتمي بالهواء في الخارج من الاختناق بضيق الجدران وبشاعة الفكرة، ويبدو أن «ميور» قد غرر بـ«كاسيا» إلى حد أنه هو الذي دفعها دفعًا لاحتراف بيع جسدها في صور ملونة على شبكة الإنترنت.

لكن...

من أين تأتي صور الأبيض والأسود هذه؟!

من أين والمفترض أن «كاسيا» ماتت فعلًا؟! ومَن مات لا يمكن أن يتذكر!

هل حلّت روحها مرة أخرى في جسدها الذي أصبح جسدي؟!

كيف أتذكر ما مرت به هي إن كنت لم أعشه؟!

هل يتذكر الجسد في غياب المخ؟!

نهر من الحيرة يعترضه فجأة سد الأبيض والأسود.

***

أنا وراء الكاميرا، كاميرا فيديو هذه المرّة قديمة من طراز

«analogue».

أمام العدسة يجلس «ميور»، ويتحدث:

- أقر وأنا في كامل قواي العقلية بأني مُقدم على الانتحار بكامل إرادتي، لأن هذا العالم لم يفهمني!

وأنا وراء الكاميرا، أبكي...

دون أدنى صوت!

***

يبدو أن العبث قد بدأ يشتد.

من المفترض أن أكون أنا من سجّل هذه الرسالة على الشريط لا هو!

معنى هذا ببساطة شديدة أنني على شفا حفرة من جنون مطبق، أو لعلي جُننت فعلًا دون أن أدري.

سحبت نفسي من الشرفة إلى الداخل، وتحت دش الحمّام تركت المياه تنساب وتغسلني لعلي أتطهر من ذنوب لم أرتكبها.

المياه تنساب على جسدي، الذي ليس جسدي، والأبيض والأسود يهجمان بكل عنف.

***

صحوت من النوم فجأة عندما شعرت أن طفلي ليس بجانبي.

وبالفعل لم أجده في فراشه الصغير.

هرعتُ إلى خارج غرفة النوم، وكانت ليلى هناك تبكي.

أدرت وجهها نحوي أسألها:

ـ أين «كازين»؟

فأجابتني:

ـ أخذه «ميور» إلى المستشفى، لم يكن يتحرك منذ نام ليلة أمس. لم يكن يتنفس حتى.

صرخت فيها:

ـ ولماذا لم يوقظني؟

قالت باكية:

ـ لم يُرد أن يزعجك.

صرختُ منهارة، لقد انتقمتْ مني السماء، وأخذتْ «كازين» الذي لم يبلغ شهرًا واحدًا من العمر.

***

أطلقت «كاسيا» على طفلها اسم خالها إذن: منتهى الوفاء!

أتأمل في ملامحي الشاردة أمام المرآة بعد أن استحممت، وأقرأ في عيني اللتين ارتسمت حولهما هالتان من السواد إرهاقًا ورغبة في الخلاص لا تجيء.

ثم...

***

يمد «ميور» يده بالورقة وينتظر أن أضع توقيعي في الخانة بالأسفل.

أتردد، فيقول:

- إنها الطريقة الوحيدة لكي نستطيع أن نكسب عيشنا حتى تنجبي، ونتزوج.

- لكن، سأخلع ملابسي أمام الكاميرا؟!

- مَن يمكن أن يتعرَّف عليك؟ إن كل الآسيويات تتشابهن.

- أشعر أني أنتهك إنسانيتي.

- الجوع سينتهكها أكثر. هيا، وقعي لأجل خاطري.

ولم يكن أمامي إلا الإذعان، بقلم يرتعش بين أصابعي.

***

جاء الموعد أخيرًا، وفي العاشرة تمامًا هبطت إلى بهو الفندق فلم أجد «كومار»، أخبروني بأنه تم فصله من العمل، وبأنه خرج منكسرًا يجرجر قدميه.

لم يفكر حتى في الاتصال بي، هذا رجل عزيز النفس حقًّا، وسأعرف كيف أجده وأعوضه بعد إتمام مهمتي الأساسية.

سيارة أجرة إلى صالة الديسكو، وفي الطريق...

***

يمسك «ميور» الموسى الحاد، ويقربه من رسغه قائلًا في ألم:

ـ سأفعلها أولًا.

أمد يدي نحوه، أوقف يده، وأتناول الموسى قائلة بإصرار:

ـ كلا، أنا أمه ويجب أن ألحق به قبلك.

ـ لكن...

يبتر عبارته دون أن أقاطعه، إذ أمُر بالطرف الحاد على رسغي الأيمن، وتتدفق الدماء حمراء كثيفة وغزيرة إلى أرضية الحجرة.

تنسحب الحياة مني رويدًا رويدًا، يبدأ الضباب في التكاثف أمام عيني حتى يختفي كل شيء: وجه «ميور»، والسرير، والحوائط، وكاميرا الفيديو التي توقفت عن التصوير.

وأمام ناظري، تشتعل النيران، ويضحك الجحيم!

***

هبطتُ من سيارة الأجرة أمام صالة الديسكو، وقد كوَّنت صورة ذهنية مقربة لما حدث: طفلي الصغير مرض ومات، الشعور بالذنب الذي أججه «ميور» في أعماقي جعلنا ـ أنا وهو ـ نقرر الانتحار معًا.

أقدمتُ على الانتحار قبله ولم يلحق هو بي. راجع نفسه، وكأي وغد محترم تراجع عن قراره واستمرت حياته بعد أن تم رحيلي بالفعل، حذَفَ خطاب انتحاره وأبقى خطابي على الشريط داخل المنزل 22 الذي كنا نقيم فيه معًا، ليعيش بعدها حياته العابثة مع صديقتي الخائنة وقريبته ليلى، وها هما الآن معًا يقدمان حفلًا صاخبًا في صالة ديسكو أشبه بالماخور، إذ يدخلها أحط أنواع البشر من الجنسين.

نظرية أنيقة، لكني في حاجة لإسكات الصوت الصارخ في أعماقي بأني مخطئة في شيء ما، أو بأن نظريتي غير مكتملة على الأقل.

ما هو الناقص؟

أين الخطأ بالتحديد؟

لا أدري.

كان الدخول ممنوعًا للفرادى، لكن النقود تكلمت وجعلت في استطاعتي الدخول بمفردي. وفي الداخل كان الإيقاع صاخبًا، والزحام شديدًا، والرائحة خانقة، والأضواء الملونة تندلع وسط الظلام والدخان، وكؤوس الكحوليات تروح وتجيء، والرقص على خشبة المسرح الدائرية ينضح عرقًا والتواءات وخلاعة، وفي الخلفية رأيتهما معًا.

«ميور» في ملابس بوهيمية، يمسك جيتارًا كهربائيًا، ويصرخ بالغناء المجنون في الميكروفون أمامه، وبجواره ليلى بشعر مصبوغ بالأخضر، وبملابس جلدية تبرز الوشوم الهائلة على امتداد ذراعيها وظهرها، والحلقات المعدنية اللامعة تخترق ثقوبًا في أنفها وأذنيها. كانت تتلوى كأفعى، وتغني عندما يحين دورها في الغناء.

سيكون لقائي بهما فريدًا من نوعه، أستطيع أن أراهن على هذا.

التهمت الضوضاء أعصابي وأنا أدور كنحلة دائخة في زحام الصالة الضيقة، باحثة عن طريق يؤدي بي إلى كواليس

الخشبة التي يغنيان فوقها دون جدوى، وقررت في النهاية أنه قد حان الوقت لكي تتكلم النقود.

جلست فوق أول مقعد خالٍ على البار، وانعكست الأضواء الملونة على وجهي وأنا أهتف:

- هل تتحدث الإنجليزية؟

توجهت بالسؤال لفتى البار الذي نظر إليّ مليًا قبل أن يدنو مني سائلًا بنبرة عالية:

- «سكوتش» أم «براندي»؟

وضعت رزمة دولارات فوق الحائل الخشبي بيني وبينه، وأنا أهتف حتى يسمعني بوضوح هذه المرَّة:

- كواليس...

مد يده وأخفى الرزمة في جيبه، الأمر الذي شجعني على الاستمرار:

- أريد أن أعرف طريقها.

هز كتفيه وأشار إلى مدخل الصالة قائلًا:

- الأمر بسيط. مدخل الكواليس في الطابق الثاني، عليك بمدخل البناية المجاورة في الخارج.

شكرته بهتاف زاعق آخر، ثم قفزت من فوق المقعد إلى الخارج رأسًا.

عبر مدخل البناية المجاورة صعدت بضع درجات دون أن يعترض طريقي أحد، وبمجرد عبوري للباب المعدني نصف المغلق، دوت ضوضاء الديسكو في أذني من جديد، فعرفت أني عثرت على الطريق الصحيح.

كان هناك سلم معدني يصعد من أسفل خشبة المسرح إلى هنا، حيث غرفة وحيدة طاوعني بابها في الانفتاح بكل يُسر، وسارعت بإغلاقه خلفي، لتتفقد عيناي المكان الذي يفوح بروائح كريهة، ولا ينيره إلا الضوء الأحمر الشاحب عبر مصباح صغير مثبت وراء الباب.

صور نجوم «الروك» و«الهيفي ميتال» تغطي الجدران، وتعطيني إيحاء بأني دخلت الجحيم بقدميّ، بضعة مقاعد خشبية أغلبها مقلوب ومهشم، بقايا آلات موسيقية، زجاجات كحول فارغة ونصف ملآنة، وأكواب مهشمة أو متسخة، سطور الهيروين والأنابيب الدقيقة المستخدمة في الشم العميق، أعقاب السجائر البريئة والمحشوة بالماريجوانا، المحاقن والإبر والقناني الملوثة بالدم المتخثر، والأربطة المطاطية التي يستخدمها المدمنون في ربط أذرعتهم عند التعاطي، ثم ذلك الجسم المعدني الأسود فوق المقعد

الخشبي في الركن القريب.

الجسم الذي يتضح كنهه عندما أقترب.

الجسم الذي لم يكن سوى مسدس، حملته بيدي وأخذت أحدق فيه برعب هائل.

ثم دوى الهتاف الأنثوي في مكبر الصوت على خشبة المسرح بالأسفل، كانت ليلى تقول:

ـ لا تذهبوا إلى أي مكان أيها الفتية والفتيات، سنعود إليكم بعد دقائق.

ويعلو هتاف حثالة البشر المتحلقين حولها وحول «ميور» في رقص شعائري مقيت.

صوت الأقدام الصاعدة على السلم المعدني في الطريق إلى هنا، لا بد أن «ميور» وليلى سيأخذان استراحة قبل الوصلة الثانية، سيصعدان إلى هذه الغرفة و...

انفتح الباب، ودخلا.

وعندما انغلق، ظهرت أنا من خلفه موجهة مسدسي إلى ظهرهما، دون أن ينتبه أي منهما إلى وجودي بعد.

ـ مساء الخير أيها النجم والمغنية الجميلة.

شهقت ليلى وهي تستدير نحوي، واندست في ذراع «ميور» الذي استدار نحوي بدوره، ولم تصدق عيناه ما تريانه.

الوجهان كانا أشبه بجثث المشرحة دون مبالغة، وانعكاس الضوء الأحمر على تعبير الفزع المرتسم عليهما صنع لمرآهما انطباعًا شيطانيًا في عيني، انطباعًا جعلني أكرههما أكثر وأكثر.

- أنتما تدينان لي بالكثير من التفسيرات، أليس كذلك؟

كنت أتحدث بالإنجليزية، وبينما أخذت ليلى ترتجف تحت ذراع «ميور»، كان الأخير يحاول السيطرة على رعبه والنطق بكلمات لم أفهمها وإن كانت تحوي اسم «كاسيا»، ومن إشارته للمسدس الذي أشهره نحوهما فهمت أنه خائف حتى الثمالة، ناهيك عن عودة شبح الميتة أصلًا تحت هذا الضوء الأحمر المرعب.

صرخت فيه أقاطعه:

- بالإنجليزية أيها الأحمق حتى أفهمك.

صرخت ليلى تحت ذراعه، وبدأ لسانه يطاوعه ليحدثني بلغة مشتركة بيننا:

ـ حسنٌ، حسنٌ، اهدئي يا «كاسيا»، واخفضي هذا السلاح من فضلك.

هتفت فيه بحدة:

ـ ليس قبل أن أفهم منكما كل ما حدث لي ولابني.

قالت ليلى وصوتها يختنق بالبكاء:

ـ أنت تعرفين إذن.

صحت فيها:

ـ أعرف بعض الأشياء، وقد عدت لأعرف أكثر.

هتف بي «ميور» مهوِّنًا:

ـ إنه بخير. بخير يا «كاسيا» العزيزة.

ماذا؟! بخير؟!

يبدو أن سلسلة المفاجآت تأبى أن تنقطع.

ـ ماذا تعني؟ ابني لم يمت؟!

صحت بها في ذهول عارم وأنا أصوب المسدس إلى رأسه، فصاح مجددًا وقد كاد يبلل سراويله:

ـ كلا، إنه بخير. أراه في بعض الأحيان كما يقضي الاتفاق

بيني وبين من يرعونه. يمكنني أن أدلك على مكانه أيضًا.

ابني؟!

ابنها؟!

تبًا لي ولها!

كانت ليلى قد انهارت وصوتها يختنق بالدموع، وقد هتفت مشيرة إلى «ميور»:

ـ لا ذنب لي يا «كاسيا»، صدقيني! هو الذي خطط وفعل كل شيء. هو صاحب فكرة بيع الطفل إلى أولئك الناس.

بيع الطفل؟!

طفلي؟!

طفلها؟!

أي وحش منزوع القلب أنت يا «ميور»!

كان «ميور» يهتف فيها بما لا أفهمه، ثم إنه استدار نحوي قائلًا ببسمة مضطربة بائسة:

ـ دعكِ منها يا عزيزتي. إنها مدمنة في حالة هذيان. سكّيرة لا تفقه ما تقول.

شل الذهول لساني عن النطق، بينما أمسكت ليلى بذراع

«ميور» وألقت بها في عنف، مواصلة نشيجها وهتافها المسعور:

- بل أنت سبب كل المصائب من البداية. أقنعتني أن بيع الطفل سيجلب لنا الكثير من النقود. أنت السبب.

وانهارت ليلى على الأرض كلية، ممسكة بساق مقعد خشبي ومواصلة نواحها المجنون، في حين حاولت أنا السيطرة على نفسي، إذ قلت لـ«ميور» في غير تصديق:

- بعت الطفل؟! ابنك؟! بعته يا «ميور»؟!

حاول «ميور» أن يبدو متماسكًا وهو يقول مطوحًا كفيه في الهواء:

- ليس الأمر هكذا يا عزيزتي. لقد منحته لأناس أثرياء حتى ينشأ في مناخ صحي، لا بين أب مثلي وأم مثـ...، أنت تعلمين أننا غير مؤهلين للقيام بهذه الأدوار المعقدة. بالإضافة إلى هذا، لقد منحوني ثلاثة آلاف دولار كاملة. إنه وضع رابح - رابح كما يقولون.

صاحت ليلى وهي تحتضن ساق المقعد أكثر:

- هذا ما أقنعني به أيضًا عندما قررنا أن نبيعك أنت أيضًا يا «كاسيا».

صاح فيها «ميور» بغضب مستعر أن تخرس، في حين تجمّدت يداي فوق المسدس، والضوء الأحمر أمام ناظري يتحول إلى أبيض.

وأسود.

***

أصبحتُ جثة غارقة في دمها، و«ميور» عند طرف السرير يراقبني بوجه بارد.

دخلت ليلى عبر الباب، ووضعت يدها على فمها هاتفة في خفوت:

ـ ماتت؟!

قال «ميور» بصوت بارد:

ـ انتحرت. وتظن أني سأفعلها خلفها.

اختنق صوت ليلى:

ـ قتلتها!

ـ بل قتلت نفسها، هذا ما سيقوله الشريط الذي سيعثرون عليه هنا. أما الجثة، فستجعلنا نربح عدة آلاف أخرى من الدولارات.

- ستبيعها؟!

- إنه وضع رابح - رابح كما يقولون. هيا، ساعديني لنحملها في غطاء السرير، ولننظف كل هذه الفوضى الدموية ها هنا.

***

لو أن الوقت والظرف والمكان كانوا يسمحون لي بالغوص في أعماق العلاقة المركبة بين زوايا المثلث الذي هو أنا، مثلث عصمت، و«كاسيا»، و«جيسيكا»، لسألت نفسي سؤالًا بسيطًا:

كيف أتذكر الآن ما حدث والمفترض أني مت وقتها؟

الإجابة: لا إجابة؟

***

لكن الوقت والظرف والمكان لم يكونوا يسمحون بأي من هذا الترف الفكري، فليلى كانت تواصل هذيانها المحموم:

- لن أخرس. لقد بعثها إلى هؤلاء العلماء المخابيل، وها هم قد أعادوها حية. شبح الضحية عاد لينتقم منا يا «ميووووور».

فقد «ميور» أعصابه، وكال لها سبابًا آسيويًا مع ركلة قوية في وجهها، سالت لها الدماء عبر أنفها وهي ترتد إلى الوراء

في عنف، ثم تفقد الوعي، قبل أن يلتفت «ميور» نحوي لاهثًا كمُصارع في قلب حلبة قتال، ليجد ماسورة المسدس موجهة نحو رأسه تمامًا.

- والآن، ماذا تريدين؟

وغد مثله باع ابنه للأثرياء، وباع جثة حبيبته إلى مؤسسة «حياة جديدة»، ويعامل شريكته بهذا العنف والجبروت، جدير برصاصة تنهي حياته على الفور، لكني لن أفعلها قبل أن أعرف...

- مكان الطفل. يجب أن أراه.

فرائصي ترتعد وأنا أجاهد لإخفاء ارتعادها، بينما فتش هو جيوبه في سرعة، قبل أن يناولني بطاقة سوداء مدون فوقها حروف بيضاء أنيقة.

- خذي، هذا هو العنوان الذي أعطوني إياه عندما أحب أن أراه.

تناولت البطاقة بيد مرتجفة، في حين تابع هو مضيقًا عينيه القبيحتين:

- والآن اغربي عن وجهي، وعودي إلى الجحيم الذي أتيت منه، عودي بلا رجعة هذه المرَّة.

- سأفعل.

وبمنتهى السرعة غادرت الغرفة، ولم أدرِ كيف هبطت السلالم المعدنية، ولا كيف تجاوزت خشبة المسرح الصغيرة إلى قلب صالة الديسكو حتى يخفيني الزحام في حالة إذا ما راود «ميور» نفسه عن تعقبي. وفي النهاية استطعت الخروج من جهنم هذه على قدمي، واستقللت سيارة أجرة ناولت سائقها البطاقة التي تحوي العنوان، وأخذت أحاول ضبط أنفاسي واستجماع ما تبقى من شتات أفكاري على أريكة السيارة الخلفية.

***

أنزلتني السيارة على الطريق السريع، ثم مضت تاركة إياي وحدي، ووقفت أنا أنظر إلى القصر الفخم بنوافذه المضاءة وأسواره العالية والأشجار المتشابكة عند مقدمته، وأنا لا أصدق أنني قد بلغت هذا الحد من اندفاعي غير محسوب العواقب.

في البداية أوافق على انتقال جسدي من امرأة عجوز إلى فتاة مراهقة، ليتضح أن لهذه المراهقة ماضيًا ملطخًا بالعار والندم، وأن لها ابنًا بين جدران هذا القصر المنيف.

ابني، ابنها، أم ابننا معًا؟!

من الناحية التقنية فقد أنجبه رحم هذا الجسد، لكن من الناحية المعنوية لست أمه، أنا امرأة أخرى تشعر بالحنين لرؤيته واحتضانه ربما لأنها لم تُرزق في حياتها الأولى بطفل، وربما لأن الشوق له ما زال يخفق في قلب الفتاة التي ماتت منتحرة!

نفضتُ الأفكار المربكة عن رأسي المثقل، وخطوت نحو البوابة الحديدية الكبيرة الموصدة، لأضغط زر الجرس المثبت إلى جوارها، وانتبهت بعدها إلى أزيز الكاميرا العلوية التي استدارت نحوي، تنقل صورتي لمن هم في الداخل.

يبدو أن مظهري لم يكن مثيرًا للشكوك، فقد انفتحت البوابة فجأة، وامتد أمامي الطريق نحو القصر، ما عليّ إلا أن أخطوه.

وخطوْته.

صعدت الدرجات نحو البوابة الخشبية المفتوحة على مصراعيها، ثم سرتُ نحو القاعة الواسعة المؤثثة في فخامة وأريحية، وتوقفت أمام السلم الرخامي الكبير الصاعد لأعلى، ليأتيني الصوت الذي ميزته على الفور:

- مرحبًا بك يا سيدتي.

ثم ظهر قائلها عند قمة الدرجات الرخامية.

خمسيني، أصلع الرأس، أشيب الشعر، أزرق العينين، ممتلئ القوام.

ما زال يرتدي بدلة من الصوف الإنجليزي الفاخر ذات ذوق عالٍ وألوان متناسقة، وما زالت لهجته الباردة ممضوغة كديدن الإنجليز.

ـ أتيت في موعدك بالضبط كما أرى.

كان يجب أن أتوقع هذا من البداية.

إنه الدكتور «توم كوارتز».

(هو أحد أعضاء مجلس إدارة المؤسسة، بريطاني الأصل، وأحد أساتذة المخ والأعصاب المتفردين في العالم).

10

ـ كان يجب أن أتوقع هذا من البداية!

قلتها وأنا أملأ عيني من ملامحه، إذ يهبط الدرجات الرخامية نحوي فاردًا ذراعيه والبسمة تكسو شفتيه إذ تتحركان:

ـ لم أتصور أن تكون تجربتنا معك ممتعة إلى هذه الدرجة يا عزيزتي «جيسيكا»، لقد بدت أشبه بفيلم إثارة قمنا نحن بإخراجه، بينما تستحقين أنت أوسكار أفضل ممثلة رئيسية عن جدارة.

قلت وأنا أرتب الأفكار في رأسي:

ـ أنتم إذن من أرسل لي بشريط الفيديو الذي يصور رسالة انتحار «كاسيا»!

هز رأسه بالإيجاب، ثم قال:

ـ ونحن أيضًا من وضعنا وصلة الصور على موقع «الجمال الآسيوي» في البريد الإلكتروني الخاص بالطالب مؤمن. أما بقية المعلومات فقد استطعت أن تجمعيها بمهارة فريدة، تليق بمن كانت يومًا تحمل اسم الدكتورة عصمت زين الدين.

سألت ودماء الغيظ تصعد في رأسي:

ـ وفيمَ كل هذا العناء؟! ما الذي جنيتموه من هذه اللعبة؟!

هز كتفيه وقد بلغ الدرجة الأخيرة، وأصبح في مواجهتي، لا يفصل بيننا إلا متران أو أقل:

ـ إنها تجربة مفيدة بأكثر مما يمكنك التصور. الحقيقة أننا نواجه مشكلة مع زبائننا بعد أن تنتهي عملية نقل المخ بنجاح. يمكنك أن تطلقي على هذه المشكلة تعبير «عَرَض جانِبي» من منظور طبي، ونعتبرها بلغة متخصصة أكثر نوعًا من الرفض من ناحية الجسم الجديد للمخ المزروع فيه، فكما يرفض الجسد مثلًا كُلية جديدة أو كبدًا جديدة عن طريق جهاز المناعة، يرفض أيضًا المخ الجديد عن طريق ألاعيب اللاوعي، كالأحلام، الرؤى، الهلاوس، الضلالات، إلى آخره.

والتقط أنفاسه قبل أن يتابع:

ـ أطلقنا على الظاهرة تعبير «ظاهرة الفلاش باك»، والفلاش باك بلغة أهل السينما كما تعلمين هي المشاهد التي تعترض مسار الأحداث الطبيعية من أجل أن تنقل لك مشهدًا حدث في الماضي، وهو نفس ما يحدث هنا. يتعرض الزبون بعد أن ينتقل مخه إلى الجسد الجديد لرؤية أشياء لا تمتُّ لتاريخه هو بصلة، وإنما تتعلق بتاريخ صاحب الجسد الذي يحتله الآن. أعتقد أنك تعرضت لشيء كهذا سواء قبل تلقيك الشريط من ناحيتنا أو بعدها.

قلت والدم يندفع إلى رأسي، ويندفع:

ـ كنتُ إذن مجرد فأر تجارب بالنسبة إليكم.

ـ خدمة في مقابل أخرى. لا تنسي أننا منحناك صك العودة إلى الشباب والاستمتاع بالحياة من جديد.

صحت في سخط:

ـ لا أريد شبابكم هذا، ليتكم احتفظتم به وتركتموني لحالي!

قال وبسمته الثلجية تضاعف من حنقي:

ـ عقارب الساعة لا ترجع إلى الوراء أبدًا يا عزيزتي. هذا ليس ممكنًا أبدًا.

تنهدت بعمق، وركزت تفكيري في أمر واحد:

ـ أريد رؤية الطفل، «كازين».

ـ سترينه بالتأكيد، إنه جزء أساسي من التجربة. نريد أن نعرف كيف ستشعرين حيال رؤيته، هل ستتصرفين كأمه فعلًا؟ هناك عدة عوامل متداخلة مثل أن «كاسيا» هي والدته الحقيقية في حين أن عصمت مثلًا لم تُرزق بأبناء طوال عمرها. السؤال هو: ما الذي يمكن أن ينتج من خلط مشاعر «كاسيا» وعصمت في هوية «جيسيكا» الجديدة؟ انجذاب

نحو الطفل أم نفور منه؟ ما رأيك أنت؟

ركزت تفكيري في أمر واحد:

ـ أريد رؤية الطفل، دكتور «كوارتز»!

ندت عنه ضحكة مبتورة، قبل أن يهز رأسه يمنة ويسرة، ثم يقول:

ـ أتعرفين أن الإنسان كائن غريب بالفعل؟

يمد الدكتور «كوارتز» يده إلى جيب سترته ويُخرج علبة سجائره الفاخرة.

ـ أحيانًا تكون الأشياء أمام عينيه، ولا يراها.

يقرب العلبة من فمه ويلتقط السيجارة من داخلها بشفتيه.

ـ ولأنه عنيد، فربما يرفض عقله تصديق أمور بديهية، فقط لأن عقله المحدود لا يستوعبها.

يشعلها ويأخذ نفَسه الأول، ثم يضعها بين إصبعيه الخنصر والبنصر.

ـ وأحيانًا تضع الرغبة غشاوة على عينيه، فتعميه عن الرؤية.

وينفث عمودًا رأسيًا من الدخان الأبيض ينم عن مدى

اتساع رئتيه.

- ما رأيك أنت يا «جيسيكا»؟

وعن انغماسه العميق في نشوة النيكوتين.

- أم أقول، يا عزيزتي عصمت؟

- نعمان؟!

كلا، هذا كثير. كثير حقًّا.

***

(عندما سحب نعمان سيجارته من جيب معطفه الأبيض في منتصف فترة الامتياز لينفث دخانها في عمود من الهواء الرأسي، كنت موقنة أن عبارته التالية سوف تكون السؤال المنتظر:

- عصمت، هل توافقين على الزواج مني؟

وبالطبع وافقت).

***

(أخرج نعمان إحدى سجائره وبدأ في تدخينها بطريقته المميزة التي لم تتغير طوال خمسين عامًا).

***

(ذهبت أيام المجد لكنها قد تعود).

***

(تأتي الورود وتبقى حتى تذبل، تأتي بلا بطاقات، باقة يومية وحيدة لا أهتم بالسؤال عن صاحبها، ليكن من يكون فالمهم هو الحقيقة).

***

(سأراك ثانية يا عصمت. سنتقابل مرة أخرى، لا تقلقي).

***

(في الشرفة نعمان وحيد غارق في تأملاته، وفي نفث أعمدة الدخان بينما السيجارة تلو الأخرى تهتز بين خنصره وبنصره).

***

(لمحت علبة السجائر الفاخرة في جيب سترته لكني لم أهتم).

***

(سأكون بجوارك، فلا تقلقي!).

***

يبتسم «كوارتز»، ويحدثني بلهجة مصرية صميمة أميز فيها أسلوب نعمان المميز جدًّا:

ـ ظننت أن حياتي الجديدة لن تجعلك أنت بالذات تنخدعين في هويتي، لكن لقائي بك في المستشفى يوم توقيع العقد جعلني أوقن أننا هنا نصنع معجزات حقيقية بالفعل!

عجزت عن تحريك لساني، وامتدت يدي رغمًا عني إلى جيبي الواسع، بينما «كوارتز» أو نعمان ـ أيهما أقرب ـ يتابع:

ـ ظننت أن اسمي الجديد قد يكشف هويتي، فهَوَسي بالقطط جعلني أقتبس اسم القط المفضل للرئيس الأمريكي السابق «ثيودور روزفلت»، لكن ظني لم يكن في محله. يبدو أن هذا القط لم يكن بالشهرة التي تصورتها رغم أن اسمه مأخوذ عن قط آخر له دور رئيسي في إحدى قصص «مارك توين». لقد فتنتني القصة عندما قرأتها إبان بعثتنا في أمريكا، واقتنصت فرصة توفر «حياة جديدة» حتى أعيش حياة لورد بريطاني يحمل اسم قط أمريكي، إن هذا يناسب مزاجي حقًّا.

غمغمت في حقد وأنا أدس يدي في جيبي:

ـ أنت إذن من صنع بي كل هذا. أنت يا نعمان!

لوح بكفيه قائلًا كأنه يدافع عن نفسه أمام هيئة محلفين:

- لم أدفعك إلى فعل أي شيء قسرًا ضد إرادتك الحرة يا عزيزتي. لقد أخفيث عنك حقيقة قيامي بتجربة مماثلة لغرض علمي بحت. لم يكن من الممكن أن أتلقى عرضًا كهذا والسرطان يأكل رئتي ثم أرفض، خصوصًا أنني من الأعضاء المؤسسين لبرنامج «حياة جديدة» منذ البداية. فما لم أخبرك به أن أبي لم يترك لي وديعة واحدة، وإنما اثنتين: واحدة ساهمت بها في رأس مال المؤسسة وأصبحت عضوًا في مجلس إدارتها، والثانية منحتها لك عن طيب خاطر لتبعثريها كيفما تريدين، وأنت تبلين في ذلك بلاء حسنًا بالفعل. أنت لا تتصورين أنني عشت حياتي الأولى كطفيلي لا يهتم بأي شيء كما أتصور.

دون أن أشعر أخرجت المسدس من جيبي وصوبته إلى رأس «كوارتز»، أو نعمان.

أيهما أقرب!

- لو قتلتك الآن فلن تحظى بفرصة الحياة إلا في عالم آخر.

قلتها نافثة بخار غضبي المكتوم منذ سنوات بعيدة، لكن شعرة واحدة لم تهتز في رأس «كوارتز» الأصلع، وهو ينظر نحوي قائلًا:

- ألا تريدين رؤية الطفل أولًا؟

ثم إنه صفَّق بيديه، لتخرج من باب جانبي امرأة شقراء تمسك بيدها يد طفل يناهز عمره العامين تقريبًا.

كان الطفل ينظر إلى كل شيء بعينين آسيويتين ذاهلتين، تحمل ملامحه الكثير من تفاصيل وجهي، ووجه «ميور»، وقد أفقدني مرآه توازني، فارتعش المسدس في يدي، قبل أن يسقط على الأرض، ولم أدرِ بنفسي إلا وأنا أهرع نحوه، وأضمه إلى صدري بقوة، وأوسعه تقبيلًا، فيما تبلله دموعي، وتلفح وجهه شهقاتي العميقة.

قال «كوارتز»/نعمان وهو ينحني ممسكًا بالمسدس الساقط فوق الأرض:

- واضح أن رد الفعل إيجابي بدرجة خارقة.

انتبهت أخيرًا إلى الكاميرا المثبتة في ركن السقف، والتي تصور كل ما يجري، فنهضت بجوار الطفل محاولة التماسك وأنا أمسح دموعي بكفي، ودون أن أفلت يده نظرت إلى المسدس الذي يشهره «كوارتز»/نعمان الآن في وجهي، وتساءلت:

- الآن ماذا؟

هز كتفيه، وقال في بساطة أدهشتني:

ـ لا شيء، أنت حرة في الخروج من هنا حاملة الطفل معك لتكملي مسيرة الحياة الجديدة التي بدأتها فعلًا.

كنت أنظر إلى ماسورة المسدس المشهر في وجهي بخوف بيِّن، فسارع يقول:

ـ بالنسبة إلى المسدس فلا تخشي شيئًا.

وفتح خزانة الطلقات أمامي:

ـ إنه غير محشو كما ترين.

الدهشة في عيني جعلته يفسر:

ـ هل كنت تظنين أنك قد عثرت عليه داخل غرفة الكواليس بالصدفة؟ ألم أخبرك أننا نقوم بدور المخرج هنا على خير ما يرام؟

أدار ما يقوله عقلي، وتخيلت للحظة أنني كان من الممكن أن ألاقي نفس مصير ليلى: ركلة في الوجه، فقدان وعي، وربما الموت، مرة أخرى!

لم تقوَ أعصابي على تحمل المزيد، فانحنيت أحمل الطفل على ذراعي، وكنت مستعدة للمغادرة عندما قال «كوارتز»/ نعمان مشيرًا إلى الشقراء التي خرجت بالطفل:

- ألا تريدين قبل أن تغادري لقاء صديقة قديمة؟

نظرتُ إليها وتعرفت على ملامحها رغم ابتعاد الزمن:

- «جيسيكا»؟!

هزت الشقراء رأسها أن نعم وقالت بلهجتها الأمريكية:

- كيف حالك يا عصمت؟ أم تفضلين اسم «جيسيكا» أنت الأخرى؟

وانطلقت كلمات نعمان تخترق ظهري كرصاصات قاتلة:

- «جيسيكا» زميلة البعثة القديمة كانت بوابة عبوري إلى عالم «حياة جديدة». أعتقد أن كلينا يجب أن يكون ممتنًا لها الآن يا عزيزتي عصمت بالقدْر نفسه.

لا أذكر أنني كرهت حياتي أبدًا، بالقدر الذي كرهتها فيه، خلال هذه اللحظة المميتة!

***

في سيارة الأجرة التي أقلتني إلى الفندق كنت أحتضن «كازين» النائم بعمق، وقد وجد السكينة في أحضان أمه أخيرًا، والدموع لا تفتأ تسيل من عيني ثم تتوقف، تسيل ثم تتوقف، حتى توقفت بنا السيارة، هبطت منها حاملة طفلي

الوحيد إلى غرفتي بالأعلى.

وكان باب الغرفة مفتوحًا، مما أثار توتري مجددًا، ودفعني إلى حالة الاستنفار القصوى.

في الداخل كان «كومار» مستلقيًا على الأرض، مضرجًا في دمائه، يلفظ أنفاسه الأخيرة ويشير نحوي بيديه، فوضعت طفلي النائم على السرير وجثوت جواره في هلع.

يبدو أن الليلة لا تريد أن تنتهي على خير.

- ما بك؟ مَن فعل هذا بك يا «كومار»؟!

قلتها وأنا أحاول وقف الدماء النازفة من جرح في صدره، لكنه كان عميقًا بما يكفي، وقد مر عليه وقت طويل جعل فقدان الحياة مسألة وقت فحسب، نبض الشريان السباتي في العنق هو الذي يقول لا أنا.

لهث «كومار» قائلًا والعرق يرسم مسارات متعرجة على وجهه:

- اسمعيني جيدًا، لا يوجد وقت. «ميور» ونجم الدين هما من فعلا بي هذا. كانا هنا يريدان النيل منك وسرقتك، وكنت أنا هنا لسوء حظهما فتشاجرنا وفعلا بي ما فعلا ثم فرَّا هاربين.

الوغدان!

- يجب أن أطلب لك الإسعاف فورًا.

- لا يوجد وقت، الشرطة في الطريق. أحد النزلاء رآني قبل حضورك بعدة ثوان، ولا بد أن الإدارة في طريقها إلى هنا الآن. لذا، اهربي على الفور حتى لا تورطي نفسك في المتاعب.

سألته في ألم:

- وما الذي جاء بك أنت إلى هنا؟

لاهثًا قال:

- حظي العاثر. جئت أقبل مساعدتك بعد أن فصلوني من هنا، لكن القدر أبى أن أتخلى عن كرامتي للمرة الأخيرة قبل أن... قبل أن...

ألم، ألم رهيب يحرق صدري بنيران متوحشة.

- اهربي. اهربي يا «كاسيا». هيا قبل فوات الأوان. اهربي من أجل الطفل.

تراجعت، وألقيت على «كومار» نظرة أخيرة، قبل أن أحمل طفلي على كتفي وأهرول خارج الحجرة، وفي نفس اللحظة التي انغلق فيها عليّ مصراعَا المصعد، كان المصعد المجاور

ينفتح عن جيش من إداريي الفندق والقائمين على أمنه.

هرولت خارج الفندق كله، لا أدري إلى أين، ومن بداية الشارع ارتفع صوت أبواق سيارات الشرطة.

أين أذهب؟

أين؟

في اللحظة التالية أتاني الجواب، عندما توقفت بجواري تمامًا سيارة مرسيدس من أحدث طراز، مقودها على جهة اليمين ككل السيارات هنا في ماليزيا، وقد انفتح بابها الأيسر بغتة، ليدوي من داخلها الهتاف بالعربية:

ـ هيا، اركبي.

بكل الفزع الذي يعتمل بداخلي، وبكل الشك الذي يتعاظم في أعماقي تجاه العالم كله، انحنيت ناظرة إلى الداخل:

ـ مَن أنت؟

ـ شخص لا يريد إلا مساعدتك. اركبي.

اقتربت أبواق الشرطة، وفكرت أنه ليس أمامي حل آخر بالطفل الذي أحمله، فدسست جسدي الضئيل داخل السيارة التي انطلقت بكل سرعة.

نظرتُ إلى سائقها، وحاولت استجلاء ملامحه: الرأس الحليق تمامًا، الأنف الحاد، الرموش الطويلة، الفم الصغير، والشامة البنية الصغيرة المستديرة فوق خده الأيسر المواجه لي.

قال لي بصوته الرجولي، وبلهجته المصرية الصميمة:

ـ حسنًا فعلتِ بركوبك الآن دون نقاش، لقد اختصرت عليَّ مسافة طويلة من محاولات التقرب إليك.

عنَّ لي الخاطر فجأة:

ـ هل أنت منهم؟

ابتسم سائلًا:

ـ تعنين «حياة جديدة»؟

هو منهم إذن!

ـ في الواقع، هناك علاقة ما تربطني بهم، لكنها ليست العلاقة التي تجعلني واحدًا منهم بكل تأكيد. علاقتي بهم مثل علاقتك بهم تمامًا.

ثم إنه تنهد قائلًا في أسى، وهو ينعطف بسيارته إلى طريق جانبي يخرج بنا من قلب العاصمة الماليزية:

ـ إنني أحد ضحاياهم.

هتفت في دهشة:

ـ حقًّا؟!

ـ أجل.

ثم إنه التفت إليّ مواصلًا:

ـ أدعى «ميلاد». «ميلاد فريد».

11

السيارة الفارهة تقطع الطريق الخالي بنا تحت سماء الليل التي بدأت تُمطر.

على الجانبين حقول وأشجار وتلال معشوشبة يكسوها رداء الظلام والسكينة، وأنا أحتضن «كازين»، الملاك النائم، بينما ميلاد فريد يروي لي قصته باختصار.

كان اسمه «فايز أبو اليزيد»، وكان مليارديرًا مصريًّا تجاوز التسعين، لا يقوى على الحركة منفردًا، ويعيش على أدوية ما من فائدة تُرجى منها إلا السماح له بالموت دون ألم، نقلت مؤسسة «حياة جديدة» مخه إلى جسد شاب فتيٍّ موفور العافية، ليكتشف أن هذا الشاب لم يكن سوى قاتل مأجور محترف اسمه «ماركو»، وأن المنظمة التي كان يعمل لحسابها تطارده وتطالبه بدفع ثمن أخطاء ماض ملطخ لم يرتكبها، وهو الآن مطارَد من قِبَلِهم ومن قِبَل العدالة، يملك مهارات لا يعلم كيف اكتسبها، وتطارده الأحلام الليلية لوجوه تصرخ، وطلقات تنهمر من كل حدب وصوب، ودماء تُغرق أماكن لا يعرفها، وهو يحاول التعايش مع واقعه الجديد كشخص ثالث، ليس «ماركو»، وليس فايز، وإنما ميلاد.

ميلاد فريد.

أسأله والسيارة تنعطف بنا عن الطريق الرئيسي إلى آخر جانبي غير معبَّد:

ـ وكيف عرفت بأنني ضحية لهم؟ كيف عرفت قصتي واستطعت الوصول إلى مكاني؟

يبتسم هازًّا رأسه في غموض، ويقول:

ـ لا تتعجلي، ستعرفين كل شيء في الوقت المناسب.

أقول في عناد:

ـ بل الآن. أريد أن أعرف كل شيء الآن.

يقول في غموض أكبر:

ـ انتظري فقط حتى نصبح معلقين في الهواء.

الهواء؟!

ماذا الذي يعنيه هذا بحق الـ...؟

في الثانية التالية فهمت كل شيء، عندما ظهر أمامنا على جانب الطريق بناء خشبي صغير، أمامه تربض طائرة صغيرة من ذوات المقعدين، وقد استدار مقود ميلاد نحوها، لتقف السيارة على مقربة منها، ويفتح ميلاد الباب ليضيء مصباح سقف السيارة.

- هيا بنا.

أقول في ريبة، غير مستبعدة أن يكون الأمر لعبة أخرى من ألعاب المؤسسة:

- إلى أين؟

- إلى مكان أكثر أمنًا من كوالا لامبور، بالنسبة إليك على الأقل.

فهمتُ ما يعنيه، وبعثت بسمته الطمأنينة في أعطافي، خصوصًا عندما خلع معطفه، وغطى به رأس الطفل متابعًا:

- حتى لا تبلله الأمطار.

هبطنا من السيارة، وكدت أتوجه نحو الطائرة عندما استدار ميلاد إلى حقيبة السيارة هاتفًا بي:

- ألا تريدين إلقاء نظرة أخيرة على شخص من حياتك القديمة؟

شخص؟!

حياتي القديمة؟!

مَن؟!

أيكون...؟!

خففت السير إليه وقدماي تغوصان في الأوحال، وعندما فتح ميلاد حقيبة السيارة الخلفية، فهمت ما يعنيه على الفور.

هتفت وأنا أشهق:

ـ خالد؟!

كان الدكتور خالد مقيدًا في حقيبة السيارة، على وجهه كدمات وجروح، ويبدو غائبًا عن الوعي، أو...

ـ ليس ميتًا، هو مخدر حتى الصباح فقط.

قالها ميلاد وهو يحدق في وجهه، وسألته وقطرات المطر تغرق عيني:

ـ هكذا عرفتم الطريق إليّ إذن؟

ـ كما أخبرتك.

وأعاد غلق الحقيبة ليسير أمامي، ويتابع:

ـ ستعرفين كل شيء عندما نحلق في الهواء.

أشرت إلى الحقيبة المغلقة:

ـ وسنتركه هنا؟

أتاني هتافه دون أن يلتفت نحوي:

- ستكتشف الشرطة وجوده في الصباح عندما يصلهم بلاغ وجود السيارة وحيدة ها هنا. هناك ثقب في الحقيبة يكفيه للتنفس إن كنت تخشين عليه من الاختناق.

ولم يكن أمامي إلا أن أتبعه.

قطعنا الطريق إلى الطائرة تحت سيول السماء المشتدة، وعندما جلستُ داخلها إلى جوار ميلاد سألته عندما رأيت يديه تعبثان بالأزرار، وتثبتان جهاز اتصال فوق أذنيه:

- أنت الذي ستقود الطائرة؟

قال باسمًا:

- ألم أقل إني أملك مهارات لا أعلم كيف اكتسبتها؟ هذه إحداها!

هزم الرعد مدويًا في السماء، فقلت في قلق وأنا أراقب انهمار المياه فوق الزجاج الأمامي:

- في هذا الطقس المخيف؟

قال والطائرة تتحرك بالفعل:

- لقد اعتدت على التحليق في أجواء أكثر سوءًا، اربطي الحزام واحتضني الطفل جيدًا فحسب.

امتثلت لأمره، وأغمضت عيني في محاولة لتمالك نفسي، حتى حلقت بنا الطائرة بالفعل على ارتفاع منخفض، وأخذ الجو في التحسن كلما اخترقت بنا الطائرة الهواء إلى الأمام، فشعرت ببعض التحسن، واستدرت أسأل ميلاد:

- إلى أين؟

قال ببسمة لها مغزى:

- منطقة في قلب آسيا.

صحت في انفعال:

- مؤسسة «حياة جديدة»؟

ضحك قائلًا:

- ليتنا نعرف مكانها الفعلي، إذن لما بقي لها على سطح الأرض من أثر. لكننا نعمل على الوصول إليها، سيستغرق ذلك بعض الوقت لكننا نعمل بجد حقيقي.

- تعملون؟! تعرفون؟! عمن تتحدث بصيغة «الجمع»؟!

نظر نحوي، وأجابني في اقتضاب:

- الأشباح.

أخافتني اللفظة، فغمغمت أحاول ترديدها:

ـ الـ... ماذا؟!

عاد يضحك، ويقول:

ـ إنها الصفة التي أطلقناها على أنفسنا، نحن ضحايا مؤسسة «حياة جديدة».

ثم إنه استطرد:

ـ تعرفين أن «حياة جديدة» مؤسسة دولية، ذات فروع ومندوبين في كل بقاع العالم. ضحاياها متناثرون في كل مكان تقريبًا. وقد عرفنا كيف نجد بعضنا في العاصفة ونتكاتف من أجل الوقوف ضد هذه المؤسسة الملعونة. هدفنا الأساسي هو الوصول إلى مركزها وإبادته تمامًا، كنوع من التطهر الذاتي والتكفير عما ارتكبه كل منا في حق فطرته الأصلية كإنسان، ولإيقاف توغلها أكثر في سبيل الحد من عدد ضحاياها. إن زبائن المؤسسة أغنياء، يملك كل منهم ثروة طائلة يستطيع عن طريقها دفع أجر عملية نقل المخ المكلفة. وهكذا قررنا أن نتحرك في نظام، أنشأنا لأنفسنا مقرًّا سريًا في قلب آسيا، نقلنا إليه إقامتنا، وجهزناه بكل وسائل التعقب وتكنولوجيا الاتصالات الحديثة، حتى نتتبع آثار المؤسسة في جميع الدول. لدينا طاقم كامل من الموظفين المخصصين لهذا الشأن، وأحدهم كان مُكلّفًا بتعقب قصتك أنت بالذات، عندما استطعنا الاستدلال على عمل الدكتور

خالد كمندوب في مصر، وعن طريق اصطياده من مؤتمر «كوبنهاجن» ثم استنطاقه بوسائلنا الخاصة، عرفنا مكانك في كوالا لامبور، وتصديث لمهمة إحضارك إلى مقرنا بصفتي مواطنًا من دولتك. سيعجبك مقرنا، أنا واثق من هذا، إنه أشبه بمنفى جميل، يجتمع فيه البائسون الذين أفسدوا حياتهم بأيديهم، مثلي، ومثلك!

عدت أغمغم، وأنا أغمض متأملة سارحة في ملكوت الله:

ـ أشباح... في المنفى!

ضحك ميلاد مرة ثالثة، قبل أن يقول:

ـ أجل، نحن أشباح بالفعل.

وغاضت البسمة في سيل من الحزن الجارف ارتسم على محياه إذ أردف:

ـ لا نستحق وصف الأحياء، ولا نحن بالموتى، نقف على برزخ يفصل ما بين حياة وموت، نعيش على هامش هذا العالم، موجودون وغير موجودين، لكل منا هويتان قديمتان، وواحدة جديدة. نستحق أن نعزل أنفسنا عن الآخرين كمرضى، لكننا نعمل من أجل هدف واضح ومحدد: القضاء على مَن فعلوا بنا ذلك. وأنت ـ شئتِ أم أبيتِ ـ واحدة منا، واحدة من أشباح المنفى.

هكذا يتضح المصير أمام عيني، ويتوقف المطر المنهمر في الخارج مع تباشير الفجر الأولى التي تبزغ من خلف أفق الجبال والسهول والمروج والبحيرات وأسراب الطيور المهاجرة.

هكذا يتضح المصير الذي قررته لنفسي.

وهكذا أستطيع أن أرى المنفى الذي يتحدث عنه ميلاد مشيرًا بسبابته إلى الأسفل:

- ها هو ذا.

مبنى كبير، أبيض اللون، مسقوف بصفائح معدنية وأطباق بث واستقبال، لا توجد نوافذ أو أبواب فيما عدا بوابة كبيرة وحيدة في المقدمة، أمامها عدد من الطائرات والسيارات، وحول المبنى سور معدني شائك مرتفع.

كأنها ثكنة عسكرية خاصة!

- مرحبًا بك في المنفى الاختياري الذي يجمع كل الأشباح معًا.

قالها، ثم هبطت الطائرة بنا أمام البوابة، انفتح البابان إلى أعلى ليقفز ميلاد، ثم مد ذراعيه ليتناول مني الطفل، الذي بدأ يفيق ويفرك عينيه أخيرًا.

تجمدتُ في جلستي، قبل أن ألتفت إليه قائلة:

- لا أدري، إن كنت مستعدة لقبول هذا المصير أم لا.

هرش ميلاد في رأسه الحليق تمامًا، وقال:

- لقد قبلت به فعلًا عندما نقلوا مخك إلى جسد الآسيوية الصغيرة.

هززت كتفي، وقلت في عناد:

- ربما عدت إلى مصر، وبدأت حياتي مجددًا كيفما أحب، وربما بدأتها في أي مكان آخر من العالم الواسع.

- سيجدك شياطين «حياة جديدة»، وسيُحيلون حياتك في أي مكان من العالم إلى جحيم، كوني واثقة من هذا.

أشرت إلى المبنى الأشبه بقبر عملاق:

- وهنا؟ أليس العيش هنا جحيمًا آخر؟

قال ميلاد في صبر:

- على الأقل ستجدين مَن يهون عليك، ويتفهم حالك، حتى انتهاء المعركة بيننا وبينهم. وفي كل الأحوال، الاختيار لك.

وأعطاني ظهره متابعًا:

- يمكنك أن تأخذي أي سيارة من هنا وتعودي، ويمكنني أن

أقلّكِ بالطائرة إلى أي بقعة في العالم، لكن، عليك أن تعرفي ما سيحدث لك.

واستدار نحوي قائلًا في لهجة أرعبتني من فرط صدقها:

ـ لن ينمو جسمك أبدًا، ستحل عليك لعنة الشباب الأبدي، وستبدأ كل الأيام في التشابه، لدينا من بين الأشباح من بقيت سِنه عشرين عامًا لخمس سنوات متواصلة. هل أنت مستعدة لمواجهة هذا النوع من العقاب السماوي دون التفكير في الانتحار؟

هذا شنيع بالفعل!

كان ميلاد يشير إلى الداخل مواصلًا:

ـ لدينا من بين الأشباح قصص لا يُصدقها عقل: لدينا مَن استنسخ نفسه وزرع مخه في جسمه الجديد، ولدينا من زرع تفاصيل شخصيته في برنامج واقع افتراضي وظل محبوسًا داخل جهاز كمبيوتر، ولدينا مخ طفل في العاشرة مزروع في جسد مصارع في ريعان الشباب، لدينا قصص وقصص ربما أكون أنا وأنت أهونها. لدينا أشباح من آسيا وأوروبا وأفريقيا والشرق الأوسط. ستسمعين في الداخل قصصًا يشيب لها الولدان، عما حدث لكل من رفضوا الانضمام إلينا وفضلوا التمادي في عنادهم وعيش حيواتهم الجديدة. والاختيار ما

زال لك كاملًا. فما قولك؟

صمت.

تبادلنا النظرات، ثم انهال ميلاد بذراعيه على جانبيه، قبل أن يعطيَني ظهره قائلًا في ألم:

ـ رباه! لم أكن أتصور أن تكوني بهذا العناد. سأجعل واحدًا آخر يوصلك إلى حيث تريدين.

ـ ميلاد.

هتفت به، فاستدار نحوي بعينين يلوح فيهما أمل أخير.

ـ أنا شبح آخر، وسأنضم إلى بقية الأشباح.

اقترب مني راسمًا فوق شفتيه بسمة تشجيع، وتناول الطفل، وقفزت أنا سائرة خلفهما.

أمام البوابة توقفنا. وقال ميلاد باسمًا:

ـ مرحبًا بك في منفانا، أيها الشبح الجديد.

انفتحت البوابة، واجتزناها، ثم انغلقت خلفنا.

ولف المكان صمت عميق، مخيف، وممتد.

12

عزيزي طارق

أكتب لك من مكان ما، بقعة في قلب آسيا لا أعرف عنها شيئًا.

ربما يبدو ما أقوله عصيًا على التصديق، لكني لا أهرب منك صدقني، هناك أمور عصية على التصديق أكثر، ربما لو علمتها لوصفتني بالخبال.

ولعلي مخبولة فعلًا، غير أن هذا خارج نطاق اهتمامي حاليًا، فقد اكتفيت من التفكير في حالتي العقلية منذ وقت طويل.

ما دفعني اليوم للكتابة إليك هو أني أفتقدك بحق، أفتقد كل شيء في منزلي المطل على البحيرة، أفتقد أم محمود و«تمارا» ورائحة البن في قهوتي المُرّة، أفتقد حتى الكلية ومضايقات مؤمن، وأتمنى لو أن الزمن يعود إلى الوراء حتى أرشف رحيق كل اللحظات الحلوة على مهل، لكن عقارب الساعة لا ترجع إلى الوراء أبدًا يا عزيزي.

ليس هذا ممكنًا أبدًا، إنه الدرس الكبير الذي تعلمته بعد فوات الأوان!

ربما يبدو كل ما أكتبه غامضًا، لكني سأكون واضحة معك إلى أقصى حد يسمح به العقل والمنطق: ليس مقدرًا لنا أن نلتقي ثانية يا طارق!

أعلم كم يبدو هذا قاسيًا، لكني سأوفر عليك مشقة التفسيرات السخيفة، وسأكتفي بالتأكيد أن الأمر خارج عن إرادتي تمامًا.

لو كان بإمكاني أن أختار الآن، لاخترت ألا نتقابل من الأصل بهذا الشكل، ولاكتفيت بلقائنا الأول الذي ترك عنك في نفسي انطباعًا مختلقًا وخطأً!

ذلك اللقاء الذي لا تعرف عنه شيئًا، رغم أنك كنت هناك يا عزيزي!

تخاريف؟!

إليك المزيد من التخاريف إذن: أنا الآن أعيش حياتي في مكان مغلق وسط أشباح آدمية، غير مسموح لنا بالخروج، فقط نلتقي في الليالي الطويلة ليروي كل منا قصته وسط العبرات وعبارات التعاطف والتشجيع، ورغم كونهم أشباحًا إلا أنهم غير مخيفين على الإطلاق، إنهم مجرد مساكين وبؤساء دفعهم الاختيار الخطأ إلى هنا، مثلي تمامًا!

مزيد من التخاريف: هناك طفل يؤنس وحدتي وتلتهم

رعايته أغلب وقتي، يحمل وجهه بعض ملامحي، ويناديني الآن بـ«ماما»، ورغم أني قد أكون أمه فأنا واثقة في نفس الوقت أني لست أمه، في الحالتين أنا سعيدة بوجود قيمة حقيقية لحياتي مع هذا الطفل، كل همي الآن أن يكبر وأن أراه في مثل سني، فلو قُدّر لي أن أعيش فسأبقى في هذه السن، وربما نصبح ـ أنا وهو وقتها ـ أصدقاء!

لو أردت المزيد فهناك المزيد حتمًا، لكني أربكتك بما فيه الكفاية حسبما أظن.

كل ما سأطلبه الآن أن تهتم بـ«تمارا»، وأن تعطي «أم محمود» وجلال أجريهما في بداية كل شهر كما كنت أفعل، فمع هذا الخطاب سوف يصلك مني شيك بمبلغ كبير من الدولارات أضعه تحت تصرفك، وأتمنى أن تُحسن التصرف فيه حقًّا يا عزيزي.

أخرج تبرعات في أوجه الخير، لا تبخس عاملًا أجره، ادفع للمحتاجين والمرضى، حتى يكتب الله لي ولك حسنات بما نفعل، ولو قررت أن تنفق في سبيل فنك فلا بأس، أنا واثقة أنك ستعرف كيف تصنع فنًّا راقيًا يليق بطموحك وأخلاقياتك.

لكل شيء نهاية، وخطابي قد وصل إلى نهايته.

ربما كتبت لك مرَّة أخرى وربما لا، توقع أي شيء من مخبولة مثلي.

في أمان الله، يا عزيزي طارق.

جيسيكا

***

قرأ طارق الخطاب للمرَّة الألف، محاولًا أن يفهم من بين سطوره ما خفي عنه دون أن يستطيع، فأنزل الجيتار من على قدميه، وخرج إلى شرفة غرفة النوم ليعيد قراءته مرة أخرى وأخرى.

كانت «تمارا» تموء متمسحة في ساقه وهو واقف عند الشرفة وقت الغروب، بينما أم محمود تمسح شرفة الطابق السفلي المطلة على البحيرة.

وفي الأفق، كان النورس الوحيد يلقط رزقه من مياه البحيرة، نائحًا ببكائيته الأثيرة.

انحنى طارق ليربت بكفه على ظهر «تمارا»، وقال باسمًا:

ـ لقد طلبتْ مني أن أهتم بكِ، ولن أستطيع إخبارها أنني أفعل دون طلب منها.

أفلتت الريح أصابعه القابضة على الرسالة عند حافة سور

الشرفة، فطارت الورقة في الهواء.

بعيدًا، بعيدًا، وعيونه تتابعها.

حتى انطرحت فوق صفحة الماء، وتوحدت معها، ثم بدأت تغوص إلى القاع في بطء.

عميقًا، عميقًا، عميقًا.